

٦٤ - ٦٦
١٧٥ - ١٦٧

892.78: I1315mA

ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف .

892.78
I1315mA

~~16 Jun 65~~

~~25 Jan 66~~

~~21 Dec 67~~

~~JAN 154~~

OC 154 JAFET LIB.

~~- 6 Aug 69~~

~~JAN 14 '56~~

~~1 JUN 197~~

~~25 Nov 66~~

~~OC 154~~

~~MAR 29 60~~

~~2 Feb 68~~

~~3 Apr 70~~

~~MAR 16 61 JAFET LIB.~~

~~- 1 JUN 1960~~

~~- 9 Sep 63~~

~~72 - 60~~

J. LIB.

13 APR 1979

~~- NOV 63~~

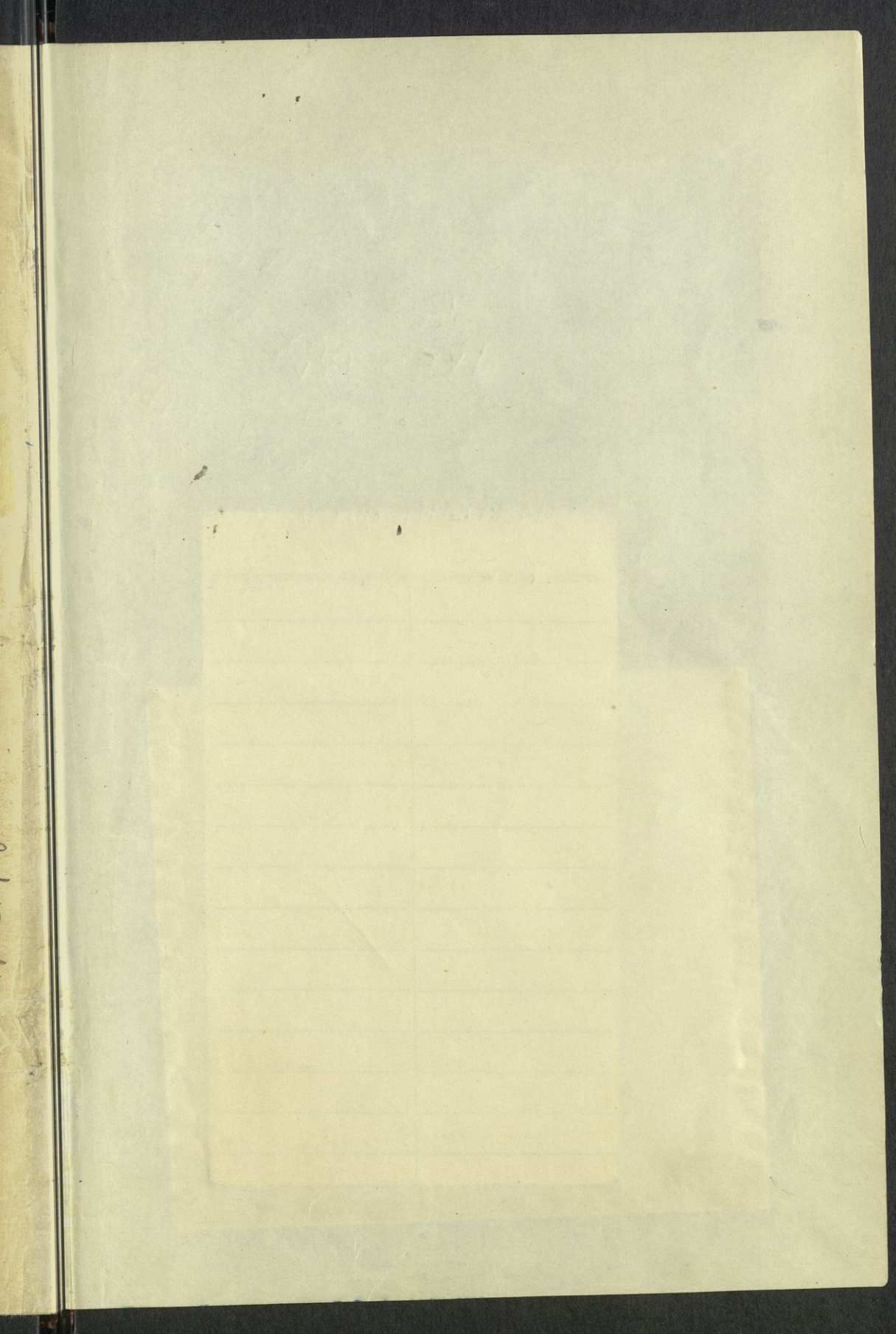
~~- 5 Dec 69~~

JAFET LIB

~~- 1 OCT 1978~~

JAFET LIB.

4 NOV 1992



وزارة المعارف العمومية

892.78
I1315m A
C.1



المكافأة

لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب

صحيحه وضبطه وشرحه

على الجارم بك

أحمد أمين

الطبعة الأولى

حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لقراءة طلاب
السنة التوجيهية بالمدارس الثانوية

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية بمصر

١٩٤١

Cat. 1554/153



تقديم

أحمد بن يوسف مؤلف هذا الكتاب كان أحد كتّاب الدولة الطولونية التي حكمت مصر من (٥٢٥٤هـ - ٥٢٩٢هـ) بعد أن اقتطعتها من الدولة العباسية . وكان مؤسسها أحمد بن طولون ذا عقل جبّار، ورأى مستد، وضع لها نظمها المالية والسياسية على أساس متين ، ورتّب نراجها ، ونظّم ربيّها ، وحدّد ضرائبها ، ولم تحفّ عليه محاولة العباسيين استرجاعها ، ودسّ الدسائس في إثارة أهلها . فكان يأخذ بالظنة ، ويعاقب بالريبة ، ويخشى من لهم اتصال برجال الدولة العباسية ، ويعمل على الفتك بهم ومصادرة أموالهم .

وكان أصل أحمد بن يوسف من العراق . رحل أبوه إلى مصر بعد أن خدم مولاة إبراهيم بن المهديّ، ولازمه حتى مات، فانتقل إلى مصر ، واشتغل فيها بالعلم والأدب والمال . ولكن اتصاله القديم بالبيت العباسي جعل ابن طولون لا يركن إليه ، ولا يأمن شرّه . لذلك نرى في تاريخه، أنّ أحمد بن طولون قد حبسه وكاد يقتله لولا شفاعته

أتباعه^(١) . ولما مات يوسفُ أمر ابن طولون أعوانه فهاجموا على داره، وحملوا صندوقين من أوراقه، مقدّرين أن يجدوا فيها شيئاً يدلّ على صلةٍ له بمن ببغداد^(٢) .

ونشأ ابن مؤلف هذا الكتاب على نمط أبيه : فهو مثقف ثقافة واسعة ، وهو كاتب كما يدلّ عليه كتابه هذا ، وهو شاعر يُنقل ديوان شعره إلى العراق^(٣) ، وهو عالم بالحساب والهندسة والفلك ، كما تدلّ عليه ترجمة "ياقوت" له ، وهو آخذ بحظّ من الفلسفة كما يظهر ذلك في ثنايا كتبه .

ولم يكن أحمد بن يوسف من هؤلاء الأدباء والعلماء الذين ينقطعون لأدبهم وعلمهم ، ويعتمدون في ذلك على ما يمنحهم الولاة والأمراء من منح ، أو يتزهدون فيكتفون بما لهم من عقار يُغلّ عليهم بعض المال . إنّما كان كأبيه ، ينغمس في الدنيا وفي الحياة الواقعة ، ويصرف جزءاً من وقته في تدبير المال والقيام عليه وإنمائه ،

(١) انظر القصة الثالثة عشرة .

(٢) انظر القصة الخامسة .

(٣) انظر القصة الثالثة والعشرين .

كان أبوه يدبر أموال إبراهيم بن المهدي ويقوم على أراضيه ،
 فاكسب بذلك خبرة مالية كبيرة، فلما جاء إلى مصر استخدم قدرته
 المالية، فاستغل بعض الأراضي المصرية من الدولة الطولونية: ويتقبل
 الأرض (يلتزمها) ويستأجرها . وأحيانا يملكها ويزرعها ويتاجر
 في محصولاتها . ونحا ابنه (مؤلف كتابنا) منحا، فكان أديبا عالما ماليا
 معا ، يؤلف الكتب ، ويقول الشعر ، ويستغل الأرض .

والمهارة المالية التي من هذا القبيل كان لها مزايا وكان لها مضار ،
 فآهم مزاياها : أن صاحبها ينغمس في غمار الناس فيعرف حياتهم ،
 وتفاصيل سلوكهم ، ونوع عقليتهم ، ويخبر الدنيا خبرة تامة . وأهم
 مضارها: أنها كانت تعرض صاحبها في كثير من الأحيان إلى الأهوال
 والأخطار، فلم تكن الحكومات في ذلك العصر قائمة على ما نعرف من
 العدل وحفظ الأمن على المال والنفس ، بل كانت المعاملات
 وخاصة ما اتصل منها بالحكومات عرضة للظلم والفساد . فكثر
 المصادرات ، وكثر قتل الأنفس للاستيلاء على الأموال إلى غير ذلك
 من ضروب العسف . وتقرأ تاريخ مصر وتاريخ العراق في ذلك العصر ،
 فتري اضطرابا وفسادا من هذه الناحية لا حد له ، وقلما تقرأ سنة من سني
 التاريخ في تلك الأيام من غير أن يسجل فيها ظلم بين وشره بين .

وكلا الأمرين ينبغي في حياة أحمد بن يوسف: عارفٌ بالدنيا خبير
بشئونها ، معترض من حين لآخر لمصادرة أمواله ، وضياح ثروته ،
لولا احتماء بوالٍ أو أمير ، أو مكافأة على جميل .

في وسط هذه المظالم الفتاكة والمفاسد المنتشرة ، كانت تصدر من
بعض أشخاص نبلاء أعمال نبيلة تلمع في هذا الجو الحالك ، وتخفف
على الناس ويلاتهم ومصائبهم ، وعلى قدر هذه الشدائد، تكون
الإشادة بالمحامد. ففقر العرب في الجاهلية، وبؤس أهلها، جعل الكرم
يحلُّ أسْمَى مكان بين الفضائل، فامتلاً أدبهم بالتمدح بالكرم، وإطعام
الطعام ، ونحر الجزر ، وقرى الضيفان وما إلى ذلك .

وفي عصر مؤلفنا هذا ، كانوا يتشوّفون في ظلام الظلم إلى الأنوار
القليلة المضيئة من أعمال النبيل: كإغاثة ملهوف، ونجدة بئس، وإعزاز
كريم ذلّ ، وإمداد غنيّ افتقر .

وقد كان أحمد بن يوسف وأبوه يوسف بن إبراهيم ممتازين من
هذه الناحية، كلاهما مع غناه وثروته ذومروعة ونجدة، يشعر أنّ المال
غادٍ ورائح ، وأنّ المرء عرضة في كل وقت للفقر ، فلا بدّ من أن
يتسلّح بالمروعة ، ينقذ بها البئس من بؤسه، لعله يكون يوماً في مثل

حالته ، فيجد من ينجده . فيحدثنا "ياقوت" عن يوسف بن إبراهيم أنه "كان ذا مروءة تامة" وتدّل بعض القصص في هذا الكتاب على أنه كان له أتباع يتعصبون له ويفدونهم بأنفسهم ، لما يسديه إليهم من خير ، ويقدم لهم من معروف ، وابنه أحمد بن يوسف نفسه كان كذلك كريما نبّيلا . يحدث — مثلا — أنه رأى تاجرا كسر مركبه وغرق فيها ما يملكه ، فواسيه أحمد بن يوسف ويثّ من يغوص على مركبه ليستخرجوا مافيه ، ثم يعوّضه عما فقدته بنفسه وبرجاله .^(١) ومثل هذا في الكتاب كثير .

رجل مثل هذا جدير بأن ينمو عنده الشعور بالإحسان ، وأن يرهف حسّه لأعمال المروءة ، وأن يدعوه ذلك لأن يفكر في قصص النبيل وحسن المكافأة .

وقد علّل ذلك تعليلا بديعا في أول كتابه ، فذكر أنّ الناس سلكوا لاستدرار المال من الممدوحين سبيل التنويه بذكر الكرماء وما منحوا ، والعطاء وما أعطوا ، وحثّوهم من طريق خفيّ على أن يعملوا عملهم وبعطوا عطاءهم . ولم يستحسن أحمد بن يوسف ذلك . ورأى أنّ خيرا منه ، أن يشاد بذكر من أحسن إليهم ، فكافئوا بالإحسان إحسانا فإنّ

(١) انظر القصة الثالثة عشرة .

هذا أدعى إلى الكرم . وأبعث على المحاكاة . ولا شك أنّ هذا في مسالك النفس أفعل ، لأنّه يُفهم الكريم من طريق خفيّ كذلك — أنّ في ذلك نفعه الشخصيّ فإنّه سيلقى جزاء ما يقّدمه من خير مهما كان قويا ، ومهما كان المحسن إليه ضعيفا . بل طلب في خاتمة الكتاب أن يبلغ المكافئ مبلغا من السموّ لا ينتظر معه مكافأة ولا جزاء ، فيكفيه شعوره الجميل بأنّ له ديونا يتحمّلها خيار الناس ولو لم يؤدوها .

وقد قصّ علينا في هذا الباب إحدى وثلاثين قصّة ، وقع بعضها في مصر في عهد المؤلف ، وبعضها في غير عهده ، وبعضها في الشام ، وبعضها في العراق ، إلى غير ذلك . وقد جمعها كلّها حول محور واحد : هو حسن الصنيع بالمكافأة على الجميل بالجميل .

ثم أتبع ذلك بقسم آخر عنوانه "المكافأة على القبيح" وهو يتضمّن إحدى وعشرين قصّة تدور حول مكافأة القبيح بالقبيح . وهو مكمّل للقسم الأول . فاذا كان القسم الأول يستحثّ الإنسان على فعل الخير توقعا للمجازاة بالخير ، فالقسم الثاني يحذّر من فعل الشرّ خوفا من سوء المجازاة بالشرّ .

أمّا القسم الثالث فاسمه "حسن العقبى" ويشتمل على تسع عشرة قصة . وهى كالمكملة للقسمين الأولين . فانها تدور حول من وقع فى شدة ثم خلص منها ، وكان عرضة لضياح ماله أو فقدان نفسه فردّ إليه ماله ، ووهبت له نفسه ، كما كان أو خيرا مما كان .

هذه إحدى وسبعون قصة فى هذا الكتاب موزعة على ثلاثة أبواب ، كلها تدعو إلى الخير وتنقّر من الشر .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة أدبية وأخلاقية وتاريخية .

فأما الأدبية ففي أسلوب المؤلف فى عرض القصة . فهو أسلوب جزل رصين ، يحكم التعبير عن المعنى فى أوجز عبارة وأمتنها وأقواها ، تجدد فى كل قصة جملا تستوقف النظر ، سواء من ناحية جزالة لفظها أو قوة معناها . حتى لو شاء معبر أن يؤدى غرضها لاستوجب منه ذلك أضعاف ألفاظها ، أنظر مثلا إلى قوله فى القصة الثالثة : "أيحسن بشيخ مثلى أن يترجى فى المعروف ؟" وقوله : "إن عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف" . وقوله فى القصة الثانية والعشرين : "استصنى ماله بالسوط وعظيم الإخافة" وفى القصة السادسة والعشرين : "تسلّمت منه قوما تشهد لهم القلوب

بالفضل فأنست وحشتهم ، وفسحت رجاءهم “ وهكذا في كل قصة نجد بدائع يحسن الوقوف عندها وتذوقها وترديد الإعجاب بها . لم يقصد فيه مؤلفه إلى سجع ولا إلى توشية بأنواع من البديع ، وإنما قصد أن يؤدي المعنى من أوجز طريق وأيسره ، فكان ذلك محمداً الكتاب ، إذ لم يصرف الناظر عن المعنى الجميل باللفظ المزوق .

قد يؤخذ عليه أنه إذا عرض للقصص أوضح في أسلوبه وأبان . وأما إذا خرج عن القصص غمض واعتراه شيء من الخفاء ، كما ترى في مقدمة الكتاب وخاتمته وآخر القسم الأول منه . ولعل عذره في ذلك ، أنه يعتمد إلى معان فلسفية وشرح حالات نفسية يعالجها على نمط الفلاسفة إذ كان متأثرًا بهم ، مثقفًا ثقافتهم ، فهو إذا تفلسف غمض ، وإذا تأدب وضع .

وأما ناحيته الأخلاقية ، فقد التزم في الكتاب عرض قصص تدل على النبل والمروعة ، وعلى مجازاة الحسن بالحسن ، والقيح بالقيح . والحث على الصبر عند الشدائد ، فإنها ستنتفج لا محالة . وهذا ضرب من ضروب التعليم بالمثل ، جرى عليه كثير من مؤلفي العرب والفرنج ، كما ترى في هذا الكتاب وكتاب “ المستجاد من فعل الأجواد ” وكتب سميبلز بالانجليزية ونحوها .

ومزية هذا الكتاب أنّ موضوعه خلق معروض العرض الأدبيّ ،
فهو رائع في شكله ، رائع في جوهره . تُعجّب عند قراءة كلّ
قصة بمغزاها ومبناها معا .

وأما الناحية التاريخية للكتاب ، فقيمة من ناحية أنّ فيه قصصا
تاريخية توضّح بعض ما جاء في كتب التاريخ . وقصصا مصرية
طولونية ، تدلّ على نواح كثيرة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية
في مصر في ذلك العصر ، هذا إلى ماله من قيمة في تاريخ الأدب
فالكتاب عظيم القيمة من ناحية دلالاته على الأسلوب الأدبيّ في العصر
الطولونيّ ، وعلى ما كان يستعمل من عبارات مصرية أدبية هجر
بعضها وبقي بعضها ، فأنّت ترى فيه كثرة شيوع الاستفهام من غير
أدوات الاستفهام ، كما هو الشائع في مصر الآن . وواجد فيه التعبير
ببراءة الساحة كما نعبر اليوم ، كما أنّه يعبر تعبيرات غير مألوفة
في أسلوبنا اليوم كقوله ” واستدعى الواحد بعد الواحد من أسباب
الطولونية ” يريد عمّا لها . وهكذا في الكتاب مجال فسيح لهذا النوع من
البحث في التاريخ الأدبيّ .

وكان الكتاب — مع الأسف — قد وصل إلينا مملوءا بالتحريف
والأخطاء، فبذل بعض من تقدمونا الجهد في تصحيح بعضها، وبذلنا
نحن جهدنا في تصحيح بعضها ، وأعنا القارئ بتفسير غامضه
والتعريف برجاله . والله المسئول أن ينفع به .

أحمد أمين على الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمد عبد الله الفرغاني . قراءة مني عليه . قال : أخبرنا
أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب ^(١) ، قراءة مني عليه . قال :

سَدَّدَ اللهُ فِكْرَكَ ، وَأَحْسَنَ أَمْرَكَ ، وَكَفَّاكَ مُهِمَّكَ . إِنَّ أَشَدَّ
عَلَى الْمُتَمَحِّنِ مِنْ مَحْتَتِهِ ، عَدُوُّهُ فِي سَعْيِهِ عَنْ مَصْلَحَتِهِ ، وَتَنَكُّبُهُ
الصَّوَابَ فِي بُغْيَتِهِ ، وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ مِنَ الْجَدْوَى مَا نِيَّ يُسْتَنْزَلُ بِهِ
عَوَائِدُهَا ^(٢) ، وَيَقْرُبُ مَعَهُ مَا اسْتُضْعِبَ مِنْهَا ، يَسْتَثِيرُهُ حَسَنُ الرِّوَايَةِ ،
[وَيَقْرُبُ إِلَيْهِ] صَالِحُ التَّوْفِيقِ .

^(١) هو أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم . كان يلقب بابن الداية
لأن أباه كان ولد داية ابن المهدي .

وقد عرف أحمد بالأدب والطب والحساب ، وألف سيرة أحمد بن طولون
وسيرة ابنه نهارويه .

ومات بعيد سنة ٣٣٠ هـ .

^(٢) العوائد . جمع عائدة : المنفعة .

وقد رأيتك لا تريد من رَغِبْتَ^(١) إليه فيما تحدوه على بِرِّك ، وتحثه
لما أغفل من أمرك ، على نصِّ مكارِم من سلف . وترى أنه
يَهْشُ^(٢) إلى مساجلتهم^(٣) ، فلا تبلغ في هذا أكثر من إحراز
الفضيلة للمرغوب إليه ، ولا توجد في الراغب^(٤) فضيلة تحثه^(٥) على شفيح
قصده^(٦) . ولو عدلت عن مكارِم من رُغِب إليه ، إلى حُسْنِ
مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمتُّ بها الراغب ، ويوجد
المرغوب إليه سبيلاً^(٧) إلى الإنعام ، ويفسح أمله في مؤاترة^(٨)
الإحسان . ولم يؤت الجود من مائى هو أغمض من مغادرة حُسْنِ
المكافأة . ولو أنعمت النظر فيها^(٩) لوجدتها أقوى الأسباب في منع

(١) من رَغِبَ إليه : من توجهت إليه نفسك طمعا في إحسانه ومعرفته .

(٢) هَشَّ : (من بابى ضرب وفتح) نشط وخف وارتاح .

(٣) المساجلة : المباراة والمفاخرة .

(٤) الراغب : طالب البر والمعروف .

(٥) تحثه : ضمير المفعول يعود إلى المرغوب إليه .

(٦) على شفيح قصده : على حق المرغوب إليه في المكافأة الذى يشفع لما
يقصد إليه من الإحسان والبر .

(٧) أوجد فلانا الشيء : أظفقه به .

(٨) مؤاترة : متابعة .

(٩) فيها : الضمير يعود على مغادرة حسن المكافأة .

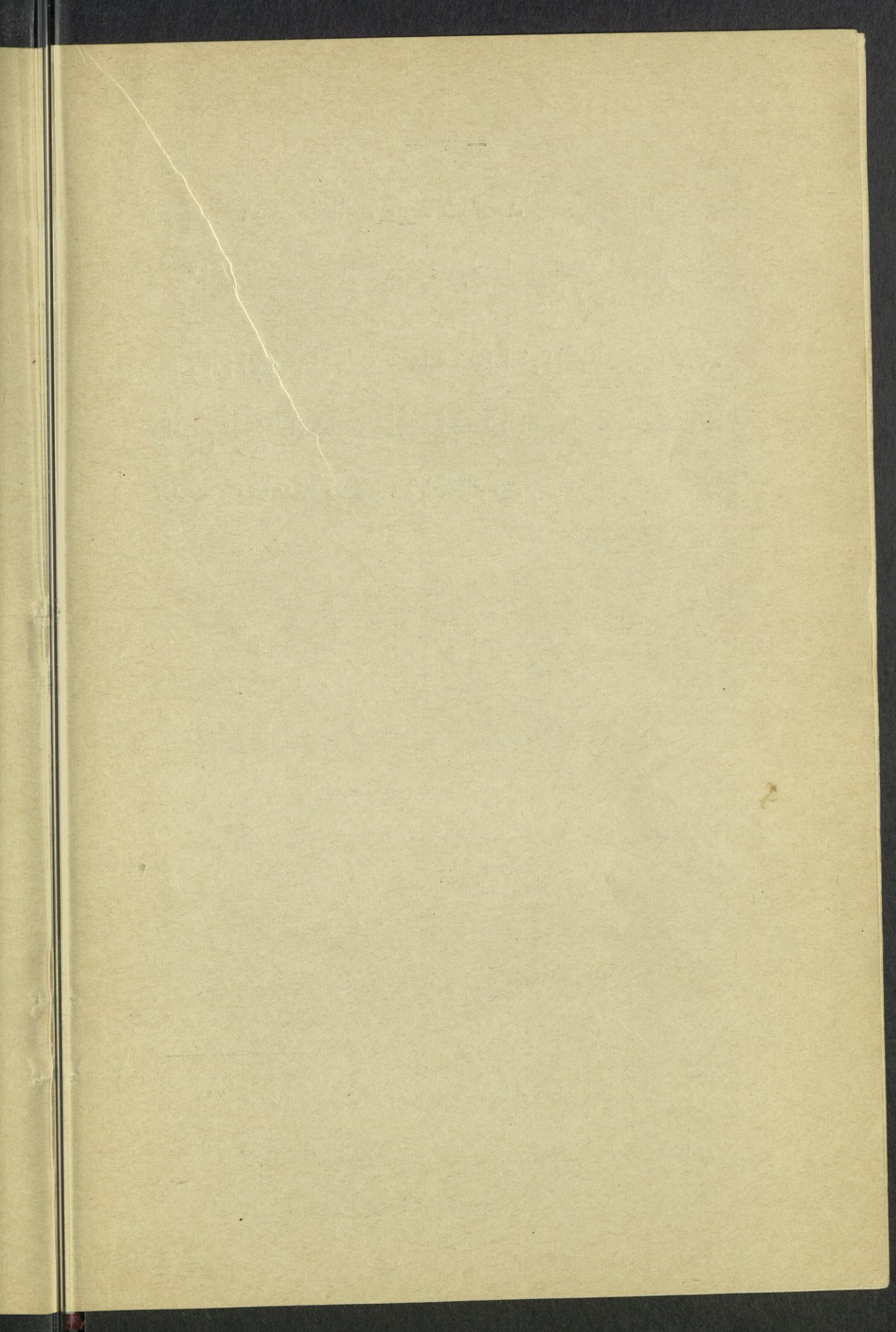
القاصد^(١) ، وحيرة الطالب . ولو كانت توجد^(٢) مع كل فعل استحقها ،
لأثر الناس قاصديهم على أنفسهم ، ولجروا على السنن الماثورة عنهم .

[وإني أثبت] في هذه الرسالة أخباراً في المكافأة على الحسن
والقبيح تنعم^(٣) الخاطر ، وتُقربُ بَغِيَّةَ الراغب ، مما سَمِعناه ممن
تقدمنا ، وشاهدناه بعصرنا ، وبالله التوفيق .

(١) القاصد : قاصد البر ومريده ، ومنعه : رفض إعطائه .

(٢) توجد : أى المكافأة .

(٣) تنعم الخاطر : تريح النفس وتمتعها .



المكافأة على الحسن

حدثني أبو محمد يحيى بن الفضل ، عن عبد العزيز بن خالد الأموي .
عن أبيه خالد . قال :

أخبرني محارب بن سلمة . كاتب خالد القسري^(١) :
أن ديوانبان^(٢) خالد أخرج من ديوانه وثيقة على بعض
المتضمنين^(٣) ، فدفعها إليه ببرّ تعجّل منه^(٤) ، فدعا به خالد وأمر

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسيد القسري ، نسبة إلى قسر بن عبقر ،
بطن من بجيلة . ولي خالد العراقيين هشام بن عبد الملك . وكانت أمه نصرانية .
وكان معدودا من خطباء العرب وأجوادهم . مات مقتولا سنة ست وعشرين
ومائة بالحيرة .

(٢) ديوانبان : القائم بشئون الديوان . وكلمة "بان" بالفارسية معناها : القائم
على الشيء المشرف عليه . ومن أمثال الديوانبان : الدربان للبواب ، والديديان
للحارس . وفي الأصل "الديوانيان" بالياء .

(٣) المتضمنين : تضمن المال عن فلان : التزم دفعه عنه ، فالمتضمن :
الضامن .

(٤) دفع الديواني للضامن الوثيقة التي تثبت الضمان ، لأن الضامن كان
قد عجل إلى الديواني برّا وأسدّى إليه معروفا .

بقطع يده بين يديه . فقال له : استبقني (أصلح الله الأمير^(١)) .
فقال : وما يكون من مثلك ؟ فقال له : إن لم يُقدَّر في الزمان رفعتي إلى
منزلة كذا فلا تأمنه على حطك إلى منزلي ، فيكون مني ما تحمده . فقال
خالد : أطلقوه ففيه عظيم^(٢) !

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى ورد العراق يوسف^(٣) بنُ عمر متولياً
لعمله ، فحبسه في حُجْرَةٍ من ديوانه ، ووَكَّلَ بباب الحجرة جماعةً ،
فندسّس الديوانبان حتى دخل في جملتهم ، وتلطف للجماعة حتى
رأسها^(٤) بالخبرة وحسن المداخلة . وتحرم^(٥) خالدُ طعامَ يوسف

(١) تتضمن العبارة ما يعود على الأمير من الخير إذا استبقاه ولم يعاقبه ،
بدليل سؤال خالد التالي .

(٢) ففيه : أي في مسكه خلق عظيم أو روح عظيم .

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود
الثقفى . ولى اليمن لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، ثم تولى العراق سنة ١٢٠ بعد
خالد بن عبد الله القسرى ، ومات في السجن سنة ١٢٦

(٤) رأسها . عظم شأنه فيها .

(٥) تحرم من الشيء بحرمة : تمتنع ، وقد ضغن الفعل معنى تجنب .

ابن عمر ، خوفاً من أن يكون مسموماً فطوى^(١) ، وتأمل^(٢) في ذلك الديوانبان ، بفعل في منديل نظيف ما يكف جوعته من طعام قد تأتق فيه ، ودخل إليه كالمجسس عن حاله ، فقال له : أنا الديوانبان الذى عفوت عنه ، وهذا طعام تأمن فيه ما تخافه في غرة . فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمة والفواكه ما ينسى به وحشته ، ويكف فاقته ، ثم دخل إليه فقال : ليس هذا الذى أفعله مقدار ما يقتضيه إحسانك إلى ، وقد استأجرت الدار التى فى هذه الحجرة^(٣) ، وأحضرت قوماً أثق بهم من حذاق النقاين حتى نقبت سرباً^(٤) إلى موضعك ، ولم يبق إلا أن تركض^(٥) بعض بلاط هذا المحاس ركضة فتفضى إلى السرب . وقد أعددت فى الدار نجيين ، أحدهما لك والآخر لى . فلما صلى الديوانبان العصر أغلق الباب ومضى إلى الموضع المكترى . وركض خالد الموضع وخرج من

(١) طوى (كرضى) وأطوى فهو طاو وطيوطيان ، فان تعمد ذلك فطوى (كرمى) وهى طياً وطاوية .

(٢) تأمل : فكم ملياً . وفى الأصل : تأمل من .

(٣) الحجرة : الناحية .

(٤) السرب : الحفير تحت الأرض .

(٥) الركض : الدفع بالرجل .

السَّرب ، وربِّ كَانِجِيَّيْهِمَا ، وحثًّا المَسِيرَ ، فما فُطِنَ بِخَالِدٍ إِلَّا فِي غَدِ ذَلِكَ
اليوم ، فطلَبته الخيلُ والنُّجُبُ ففَاتَهَا . ولم يزلْ يُوضَعُ ^(١) فِي الْبِلَادِ
حَتَّى لَحِقَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(٢) ، فَشَفَعَ لَهُ إِلَى هِشَامٍ ^(٣) وَرَدَّه إِلَى عَمَلِهِ .

*
* *

وَحَدَّثَنِي هَارُونُ بْنُ مَلُولٍ ^(٤) قَالَ :

كُنْتُ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ خَالِدٍ الصَّرِينِيِّ (وَهُوَ يَتَوَلَّى الْخَرَاجَ بِمِصْرَ)
وَوَجَّهَهَا عِنْدَهُ . وَقَدْ أَكْبَّ عَلَى حَاصِلِ مَا أَسْتُخْرِجُ فِي أَمْسِهِ ، وَهُوَ

^(١) أَوْضَعُ : أَسْرَعَ فِي السَّيْرِ .

^(٢) هُوَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، يَكْنَى أَبَا شَاكِرٍ ، حَارِبٌ
يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ ، وَوَلَّى الْعِرَاقَ بَعْدَ قَتْلِ يَزِيدَ سَنَةَ ١٠٢ هـ ، ثُمَّ عَزَلَهُ أَخُوهُ عَنْهَا بِإِغْرَاءِ
حَاسِدِيهِ . وَقَدْ تَمَّتْ عَلَى يَدَيْهِ فَتُوحٌ كَثِيرَةٌ . وَمَاتَ فِي عَهْدِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ .

^(٣) هُوَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ . بَوَّعَ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٠٥ هـ . وَكَانَ هِشَامُ شَدِيدًا قَاسِيًا وَسِيَاسِيًا مَاهِرًا ، يَجْمَعُ الْأَمْوَالَ
وَيَسْتَجِيدُ الْخَيْلَ ، وَأَقَامَ الْحَلْبَةَ فَاجْتَمَعَ لَهُ فِيهَا مِنْ خَيْلِهِ وَخَيْلِ غَيْرِهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ
فَرَسٍ . وَكَانَ أَحَدُ سَوَاسِ بَنِي أُمَيَّةِ الثَّلَاثَةِ وَهُمْ : مُعَاوِيَةُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَهِشَامُ .
تَوَفَّى بِالرِّصَافَةِ سَنَةَ ١٢٥ هـ . وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً .

^(٤) كَانَ مِنْ بَكَارِ التِّجَارِ وَأَصْحَابِ الْأَمْوَالِ فِي عَهْدِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ . رَوَى
عَنْهُ الْمُؤَلَّفُ فِي هَذَا الْكِتَابِ عِدَّةُ أَخْبَارٍ .

يُقابِل به ثَبَّتَ^(١) المصادرة^(٢) . فقال لصاحب حمالته^(٣) : ما أرى
اسمَ فلانٍ المتضمَّن في هذا الحاصل^(٤) ، وقد صادَرنا^(٥) بالأمس على
خمسمائة دينار ! فقال : ما صحَّ له شيء^(٦) . فقال : أبعث إليه من
يسجبه صاغراً حتى يحمّله على خُطّة المطالبة^(٧) . فقال له رجل من
المتضمَّنين يُعرف بما شاء الله بن مرزوق : الخمسمائة (أي ذلك الله) تصحَّ
لهذا الرجل في هذه العشيّة (إن شاء الله) إن أعني مما قد أمرت به
فيه . فقال^(٨) : هي عليك ؟ فقال : نعم . فتقدّم إلى صاحب الجمالة
ألا يعرض له . فالتفت إلى^(٩) ما شاء الله فقال : تعرف هذا
الرجل ؟ فقلت : نعم ، ومن العَجَب ألا نعرفه . فقال : يا أحمى !

(١) الثبت : في اصطلاح كتاب ذلك العهد : الدفتر .

(٢) المصادرة ، صادره على كذا : طالبه به .

(٣) الجمالة بالفتح : الكفالة ، وصاحب الجمالة هو الذي تكفل بجمع الخراج .

(٤) في هذا الحاصل : أى في القائمة التي يقرؤها ، وقد جمعت أسماء من
دفعوا الخراج ومقدار ما دفع .

(٥) صادَرنا : فارقنا متفقاً معنا .

(٦) ما صحَّ له شيء : لم يتيسر له الحصول على شيء من المال .

(٧) يقول : حتى يحشمه مشقة طريقة المطالبة من العنف والإذلال .

(٨) فقال : أى أحمد بن خالد .

(٩) إلى : إلى هارون بن ملول .

أَمْرٌ^(١) في رجلٍ يجرى مجرانا في معاشنا بما لم أطق واللهِ آحتماله ،
وعندي ضعفٌ ما طُوب به ، وكانت صيانتُهُ أحبَّ إليَّ مما حويتهُ .
فإذا لقيتهُ فعرفه أُنِّي أُورِدُ المالَ عنه لئلا يُورِدَ المالَ مُضعِفًا .
وانصرفتُ^(٢) من مجلسِ أحمدَ بنِ خالدٍ ؛ فليقتُ الرجلَ في طريقٍ ،
وهو محدود^(٣) ، فسألته عن خبره وأخبرته الخبرَ . فقال :
يا أنحى ! وما في هذا من الفرج ؟ إنما انتقلتُ من غمٍّ إلى رِقٍّ !! ومتى
أقضى إلى هذا الرجلِ إحسانه إلىَّ ؟ والله لودِدْتُ أنَّ أَمْرَ السلطانِ
نَفَذَ فيَّ ، ولم أتمجِّلْ هذه العارفةَ منه .

قال أحمدُ بنُ يوسف : فقال لي هارون : وحضرتُ [بيتَ]
ما شاء الله بنِ مرزوق بعد هذا بأربع سنين في الوقت الذي تُوفِّيَ
فيه ، فاتفق أن كان إلى جانبي رجلٌ قد ألقى بعضَ رِدائه على وجهه
وهو يعجُّ^(٤) بالبكاء والشهيق . ثم كشف وجهه فكان الرجلُ الذي
أورد ما شاء الله عنه الخمسمائةَ دينار . فقال : من الوصيُّ من

(١) أمر : أي أحمد بن خالد ، ويصح أن تقرأ بالبناء للفعول .

(٢) وانصرفت : المتحدث هارون بن ملول .

(٣) المحدود : من سدَّ عنه الرزق ومنع الخير . وفي الأصل محدود .

(٤) يعج : عَجَّ من بابي ضرب وفتح : رفع صوته .

جماعتكم؟ فقال له الوصىُّ : هأنذا . فقال : عندى لهذا الرجل
(رحمه الله) ألفا دينارٍ وخمسمائة دينار . فقلت له : حدثت بينكما
معاملةً بعدى ^(١) ؟ فقال : لا والله ! ولكنها الخمسمائة الدينار
صرتُ بها إليه عند تيسرها ، فقال : وما [أعمل بها] ؟ تكونُ
عندك إلى أوانٍ حاجتى إليها . فسألتُه فى شغلها ^(٢) . فقال :
هو مالك أعمل به ما شئت . فلم تزل تنمى وتريد حتى بلغت هذا
المقدار . فقال هارون : ووجدتُ ما خلقه ما شاء الله لبناتٍ كنَّ
معه شيئاً نزرأ ، فخيرهنَّ الله بذلك المال .

*
* *

وحدثني أحمد بن دُعَيْم ^(٣) (وكان من خاصّة قواد أحمد
ابن طولون) بعد أن ترك الديوانَ وحسنَ انقطاعه إلى الله ، قال :
قلدنى أحمد بن طولون الصعيد الأوسط ^(٤) ، وخرج عليه

(١) بعدى : بعد الحادثة التى أعرفها وهى أنه أدى عنك خمسمائة دينار .

(٢) فى شغلها : فى الاتجار بها .

(٣) قائد من قواد أحمد بن طولون — كان أحد من روى عنهم ابن الداية
سيرة ابن طولون . وقد ترك الديوان بعد موت ابن طولون وتزهد .

(٤) الصعيد الأوسط — يطلق على الجزء من الصعيد الذى يقع بين أنعم والبهنسا
(عن معجم البلدان) .

سَوَّارٌ^(١) أبو عبد الرحمن العمرى ، فكتب إلى يستخبرنى عن حاله ، فأعلمته ضَعْفَ يده وانتشار أمره بقلّة المال . وقبضتُ على رئيس من الأعراب اتَّهمته بمكاتبته ، وأنهيته خبره إليه . فكتب إلى أحمد بن طولون يأمرنى يحمل الأعرابي (وقيادة) ما قدّرت عليه من النُّجْب ، والشَّخْوص إليه ليقف من مشافهتى على ما لا تبلغه المكاتبَةُ ، فامتثلت أمره فإسرتُ مَرَحَلَةً^(٢) حتى لحق بى وجوه

(١) ورد اسمه فى سيرة أحمد بن طولون للبلى مرة : عبد الحميد بن عبد الله ابن عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ويكنى أبا عبد الرحمن ، ومرة عبد الرحمن العمرى ، وجاء اسمه فى اليعقوبى هكذا : عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفى خطط المقرئى هكذا : أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، وذكر فى مكان آخر من هذا الكتاب خاليا من اسم (سوار) . وكان سبب خروجه أن البجة كانوا قد هجموا على المسلمين فى مصلاتهم يوم عيد لهم فقتلوا ونهبوا ثم رجعوا ، فكان لهذا العمرى معهم معارك ثار للمسلمين منهم فيها ودخل بلاد البجة ولما علم ابن طولون بأمره خاف ازدياد شوكته فبعث إليه أحد قواده لإخضاعه . وحاول العمرى إفهام القائد أنه غير خارج فلم يسمع منه ، ووقعت بينهم معركة انتصر فيها العمرى . ثم أهمل ابن طولون أمر العمرى مدة . حتى حضر إليه أعرابيان يحملان رأس العمرى وكانا من جنود العمرى . فلم يرض ابن طولون بفعلتهما وقتلها . هذا ، وأول بلاد البجة من قرية تعرف بالحربة بينها وبين قوص ثلاث مراحل . وآخرها أول بلاد الحبشة .

(٢) فى الأصل : رحلة ويصعب توجيهها ، وفى سيرة ابن طولون للبلى فإسرتُ إلا مرحلة .

تُجَارِ الْعَمَلُ^(١) ، ومعه شَابُّ أَعْرَابِيٍّ . وقالوا لى : جئتكَ فى أمر
 هذا الأعرابى المحمول ، فَإِنَّ مَعْنَا مِنْ يَبْذُلُ فى إطلاقه خمسمائة
 دينارٍ . فقلتُ لهم : قد أنهيت أمره إلى الأمير . فقال الأعرابى
 الذى معهم : نخذ الخمسمائة على أن تجعلنى مكانه . قلت : أفعلُ .
 فأحضرتُ الأعرابى ، وكان من عشيرتى ، فقلت له : والله لقد
 كنتُ مغموما بك حتى سَرَّنى خلاصُك . قال : بماذا تخلصتُ ؟
 فقلتُ : بذل لى رجلٌ خمسمائة دينار على أن يكون بمكانك
 وأطلقك . فقال : ومن هذا الرجل ؟ فأحضرتُه إِيَّاه ، فلما رآه
 قال امضِ لشأنك . ثم التفتَ إلى فقال : يحسن بشيخ مثلى
 أن يترجى فى المعروف^(٢) ؟ هذا رجلٌ لقيته وقد أكبت عليه خيلٌ
 لتسلبه ثيابه وما كان معه ، ففرقتها عنه حتى تخلص ، فرام أن
 يُخلصنى بمصوله فى موضع لا يخرج منه أخرى^(٣) الليالى ، وغريم^(٤)

(١) العمل هنا : جزء من المملكة أو الولاية يحكمه حاكم من قبل الخليفة أو
 الأمير ، يسمى عاملا .

(٢) يترجى الخ : يطلب الرجب من وراء ما يبذل من معروف .

(٣) أخرى الليالى : أبدا الدهر .

(٤) وغريم : معطوف على بمصوله .

ثَقِيلٌ عَلَى مِثْلِهِ، وَهَذَا ^(١) مِمَّا لَا أُقْبَلُهُ وَلَا أُرَكِّنُ إِلَيْهِ . فَقُلْتُ لَهُ :
 أَنْصَرِفْ فِي حِفْظِ اللَّهِ فَقَدْ رَضِيَ الرَّجُلُ . فَقَالَ : وَاللَّهِ لَأَنْزِلَ
 أَمْضَيْتَ هَذَا لِأَلْحَقَّكَ وَلَأُخْبِرَنَّ الْأَمِيرَ بِصَنِيعِكَ ! فَتَوَقَّفْتُ ،
 وَبَكَى الْأَعْرَابِيُّ ^(٢) فَقَالَ : إِذَا كَانَ مُحِيسُ الْأَمِيرِ عَلَى مَا تَصِفُ وَلَيْسَ
 تَرْجُو خَلَاصًا مِنْهُ ، فَمَا أَعْمَلُ فِي عَارِفَتِكَ عِنْدِي ؟ وَأَنَا أُنْشِدُكَ اللَّهَ
 لِمَا ^(٣) قِيلَتْ مِنِّي مَا بَذَلْتَهُ وَأَعْظَمَ مِنْهُ ، وَأَزَلْتَ هَذِهِ الْعَارِفَةَ عَنْ
 عُنُقِي ! فَإِنَّ عَارًا وَنَقِیصَةً عَلَى الْكَرِيمِ أَنْ يَمُوتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مِنْ دِيُونِ
 الْمَعْرُوفِ . فَقَالَ لَهُ : إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَحَاطَتْ بِهِ خِيْلٌ تُرِیغُ ^(٤) سَلْبَهُ
 فَذَدَّتْهَا عَنْهُ فَقَدْ كَفَاتَ عَارِفَتِي ، أَنْصَرِفْ مُصَاحِبًا ^(٥) .

فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ الْمَالِ . فَقَالَ : مَا بِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَأَكْبَ
 عَلَى رَأْسِهِ وَرَجُلِيهِ يَقْبَلُهَا وَيَبْكِي . فَأَبْكِي جَمَاعَتَنَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : وَلَيْسَ هَذَا ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) الْأَعْرَابِيُّ : الَّذِي حَاولَ أَنْ يَفْتَدِيَ الْأَعْرَابِيَّ الْآخَرَ بِنَفْسِهِ .

(٣) لِمَا : إِلَّا . قَالَ تَعَالَى إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لِمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

(٤) تُرِیغُ : تَرِيدُ وَتَطْلُبُ .

(٥) أَنْصَرِفْ مُصَاحِبًا : تَعْبِيرٌ شَائِعٌ فِي هَذَا الْعَهْدِ وَمَا قَبْلَهُ يَرَادُ بِهِ مُصَاحِبًا بِالْخَيْرِ
 وَالْبَرَكَةِ ، أَوْ بِمَعُونَةِ اللَّهِ أَوْ بِنَحْوِ ذَلِكَ .

فلما دخلت على أحمد بن طولون ، شافهته من خبر العمرى بما
سرّه . وعرضت عليه النُجْب ، فقال : حسنةً والله ! فقلت معي أيّها
الأمير ما هو أحسن من هذا ، وحدثته الحديث ، فأحضر الأعرابيّ
وخلع عليه ، وأثبتته في ديوانه ^(١) ، وأمرني بإنفذ رسولي معه
في [حمل] ^(٢) الأعرابي الآخر . فلما وافى خلع عليه وأثبتته ، فلم
يزالا في خاصّته إلى وفاته .

*
* *

وحدثني موسى بن مصلح المعروف بأبي مصلح ^(٣) (وكان هذا
من الثقات عند أحمد بن طولون) :

^(١) وأثبتته في ديوانه : أى أثبت اسمه في دفتر خاص بمن يجرى عليهم رزق
الأمير ، أو الذين يمنحون عطاء في المواسم والأعياد ونحوها .

^(٢) الزيادة التي بين القوسين من البلوى .

^(٣) سَمَاءُ البلوى في سيرة أحمد بن طولون : موسى بن صالح ، ثم زوى هذه
القصة مع كثير من التغير والتصرف .

أنَّ أحمدَ كان يُراعى أمرَ المحبوس حتَّى يَمِضِيَ لَهُ حَوْلٌ ، فإذا جازهُ لم يذكُرهُ . وكان يقول لى سِرّاً : إذا تَيَّنَت من رجل براءة ساحةٍ فَسهِّل عليه واستأمرنى ، فإنى أَسْتَعْمَلُ التَّشَدُّدَ للضرورة إليه . قال موسى بنُ مصلح : وكان فى الحبس رجلٌ قد زاد على سنتين ، منقطعاً إلى الله برغبته ، لا يسألنا شيئاً من أمره ، وهو يُكَبُّ على الصلاة والتسبيح والتضرُّع إلى الله .

فقلت له يوماً : الناس يضطربون فى أمورهم ، ويسألوننى إطلاق الرُّقعةِ إلى ذوى عناياتهم ^(١) ، وأنت خارجٌ عن جُمْلَتِهِمْ ^(٢) ! فخرَّانى ^(٣) خيراً . ورقَّ قلبى عليه ، وكُبر فى نفسى محلُّه ، نفلوت به وقلت له : لو استجزتُ إطلاقَكَ بغير إذنٍ لفعلتُ ، ولكن استعن بى فى أمرِكَ . فقال : والله ما أعرفُ فى هذا البلدِ غيرَ أبى طالب الخليج (وكان

(١) عناياتهم : يريد العناية بهم . وفى سيرة أحمد بن طولون للبلوى . ويسألون الخلاص مما يقاسونه بكتب رقعة بشفاعة من يعنى بأمرهم .

(٢) خارج عن جملتهم : لا تشبههم ولا تفعل فعلهم .

(٣) لم نجد هذا الفعل فى المصاحف ، وإنما قسناه على فداءه : قال له : جعلت فداك .

هذا الرجل يتولى شُرطَتِي ^(١) أحمد بن طولون بمصر) . ولو وصلت
إليه سرّاً أو برسالة ممن يفهم لرجوت تسهيل أمرى . فقلت له :
والله لا تَتَيْتَ في أمرك ما أخطر به نفسى ^(٢) . أنا أطلقك سرّاً
على أن توثقني بأيمانٍ مُحَرَجَةٍ ^(٣) أنك لا تهرب عني ، ولا تُخْفِرُنِي ^(٤) .

(١) كان لأحمد بن طولون شرطتان هما : الشرطة السفلائية ، ويظهر أنها
كانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس . والشرطة
الفوقانية ، ويظهر أنها كانت خاصة بأحوال الطبقة العليا من القواد والجنود والامراء
وعظماء رجال المملكة وفي سيرة ابن طولون للبلوى : وحدث نعيم الخادم قال : قلده
مولاي الشرطة السفلائية قائداً من قواده ، وقال له : ارفق بالرعية وانشر العدل
عليهم واقض حوائجهم وأظهر إكرامهم وصيانتهم وتفقد مصالحهم فإني أسير بالليل
في محالهم ، وكل موضع أمر به لا يخلو من قارئ أو متجد أدواع أو ذاكر الله
عن وجل ، فوفر علينا دعاءهم لنا واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا .

ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية : تشدد عليهم وأرهبهم منك ولا تكن هم
واغظ عليهم فإني أسير في محالهم فما أمرت بموضع فأسمع فيه إلا غناء أو سكران معربدا
قد أخرجته عربده إلى الوثوب والكفر .

وكان لا يقلد شرطة أسفل إلا الثقات من وجوه قواده — وأما تشدده على قواده
وعلمانه فمشهور .

(٢) في الأصل : ما أخطر به على نفسى . وأخطر نفسه جعلها خطراً ،
والخطر ما يتراهن عليه وقد يخسره صاحبه . وعبارة البلوى : والله لأخاطرن
فيك بنفسى .

(٣) محرجة : موقعة في الحرج وهو الإثم ، أى عند الخنث فيها . أو محرجة
بتشديد الراء المكسورة أى مضيق على الحالف السبل للتخلص من يمينه .

(٤) أخفرت الرجل : نقضت عهده وذمامه ، وخفرتة أبحرته وحفظته .

فقال: إذا كنتُ عندك بمنزلةٍ مَنْ يُشْكُ فيه، فلا حاجةَ لي بإخراجك
إيَّاي . فوافقته من غير يمين ارتهنته بها على أن يُقيم ثلاثة أيام ،
فأطلقته ليلة الجمعة، وفارقه على أن يصيرَ إلى ليلة الاثنين . فلما كان
سَحَرُ يوم السبت وافاني كما ^(١) فتحتُ بابَ السجن . فلما دخل سجد
وحمد الله . وقال لي : بعثتُ إلى أبي طالب الخليج امرأةً من أهلنا،
وطويتُ عنه إطلاقي ، وسألته أن يُلطفَ في أمري ، فوعد بذلك ،
وخلفَ المرأةَ حتى ترجعَ إلى بالجواب ، وركبَ إلى الأمير عشيَّةَ
الجمعة ، فأقام إلى قريبٍ من العتمة ، ثم انصرفتُ إلى المرأةَ فقالت :
وافي أبو طالب الأمير ، وهو مغموم ^(٢) ، فقال لي : كلمته ، فقال :
والله لقد أذكرتني رجلاً يحتاج إلى عقوبة ! ثم تقدّم إلى رجل
يصيرُ بك إليه عند جلوسه في يوم السبت ، ووجهه إلى ^(٣) أن أُرَجعَ

(١) يستعمل المؤلف في هذا الكتاب "كما" بمعنى حيناً، وفي سيرة ابن طولون
للبلوي : لما فتحت باب السجن .

(٢) وافى أبو طالب الخ : المراد قابل أبو طالب الأمير وعاد إلى وهو مغموم ،
والأولى حذف كلمة "الأمير" ، وعبرة البلوي : وافى أبو طالب وهو مغموم .
فقال لي . وهي واضحة .

(٣) ووجه : أي أبو طالب الخليج .

إلى الله عز وجل في أمرك ، فليتني لم أتكلّم فيك ! فسحرت^(١) مع ما تيقنته في أمري ، خوفاً أن يأتيك رسوله فلا يجدني فيأحقك مكروه منه ، ورأيت كلّ ما يوعدني به أسهل على من أن أخفر ظنك بي ، وتقديرك في . فما ترجّل النهار^(٢) حتى وافى الرجل ، فتسلّمه مني . وحضرت الدار^(٣) ، وقد أحضره أحمد بن طولون ، ومجلسه بين الخاصّ والعامّ ، فلما رآه بكّته بالإجلاب^(٤) عليه في الثغر^(٥) . فاعتذر بعذر قبّله ولقيّه بالرأفة بضدّ ما خفّته عليه ، وأطلقه . فكان من أثر إخواني عندي إلى أن فرقت الأيام بيني وبينه .

*
* *

(١) سحرت : بكّرت في وقت السحر .

(٢) نرجل النهار : ارتفع .

(٣) الدار : دار الملك حيث يجلس أحمد بن طولون .

(٤) أجلس عليه : جمع الجموع لقتاله وكاد له وتوعده .

(٥) الثغر : ثغر المملكة : المكان الذي منه يخاف هجوم أعدائها .

وحدثني عمي إسحاق بن إبراهيم^(١) . قال :

انتظرت أبا عبد الله الراسطي^(٢) . كاتب أحمد بن طولون في داره حتى رجع من عند أحمد بن طولون ، فأوصل إليه بعض الجُّباب ثبتَ مَنْ وقف بالباب^(٣) ، فرأى فيه إسماعيل بن أسباط ، فسأل عنه . فقيل له : وقف بالباب طويلا وانصرف . فقال : إنَّ هذا الرجلَ ممَّن عمَدَ^(٤) هذه المنزلة^(٥) مدةً طويلةً ، ولستُ أشكُّ أنَّ مجيئه

(١) كان من رجال ابن طولون وكبار خاصته . روى عنه البلوي طرفا من أحوال ابن طولون .

(٢) هو أحمد بن محمد الواسطي أبو عبد الله كاتب أحمد بن طولون ، أحد من روى عنهم ابن الداية تاريخ ابن طولون . ولما تنكر الأتراك للاستعين وخاعوه ونفوه إلى واسط ، وقع اختيارهم على ابن طولون ليصحبه في منفاه ، فعهد بذلك ابن طولون إلى الواسطي .

ولما حضر ابن طولون إلى مصر نائبا عن با كك حصر معه الواسطي وكان متصلا به جدا . ولما وشى ماجور بابن طولون عند الخليفة وكتب الخليفة إليه بطلبه ، أرسل ابن طولون في هذه المهمة الواسطي بهدايا كثيرة فبلغ ما أراد مولاه وثبت أمره . ولم يكن في كتاب أحمد بن طولون أحد أعرف بخدمته ولا أصبر عليها من الواسطي .

(٣) ثبت من الخ : قائمة بأسماء من يطلبون مقابلته .

(٤) عمد : ساد ورأس ، ومنه عميد القوم سيدهم : ورئيسهم ، ولم نجد هذا الفعل في المعجمات بهذا المعنى ، ولكن استعماله صحيح كما رأيت .

(٥) هذه المنزلة : أي المنزلة التي يشغلها الواسطي . وهي شدة اتصاله بابن طولون وما يتبع ذلك من النفوذ والسيطرة .

لحاجة له ، ومن الجميل أن أركب إليه فأقتضيه حوائجه ، وأبلغ فيها محبته . ثم ركب وسرتُ معه حتى دخلنا دارَ إسماعيل بن أسباط (وهي التي ملكها الشير بعده) فرأينا داراً عارية من الستور والفرش ، وتأملنا من فيها من الحشم على حال سيئة ، فاستقبله إسماعيل بالشكر والدعاء له . فقال له الواسطي : إنه لا فرق بينك الساعة عندى في المرتبة التي كنتَ فيها ^(١) . ومن جملنا فيما أفضى إلينا أن نُحسن خلافة من تقدّمنا ، وأن نراهم كالأباء المستحقين البرّ من أولادهم . وسأله عن حاجته . فقال : أخبرك بها بعد أن أحدثك بشيء يدلّ على أن المعروف ينفعُ عند مُستحقّه وغير المستوجبين له .

كانت لي (أيّدك الله) دارُ خيل نحو المنظر ^(٢) ، وكنتُ أركب إليها في غداة الليلة التي أعاقرف فيها إخواني ^(٣) ، فركبتُ إليها يوماً فألفيتُ

(١) إنه لا فرق الخ : الأسلوب السائع الواضح أن يقال : إنه لا فرق بينك عندى في الحال التي أنت بها ، والمرتبة التي كنتَ فيها . أى إنّ فقره لا يقلل مما كان يكتنه له الواسطي من الإجلال في أيام عظّمته .

(٢) المنظر : بناء نفخ أقامه ابن طولون أمام ميدان سباق الخيل ليشاهد منه السباق ، قال القضاعى : وكان عرض الخيل بمصر من عجائب الإسلام .

(٣) أعاقرف فيها إخواني : ألازمهم ، والمراد ملازمتهم في مجلس الشراب .

في الصحراء جمعاً من العامة ، وقد ضاقت بهم ، ومعهم عاملُ
المعونة^(١) . واستقبلتني امرأةٌ قد هتكت سِتْرَهَا ، وكشفت شعرَهَا .
فقلت : يا سيدي ! أني وواحدى وكافلى يُعْرَضُ على القتل الساعة .
فعدلتُ إلى صاحب المعونة ، وسألته عن حال الناس^(٢) . فقال :
اجتمعنا لضرب خَنَاقٍ بالسوط . فقلت له بحضرة الناس : ما حقُّ
هذا إلّا الإحراق بالنار ! وأنا أكتبُ فيه إلى السلطان^(٣) . فأعلن
الجميعُ بالدعاء لى^(٤) ، وانصرفوا . فسألته البعثة بالخَنَاقِ إلى ، فوعدنى
بذلك في المساء .

فلما صليتُ العشاء الآخرة^(٥) أنفذ إلى منه شاباً مُكْفَهَرًا
الوجه ، لا تخفى قسوته . فقلت له : أما تستحي من الله

(١) المعونة هنا : حفظ الأمن .

(٢) حال الناس : سبب اجتماع الناس .

(٣) أراد بذلك إسماعيل بن أسباط أن يرضى العاقبة بإيهاهم أنه سيشدد عليه
العقوبة ، وأن يؤجل ضربه بالسياط لينظر في أمر خلاصه إرضاء للمرأة التي
استنجدت به .

(٤) يقال : أعلن الأمر وأعلن به .

(٥) في الأصل : عشاء الآخرة . ويقال لصلاحي المغرب والعشاء : العشاءان
فاذا قيل : العشاء الآخرة تعينت صلاة العشاء .

وتخافه في طُعْمَتِكَ^(١)؟ فقال : ياسيِّدى ! أنا أَشْهَدُ اللهَ أَنِّي لَا أَعُودُ
هذا الفعلَ أبداً . فأوصيتهُ بخير ، وأضفتُ إليه من أخرجهُ عن البلد
في حال سَرَرٍ ، وأقننا بعد ذلك سنين . وتقاصرتُ أمورُنَا وتغيَّرت
أحوالُنَا بتقليدِ إِسْحَاقَ بنِ تَمِيمٍ علينا .

فلما بَلَغْنَا^(٢) بما نُطالِبُ به أَشْخَصْنِي وَأُنْحِ أَحْمَدَ إِلَى الْحَضْرَةِ^(٣)
فَطالَبْنَا الْوَزِيرَ بِمَا لَقَّاهُ ابْنُ تَمِيمٍ عَلَيْنَا ، فشكونا إِلَيْهِ شِدَّةَ اخْتِلَالِنَا .
فقال : فلانُ ! فوافاه رجلٌ بِمَنْزِلَةِ أُثَيْرَةٍ^(٤) عنده ، غليظُ الطبع ،
كرههُ الوجه ، تتأملُ الشرَّ في سجاياه . فقال : استخرج من هذين
مائة ألفِ دينار اليومَ . فانتزعنا من بين يديه بفضاطة ، أيقننا بالهَلَكَةِ ،
ثم صار بنا إلى جُحْرَةٍ له في دار الوزير . فسألنا عن بلدنا ونسبتنا ،
فلما سمع ”أسباط“ سَكَنَ فَوْرَهُ^(٥) ورقَّ قلبه . وقال : مَنْ

(١) الطعمة : الرزق .

(٢) بلع الرجل : كنع . بلوحا : أعياء وكل .

(٣) الحضرة : دار الخلافة بالعراق .

(٤) أُثَيْرَة : مقربة مختارة .

(٥) فوره : ثورانه ، غضبه .

تكونون من إسماعيل ؟ فقلتُ : أنا إسماعيلُ ! فبكى وأنكبَّ على رأسى ورجلى . وقال لى : ياسيدى ! أتعرفنى ؟ قلت لا . قال : أنا الخنّاق الذى أطلقتنى بمصر . ووالله ما خنّقت أحداً بحمد الله بعد إطلاقى ، ولكن شراسة طبعى عدلت بى عن الزهادة إلى مادون الخنّاق ، وهو استخراجى للوزير الأموال بالتعذيب ، وقد وجد عندى فيه ^(١) ما لم يجده عند غيرى . ثم طعن فى تلك الحجرة ^(٢) فأخرج إلى صندوقا يحمله غلامان ^(٣) . فقال : فى هذا من المال والحلى ما نكتفى به ، فقوموا بنا حتى نهربَ لئلا يقعَ بكم بأس . فأعلمته أنا نخافُ فى الحرب تتبّع الولد والأهل . فرجع إلى الوزير يبكى بين يديه ، ويحدثه محلّنا كان ^(٤) ، وما أولّيناه . فعجب الوزيرُ من رِقته علينا لما وقف عليه من فظاظته . وكان — شهد الله — أقوى الأسباب فى دفع المطالبة عنا .

(١) فيه : فى استخراج الأموال بالتعذيب .

(٢) فى تلك الحجرة : فى أحد مخابى تلك الحجرة .

(٣) يريد صندوقا ثقيلا لا يقوم غلام واحد بحمله .

(٤) محلّنا كان : تعبير شائع فى هذا العهد ، أى ويحدثه خبر ما كان لنا من عظيم المحلّ ورفيع المنزلة .

ثم سأل أبا عبد الله الواسطيّ بعد هذا الحديث حوائج وقع بها
في مجالسه ، ووكل بها متنجزاً من خاصّته ^(١) ، ولم تزل أظافه تعتاده
إلى أن توفّي .

*
* *

وحدّثني يوسفُ بنُ إبراهيمَ والدي ^(٢) . قال : حدّثني
إبراهيمُ بنُ المهديّ ^(٣) عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله
ابن العباس ^(٤) هن أبيه :

^(١) أي ووكل بهذه الحوائج بعض خاصّته لإنجازها وقضاءها .
^(٢) هو يوسف بن إبراهيم أبو الحسن ، وكان من جِلّة الكتّاب بمصر وكان له
مرّوة تامّة ، وكان في خدمة إبراهيم بن المهديّ ثم رحل إلى دمشق سنة ٥٢٥ هـ ،
ونزل فيها على عيسى بن حكم الدمشقيّ الطيّب النسطوريّ ، وروى عنه وعن غيره
مثل إسماعيل بن سهل بن نوبخت وجبرائيل بن بختيشوع . وقد غضب عليه
ابن طولون وسجنه ثم أفرج عنه . (معجم الأدباء) .
^(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهديّ بن المنصور ، أخو هارون الرشيد .
برع في الغناء والموسيقا وكان أسود اللون ، لأن أمّه كانت جارية سوداء واسمها
شكلة (بفتح الشين المعجمة وكسر ها) . بويع له بالخلافة ببغداد بعد المائتين ،
وأقام خليفة نحو سنتين ثم خلع . وكانت ولادته سنة اثنتين وستين ومائة . وتوفّي
سنة أربع وعشرين ومائتين (ابن خلّكان) .

^(٤) إسحاق بن عيسى بن عليّ : من ولادة المدينة أيام هارون الرشيد . ولمّا خرج
الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان ودعا إلى المأمون . كان إسحاق من المحرّضين
على المأمون (النجوم الزاهرة) .

أنه كان مع أبي عبد الله محمد بن علي^(١) أبي الخلفاء برصافة هشام^(٢)، بعد وفاة أبي محمد علي بن عبد الله، وأنه أقام ثلاثة أشهر برصافة هشام لا يأذن له هشام عليه، إلى أن بلغ أبا عبد الله إجماع مسلمة القدوم على هشام، فتلقاه على أميال من الرصافة، وشكا إليه جفوة هشام وتأخير الإذن عليه. فقال له مسلمة: أرجو أن يزول هذا بقدومي، وأمره أن يقيم بباب هشام إذا دخل عليه مسلمة، ولا يريم^(٣) ما أقام مسلمة عنده، فأقام أبو عبد الله إلى وقت زوال الشمس.

قال عيسى بن علي: نخرج مسلمة إليه. فقال له: قوض رحلك^(٤) أبا عبد الله! فما لك عند الرجل من خير، لأني خاطبته في أمرك

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. كان من أجهل الناس وأعظمهم قدرا. وكان بينه وبين أبيه أربع عشرة سنة، ومات سنة ١٢٢ هـ وقيل سنة ١٢٥ بالشرعة من أرض الشام، وهو ابن ستين سنة. والخلفاء العباسيون من ولده (المعارف لابن قتيبة).

(٢) رصافة هشام: في غربي الرقة، بينهما أربعة فراسخ، على طرف البرية. بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام. وكان ينزلها في الصيف. وقيل إنها كانت قبل الإسلام بزمان ليس بالقصير، وإن هشاما إنما عمرها وبني بها أبنية لسكناه. (معجم البلدان).

(٣) لا يريم: لا يبرح.

(٤) قوض رحلك: الرحل المسكن. يريد ارحل فلا فائدة ترجى من هشام.

بعد ما تقضى سلامي عليه : محمد^(١) بن علي بن عبد الله على شابكة^(٢)
 رحمه رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يُقيم ثلاثة أشهر
 ببابك فلا يؤذن له عليك ؟. فقال : آله عنه ، أبا سعيد . فأمسكتُ
 حتى حضر الطعام ، فأعلمته أنني لا أستعيز الأكل ، وإنه قائم على
 الباب . فغضب غضباً زاد به حوله . وقال : يُسمى ابنه عبد الله
 وعبد الله ويرجو بهذا أن يلبا الخلافة ثم يطمع في خير مني ؟ والله
 لولا ماسة رحمه رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لقطعتُ
 من وسطه شبراً .

ثم عاتق أبا عبد الله . وقال : رسولى إليك صائر ، فرجع أبو عبد الله
 إلى رحله فقوضه وبقي في حيرة لعجزه عما ينهضه^(٣) ، ووافاه رسولُ
 مسلمة يقول : لم أقدر في سفرى هذا طول اللبث . وأشهد الله أنى
 ما حملتُ معى إلا ألفاً وثلثمائة دينار ، وقد وجهتُ إليك بالآلف
 وخلفتُ الثلثمائة لنفقتى .

(١) محمد بن علي الخ أى قائلا : محمد بن علي بن عبد الله الخ .

(٢) شابكة رحمه : اتصال قرابته .

(٣) ينهضه : يكفى مؤنة سفره ورحيله .

قال إبراهيم بن المهدي : حَدَّثَ بهذا الحديث الرشيد^(١)
 في حَديثِ المَوْصِلِ^(٢) فبَكَى . وقال : وَصَلْتُ أبا سعيدٍ رَحِمَهُ^(٣) !
 والله لا دخلتُ الرِّقَّةَ^(٤) حتى أَقْضَى عارفته عندنا . فلما وافينا حَضْنَ
 مَسَلَّةَ أَحْصَى مَنْ فِيهِ مِنْ وَلَدِهِ الذَّكَورِ وَالْإِنَاثِ فوجدهم أربعين ،
 فأمر لهم بأربعين ألف دينار .

*
* *

(١) الرشيد : أحد عظماء الخلفاء العباسيين ، بويع في ربيع الأول سنة ١٧٠ ،
 ومات بطوس في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . وكان عمره أربعاً وأربعين سنة
 وأربعة أشهر (مروج الذهب) .

(٢) حَديثُ المَوْصِلِ : مدينة على طرف دجلة . وكان مروان بن محمد آخر ملوك
 بني أمية أول من ألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديواناً ونصب عليها جسراً وهياً
 طرقاتها وبني عليها سورا (معجم البلدان) .

(٣) وصلت أبا سعيد الخ : يقول : يجب أن تصل أبا سعيد القربات وتعطف
 عليه كما وصل رحم أبي عبد الله .

(٤) الرقة : مدينة على الفرات من الجانب الشرقى بينها وبين حرّان ثلاثة
 أيام . ويقال لها الرقة البيضاء . وكان بالجانب الغربى مدينة أخرى تعرف برقة
 واسط ، كان بها قصران لهشام بن عبد الملك كانا على طريق رصافة هشام .
 وهناك أيضا الرقة السوداء : وهى قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة . (معجم
 البلدان) .

وحدثني أحمد بن وليد . قال :

ودعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ نُصَيْرٍ الْعَبَادِيَّ^(١) فِي بَعْضِ خُرَجَاتِي إِلَى بَغْدَادَ ،
فَأَخْرَجَ إِلَيَّ ثَلَاثَةَ آلَافٍ دِينَارٍ وَقَالَ : إِذَا دَخَلْتَ بَغْدَادَ^(٢) ، فَادْفَعْ
أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى ثَعْلَبٍ^(٣) وَأَلْفَ دِينَارٍ إِلَى الْمُبَرِّدِ^(٤) وَصِرْ إِلَى قَصْرِ وَضَّاحٍ^(٥)

(١) هو إِسْحَاقُ بْنُ نُصَيْرٍ النَّصْرَانِي . كَانَ مِنْ كُتَّابِ الْخُرَاجِ فِي عَهْدِ وَلَايَةِ
عِيسَى النُّوشَرِيِّ عَلَى مِصْرَ سَنَةِ ٢٩٢ هـ . وَكَانَ رَئِيسَ دِيْوَانِ الْخُرَاجِ حِينَئِذٍ
الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَازَرَانِي . (النجوم الزاهرة) .

(٢) وتسمى مدينة السلام ، وأول من أنشأها ومصرها أبو جعفر المنصور ،
وهي إلى الآن عاصمة العراق .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني البغدادي أبو العباس ثعلب ، إمام
الكوفيين في النحو واللغة — ولد سنة ٢٠٠ وله من التصانيف : المصون في النجوم
ومعاني القرآن ، ومعاني الشعر ، وغيرها .

وثقل مسمعه بآخرة ثم صم . وقد دهمته دواب من خلفه وهو لا يسمع فوقع
على الأرض ، ثم حمل إلى منزله فمات . وكانت وفاته سنة ٢٩١ هجرية .

(٤) هو محمد بن يزيد بن عبد الأبر الأزدی البصري ، أبو العباس المبرد
إمام العربية ببغداد . كان فصيحاً مفوهاً أخبارياً صاحب نوادر وطرافة ، وله من
التصانيف : الكامل ، والاشتقاق ، وإعراب القرآن ، وغيرها ، وكان مولده
سنة ٢١٠ ، ومات سنة ٢٨٥ (بغية الوعاة) .

(٥) قصر بُني لِلْمُهْدِيِّ قَرِبَ رِصَافَةِ بَغْدَادَ . وَقَدْ تَوَلَّى النِّفْقَةَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
الْأَنْبَارِ يُقَالُ لَهُ : وَضَّاحٌ ، فَنُسِبَ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : الْوَضَّاحُ مَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْمَنْصُورِ ،
وَيُقَالُ إِنَّ قَصْرَ وَضَّاحٍ بِالْكُرْخِ ، وَإِنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْوَضَّاحِ بْنِ شَبَا الَّذِي كَلَّفَهُ
الْمَنْصُورُ بِنَاؤَهُ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ :

سقى الله باب الكرخ من منزله إلى قصر وضّاح فبركة زلزل

فانظر إلى أول دُكَّانٍ للوراقين ^(١) فإنك تجد صاحبها (إن كان حياً لم يمُت) قد شاخ ، فاجلس إليه وقل له : إسحاق بن نصير يقرأ عليك السلام ، وهو الغلام الذي كان يقصدك كلَّ عَشِيَّةٍ راجلاً من دار الروميين بُدْرَاعَةٍ ^(٢) وعمامة ونعل رقيقة ، فيستعيرُ منك الكتابَ بعد الكتاب ، فاذا اقتضيتَه كراءَ ما نَسَخَ منه ، قال : اصبرِ على الصنع ^(٣) ، فاذا استقرَّت معرفتي في نفسه دفعتُ إليه هذه الألفَ الدينارِ وقلتُ له : هذه ثمرةُ صبرك على .

قال لي أحمد بن وليد : فلما دخلتُ بغدادَ ودفعتُ الألفَ دينارٍ إلى ثعلبٍ والمبرد ، مضيتُ ^(٤) إلى قصر وضاح فألقيتُ الدُكَّانَ التي وصَفَ لي قَفْرًا ليس فيه ^(٥) كتاب . ورأيتُ فيها الشيخَ الذي وصَفَه لي في حال رثَّة . وثيابِ خَلْقَةٍ ^(٦) ، وقد أفضى به الأمرُ إلى التوريق

(١) للوراقين : لباعة الكتب . أو من يسمحون للناس بنسخها بأجر .

(٢) الدراعة : ثوب إلى نهاية الظهر من صوف .

(٣) الصنع : الفرج وتيسر أسباب الرزق .

(٤) في الأصل : ومضيت .

(٥) فيه : الضمير يعود إلى " قفراً " .

(٦) خلق الثوب : كنصر وكرم وسمع خلقة وخلقاً (محرَّكة) بلى ، وخلق (محرَّكة) : البالى يوصف به المذكر والمؤنث .

للناس ^(١) بفلستُ إليه وسألته عن حاله . فقال : يا أحنى ! ما ظنُّك
بِحال ما تتأملُه في أحسن ما فيها ؟

ثم خرجنا من ^(٢) المسألة إلى أشياء كان فيها خبرُ إسحاق بن نصير .
فقال : قد كان يجيئني من دار الروميين غلامٌ (ووصفه) فأسمحُ له
بالنسخة بعدَ النسخة ، يقال له : إسحاق ، وكان يعِدُّني في كلِّ شيء
يأخذه إلى الصُّنع ، وأخبرتُ أنه وقع بنواحي مصر ، وما حصل لي منه
شيءٌ ! فأخرجتُ الألفَ الدينار وقلتُ له ، يقول لك : " هذه ثمرةُ صبرك " .
فكاد والله يموت فرحاً . فقلتُ له : ليست دراهمٌ وهي دنانيرُ ، وانصرفت
عنه وهو أحسنُ من في سوقه حالاً .

قال لي أحمد بن وليد : واجتزتُ بعد ذلك فرأيت دكانه معمورةً
وهو متصدِّرٌ فيها على أحسن حال وأوفاهَا

*
* *

(١) التوريق للناس : نسخ الكتب لهم بأجر .

(٢) من : في الأصل " إلى " .

وكان بنحو دار العنقود شيخٌ يتنخس^(١) في الدواب ، يُعرف
بابن الزنق قد لحق بمصر أكابرها ، ورأيتُه في أيام أحمد بن طولون
قد علّت سنّه ، وضعف عن التصرف ، وكان له ابن أخت خفيف
الروح مقبول الصورة ، حلو الألفاظ ، يتنخس في الدواب . نحف
على قلب القاسم بن شعبة . (وكان شعبة من أكابر أصحاب أحمد
ابن طولون ، ومات في طاعته ، فردّ إلى القاسم ابنه إحدى الشرطتين
بمصر^(٢)) فانصرف ابن أخت ابن الزنق من عند القاسم ، وقد خلّع
عليه درّاعة نحرّ من تحتها جبة ملحم^(٣) . فنظر إليها خاله ابن الزنق .
فقال : ماهذه الخلعة الرائعة ؟ فقال : خلّعها على القائد (يريد القاسم
ابن شعبة) . فقال : يا بني إن كنتَ تصبرُ على التدلى^(٤) معه في محبّه ،
كما تدلّى^(٥) في نعمه ، وإلا فاعتزلْه ولا تفضّحنا بالقعود عنه

(١) النخاس بياع الدواب والرقيق ، من نخس الدابة (كنصر وجعل) والاسم
النخاسة (بالكسر والفتح) ولم نجد " يتنخس " فيما بأيدينا من المعجمات .

(٢) انظر صفحة ١٧ .

(٣) ملحم : نوع ثمين من الثياب .

(٤) التدلى معه : الهبوط معه .

(٥) كما تدلى : أى تدلى ، حذفت منه تاء المضارعة ، والتدلى هنا :

التدلل وإظهار العظمة .

في نوابه . فقال : أرجو أن يصونه الله وما أنعم عليه به من نائبة
تلتحقه ، أو مكروه يقع به . فقال : وأنا أرجو هذا أيضاً له ، ولكن
ينبغي ألا تنسى نصيبه ^(١) منك في الشدة ، كما عني بك في النعمة .
واتصل بأحمد بن طولون عن القاسم بن شعبة شيء أنكره ، فحبسه ووكل
بداره جماعة ، وأخفى النخاس في دار خاله ، فسأله بعد يومين عن
سبب ملازمته المنزل . فقال : وجدت علة . إلى أن أتصل الخبر
بالشيخ ، فدخل إلى ابن أخته فقال : قبحك الله ! سرقت معروف
هذا القائد ، وخليته يقارع شجوه بخنثه ! وأسرج حماراً له وركبه ،
وجيرانه يناشدونه الله ألا يفعل . فقال : والله القتل أحسن مما أتى
به هذا الوغد ! ثم قصد دار القاسم بن شعبة وعليها جماعة من المؤمنين
وأصحاب الأخبار ^(٢) . فوقف على الباب فقال : كيف حال القائد
أبي محمد أيده الله ؟ فقالوا : امض يا شيخ . فقال : ما أمضى حتى
أبلي ^(٣) عذراً ، هذا رجل قد لزممتني له عارفة ، وهذا أوان قضائها .

(١) لا تنسى نصيبه منك . أي فضل القاسم عليك .

(٢) أصحاب الأخبار : الجواسيس ، وقد كثروا جدا في عهد ابن طولون
لشدة رغبته في معرفة أحوال الناس وتعقب أعدائه .

(٣) أبلى الرجل عذرا : أدى ما عليه من الواجب فارتفع عنه اللوم .

فوقع خبره إلى أحمد بن طولون فأحضره ، وقال : ما كنت تعمله للقاسم بن شُعبة ؟ قال : أولاني في بعض أقاربي جميلاً ، فانتصبت الساعة لما يحتاج إليه . وما أحق الأمير أن يفضّلني بحسن المكافأة عن طاعة والده له ، فقد كان مشهوراً بها !

فحدثني أبو العباس الطرسوسي . أنّ أحمد بن طولون قال له في هذا المجلس : ما أحسن ما آتتني هذا الشيخ إلى إذكاري بحق قاسم وعطفي عليه ! . ثم أحضر القاسم بن شُعبة وخلع عليه خلعة رضاء ، وصرفه إلى منزله .

وعَدَلَ الشيخ ولم يدخل معه داره ، وانصرف إلى بيته وقد قام بما قعد عنه ابنُ أخته .

وحدثني هارون بن مَلُول . قال :

لما مات أبي ورثتُ منه مالاً جماً ، ومُسْتَغَلَّاتِ نقيصة ، وكان يقصُرُني على زِيِّ التُّجَّار ، ويمنعُني من التخرُّق ^(١)

(١) التخرُّق : كثرة البذل والتوسع في الإنفاق .

والسَّرف في الهيئة ، فعمدتُ إلى أثوابٍ وشيٍّ سعيديٍّ ^(١) كانت في المتاجر التي خلفها والذي فقطعتها . وقطعت لخدمٍ أرتبطهم ^(٢) للتجارة من الملحم ^(٣) والديباج ^(٤) ملا يتسمَّح به أحد من أبناء الترفه . وجلستُ في الوشي ، وقام الغلمان بين يديّ فيما قطعته لهم .

ووافانا إسحاقُ بنُ إبراهيم مُفتقداً ، فتأملني فقال : لقد سرّني بعدُ قيمتك ^(٥) ، وحسنُ زيك ، بارك الله عليك ، وأحسن إليك . ثم وافاني جماعةٌ من إخوان أبي وأصفيائه ، فوالله ما أنكر على واحدٍ منهم ماخرجتُ إليه ^(٦) من زِيٍّ أسلافي . فلها كان في عشيّ ذلك اليوم وافاني رسولُ إسحاق بن إبراهيم بن تميم :

(١) الوشي السعيدي : نوع من الوشي ثمين يصنع باليمن .

(٢) أرتبطهم : أحتجزهم وأخضعهم .

(٣) الملحم : انظر الصفحة ٢٨

(٤) الديباج : ضرب من الحرير منقوش .

(٥) بعد قيمتك : ارتفاع منزلتك ، وفي الأصل كتب هكذا " تيمتك " فاستظهرنا أنّ رأس القاف قد محى .

(٦) ما خرجت إليه : المعروف : نخرج على كذا : عاداه وحاربه :

عندى^(١) مَنْ لَا تَحْتَشُمُهُ فُتُونُ جَمَاعَتِنَا بِحُضُورِكَ ، فَقَدْ أُعْجِبَنِي الْيَوْمَ
حُسْنُ زِيكِ . فَرَدْتُ فِي الْخِلْعَةِ وَرَكِبْتُ . فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ لَمْ أَفْقِدْ
عِنْدَهُ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ وَالِدِي^(٢) ، فَلَمَّا تَوَسَّطْتُ الصُّبْحَ ابْتَدَرَنِي
الْغِلْمَانُ ، وَصَاحَ بِي إِسْحَاقُ : ”تَوَهَّمْ يَا جَاهِلُ أَنَّ أَبَاكَ مَضَى
وَاسْتَرَحْتَ ! وَلَا تَعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ خَلَّفَ لَكَ هَؤُلَاءِ الْآبَاءَ“^(٣) بِأَسْرِهِمْ
يَرُدُّونَكَ عَنِ الْخَطَا بِأَلِيمِ الْعُقُوبَةِ ، وَلَا يَشْفَعُونَ فِي مَصْلَحَتِكَ مِنْ
عَظِيمٍ مَا كَانَ أَبُوكَ يَرْقُبُ عَنْهُ فَيْكَ^(٤) ! “ . ثُمَّ بَطِخْتُ فِي وَسِطِ
الدَّارِ ، فَصَحْتُ بِهِمْ : يَا سَادَاتِي ! وَاللَّهِ مَا قُرِعْتُ قَطُّ بِمَقْرَعَةٍ !
فَقَالَ إِسْحَاقُ : وَلَا أَتَيْتَ بِمِثْلِ هَذَا الْفَعْلِ ! وَضُرِبْتَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا ،
وَلَمْ تُرْفَعْ الْمَقْرَعَةُ عَنِّي حَتَّى حَلَفْتُ لَهُمْ أَلَّا أَزِيدَ عَلَى مَعْرِضِ وَالِدِي
وَاقْتَصَادِهِ . فَأَقَمْتُ عَلَى هَذَا إِلَى الْيَوْمِ .
وَمَا زَالَ عَنْهُ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ .

*
* *

(١) عندى الخ : أى فائلا عندى الخ ، وقد سبق للؤلّف مثل هذا الأسلوب .

(٢) لم أفقد الخ : أى إنه رأى عنده لإخوان والده جميعا .

(٣) هؤلاء الآباء : يقصد لإخوان أبيه وأصفياه .

(٤) ولا يشفعون الخ : أى ولا يتساحون لأجل مصلحتك في ذنب عظيم لم يكن
أبوك ليتجاوز عنه في سبيل إصلاحك .

ولما استفحل أمر ابن الخليفة^(١) انحاز عنه جيش مصر إلى الإسكندرية ، وخلا الفسطاط^(٢) منهم ، وكنت بمدينة أهناش^(٣) ، واضطربت النواحي ، واحتجبت إلى مشاهدة الفسطاط . فتخفرت بأربعة نفر من القيسية^(٤) ، دفعت إليهم عشرين ديناراً ، وخرجت معهم فأحسنوا العشرة وأجملوا الصُحبة . وكما لا نجتاز بحى ولا جماعة

(١) هو محمد بن علي ، يسميه بعض المؤرخين مرة بالخنجي ، ومرة بالخليجي ، وثالثة بالخليج . كان من جنود مصر فخطر له ، بعد زوال الدولة الطولونية ، أن يظهر النصر لهم ، ف تبعه جماعة ، وحارب والى مصر عيسى النوشري ، فانتقل عيسى إلى برا الحيزة ، فبقيت مصر بلا وال ، وأصبحت مأكلة للغوغاء يهجمون على البيوت وينهبون الأموال . ودخل مصر سنة ٢٩٢ ثم فتح الاسكندرية ثم جاء جيش من العراق فأدبر أمره وانهزم وقبض عليه في رجب سنة ٢٩٣

(٢) كان عمرو بن العاص عند غزوه مصر قد نصب له فسطاطا قبل الحصن ، فلما تم له فتح مصر واستأذن عمر بن الخطاب في السكنى ، قال له عمر : لا تنزل بالمسامين منزلا يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر ، فاستشار عمرو أصحابه . فقالوا : نرجع إلى فسطاطك فنكون على ماء وفسطاط . فرجعوا فسميت البقعة بالفسطاط وهي حول مسجد عمرو بالمكان المعروف بمصر العتيقة .

(٣) مدينة أهناش ” بالفتح “ : مدينة قديمة على الشاطئ الغربي من النيل قريبة من الفسطاط .

(٤) أعراب القيسية : كان بمصر صنفان من العرب : يمنية ، وأكثر القادمين على مصر لفتحها كانوا من اليمنية . وقد ورد على مصر بعد ذلك قوم من القيسية من مضر في خلافة هشام بن عبد الملك ، ثم تتابع وفودهم إلى مصر .

إِلَّا كَفَوْنَا مِثْلَهُمْ ، وَصَدَفُوا ^(١) عَنَّا بِأَسْهَمٍ . وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ
دَابُّنَا حَتَّى بَلَّغْنَا قَصْرَ الْجِيزَةِ . فَأَقْبَلْتُ رَعْلَةً ^(٢) مِنَ الْأَعْرَابِ قَدَرْتُهَا
بِرَأْيِ الْعَيْنِ نَحْمِسِينَ فَارِسًا ، كَانَتْ مِنْ غَيْرِ حِيَّيْهِمْ . فَصَمَّمْتُ نَحُونَا
بِرَمَاحِهَا ، وَعَمِلْتُ عَلَى نَهْنِهَا وَقَتْلَانَا ، وَرَأَيْتُ الْمَوْتَ فِي أَسْتِثْمِهِمْ .
وَأَحْسَنَ الْأَرْبَعَةَ الَّذِينَ تَخَفَّرْنَا بِهِمْ لِقَاءَهَا وَالتَّضَرَّعَ إِلَيْهِمْ ،
وَنَاشَدَوْهُمْ إِلَّا يُخَفِّرُوا ذِمَّتَهُمْ ^(٣) ، وَأَجْمَلُوا التَّائِيَّ ^(٤) حَتَّى انْصَرَفُوا .
وَجَدَدْنَا فِي السَّيْرِ حَتَّى اتَّهَيْنَا إِلَى حَيِّ الْمُخَفَّرِينَ ^(٥) لَنَا . فَقَالَ الْمُخَفَّرُونَ :
قَدْ بَلَغْتَ إِلَى مَنْ تَأْمَنُهُ فُحْطَ رَحْلُكَ ، فَمَا تَسْتَقِلُّ ^(٦) دَوَابُّكَ الزِّيَادَةَ عَلَى
هَذَا السَّيْرِ . فَزَلْتُ وَتَقَدَّمْتُ إِلَى الْغُلَبَانِ فِي إِطْعَامِهِمْ ، وَلَمْ أَجِدْ

(١) صدَفُوا : صَرَفُوا .

(٢) رَعْلَةٌ : قِطْعَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْخَيْلِ كَالرَّعِيلِ ، أَوْ مَقْدَمَةُ الْخَيْلِ ، أَوْ قَدْرُ الْعَشْرِينَ
أَوْ الْخَمْسَةِ وَالْعَشْرِينَ ؛ جَمْعُهَا رَعَالٌ وَأُرْعَالٌ وَأُرَاعِيلٌ .

(٣) يُخَفِّرُوا ذِمَّتَهُمْ : يَكُونُوا سَبِيًّا فِي نَقْضِ عَهْدِهِمْ .

(٤) التَّائِيَّ : فِي الْأَصْلِ : التَّائِيَّ .

(٥) الْمُخَفَّرِينَ : خَفَّرَهُ بِالتَّشْدِيدِ : خَفَّرَهُ .

(٦) تَسْتَقِلُّ : تَطِيقُ .

للطعام مَسَاغًا من قَرَطٍ مَالِحٍ قَنِى من الرُّوعِ . وَعَمِلَتْ فى الْمُخَفِّرِينَ هَذِهِ
الْأَبْيَات :

جَزَى اللّٰهَ خَيْرًا مَّعْشَرًا حَقَّقُوا دَمِي وَقَدْ شَرِيعَتِ نَحْوَى الْمُتَّقِفَةِ السُّمْرِ
دَرَاهِمُهُمْ مَبْذُولَةٌ لِّضَعِيفِهِمْ وَأَعْرَاضُهُمْ مِنْ دُونِهَا الْغَفْرِ^(١) وَالسُّتْرِ
إِذَا مَا أَغَارُوا وَأَسْتَبَاحُوا غَنِيمَةً أَغَارَ عَلَيْهِمْ فى رَحْلِهِمْ^(٢) الشُّكْرِ
وَإِنْ نَزَلُوا قَطْرًا مِنَ الْأَرْضِ شَاسِعًا فَمَا ضَرَّهُ إِلَّا يَكُونُ بِهِ^(٣) قَطْرُ

فَلَحَظْنِي وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَا أَكْتُبُهَا ، فَظَنَّ أَنِّي أَكْتُبُ إِلَى السُّلْطَانِ ،
فَاشْتَكَيْ مَا كَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الَّذِينَ لَقُونَا بِقَصْرِ الْجِيْزَةِ . فَقَالَ :
قَدْ سَلَّمَكَ اللّٰهُ مِنْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا إِلَيْنَا فى حُسْنِ الْإِجَابَةِ
لَنَا ، فَلَا تَكْتُبْ فِيهِمْ بَشَىءَ . فَقُلْتُ وَاللّٰهِ مَا كَتَبْتُ فِيهِمْ وَلَا فى غَيْرِهِمْ
إِلَى السُّلْطَانِ بَشَىءَ ! فَقَالَ لِي شَيْخٌ مِنَ الْمُخَفِّرِينَ (وَقَدْ قُرِبَ مِنِّي) :
فَمَا تَكْتُبُ ؟ قُلْتُ : أَكْتُبُ أَبْيَاتًا مَدَحْتُكُمْ فِيهَا . فَقَالَ : وَإِنَّكَ

(١) الْغَفْرُ : السُّتْرُ . وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّهُ يَرِيدُ بِالْأَعْرَاضِ هُنَا النِّسَاءَ .

(٢) أَغَارَ عَلَيْهِمْ أَخْلَجَ : أَيْ هَجَمَ عَلَيْهِمْ شَكَرَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ لِأَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ
مَا نَالُوهُ مِنْ غَنَائِمٍ .

(٣) بِهِ : فى الْأَصْلِ بِهَا ، وَيُمْكِنُ تَوْجِيهِهِ .

لتَقْرِضُ الشَّعْرَ؟ قلتُ: نعم. قال: أَتُسَدِّنِي عَلَى اسْمِ اللَّهِ. فَأَتَسَدَّتْهُ
إِيَّاهَا. فقال: بَرَكَ اللَّهُ وَوَصَلَكَ! ثم صاح بالثلاثة، فلما اجتمعوا
أَنشدهم إِيَّاهَا فما حَرَمَ—شَهِدَ اللَّهُ—حَرْفًا وَاحِدًا، فَعَجِبْتُ مِنْ حِفْظِهِ
لَهَا، وَلَمْ أَعُدْ عَلَيْهِ حَرْفًا مِنْهَا. وَتَبَيَّنْتُ الْفَرْحَ فِي سَائِرِهِمْ، وَحَفِظُوهَا
بِأَجْمَعِهِمْ. ثم صاح بهم الشيخ: مَا تَنْتَظِرُونَ؟ ارْحَضُوا ^(١) السَّوَاءَ
عَنْكُمْ! فَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي جُيُوبِهِمْ، وَجَمَعُوا شَيْئًا أَخَذَهُ الشَّيْخُ مِنْهُمْ.
ثم قال لِي: قَدْ شَكَرْنَا صَنِيعَتَكَ، وَاللَّهِ لَا نَجْعُ بَيْنَ شَعْرِكَ وَوَفْرِكَ!
وَوَضَعَ الْعِشْرِينَ الدِّينَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَكْبَرْتُ ذَلِكَ وَأَعْظَمْتُهُ.
فَقَالُوا لِي: الصَّوَابُ أَلَّا يَعْلَمَ بِهَا عَشِيرَتُنَا فَيَرْجِعَ عَلَيْكَ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا
خَفَتَهُ مِمَّنْ لَقَيْكَ بِقَصْرِ الْجِيزَةِ ^(٢)، وَرَكِبْتُ فِسْرَتٌ مَعَ جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنْهُمْ،
وَهُمْ يُنْشِدُونَ تِلْكَ الْآيَاتَ. فَالْتَمَسْتُ أَنْ يَقْبَلُوا مِنِّي بَرًّا فَلَمْ أَصِلْ
إِلَى ذَلِكَ، وَرَأَوْا أَنَّ الشَّعْرَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا مِمَّا مَلَكَتُهُ.

*
* *

(١) ارْحَضُوا: رَحَضَ الْقَذْرَ كَنَعَ: غَسَلَهُ وَأَزَالَهُ. كَارْحَضَهُ، وَالْكَلَامُ عَلَى
الْحِجَازِ، يَقُولُ: أَزِيلُوا عَنْكُمُ الْعَارَ وَهُوَ أَنْ تَحْرُسُوا. أَلِ شَاعِرًا قَالَ فِي مَدِيحِكُمْ شَعْرًا.
(٢) الصَّوَابُ أَلَّا يَعْلَمَ الْخ. نَصَحُوهُ بِالْأَيِّدِيعِ أَنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ مَا لَا لِحِرَاسَتَهُ
وِإِلَّا آذَنَهُ عَشِيرَتُهُمْ لَوْ عَلِمُوا بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ شَاعَ مَدْحُهُ لَهُمْ فَانْ مَجْرَدَ عَرَضَ الْمَالِ
عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَدْحِهِمْ يَعْدُ أَكْبَرَ مَذْمُومَةٍ لَهُمْ.

ونزل في حارتنا غلاماً أمردُ تأخذه العين^(١) ، وكنت أسلم عليه إذا اجتزت به كما أفعلُ هذا بغيره من جيرتي . فانصرف يوماً إلى منزلي ، فوجدته قائماً على بابه ، فدفع إلى رُقعةٍ يذكر فيها أنه عباسي من ولد المأمون ، ويسألني فيها برّه . ودخل من كان معي بدخولي ، فقضيت شغلي بالجماعة حتى انصرفوا ، ووضعت المائدة بيني وبين العباسي فأكلنا ، وهو يتأملني فلا يجد في شيئاً قدره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير ، واعتذرت إليه من تقصيري في حقّه وانصرف ، وقد رأيتُ تجميل في حماليق^(٢) عينية .

فلما كان بعد ذلك بسنّيات^(٣) ، وأنا في ضياعٍ تقبّلت^(٤) بها ، ولي فيها غلةٌ بمالٍ جسيم ، نحفتُ أن أدخلَ القُسطاطَ

(١) تأخذه العين : تنجبه إليه في إعجاب أشدّة جماله .

(٢) حمالق العين بالكسر والضم : له معان منها بياض المقلة .

(٣) سنّيات : سنوات قليلة .

(٤) قبل العامل بالعمل كنصر وسمع وضرب قبالة (بالفتح) تكفل به وضمن إنجازه ، وقبّلت العامل العمل فتقبّله طلبت إليه أن يكفل إتمامه . فقبل الكفالة وتعير المؤلف (تقبل به) والقبالة في هذا العهد كانت أن يأخذ الرجل أرضاً من السلطان أو غيره على أن يؤدي كل سنة كذا قنطاراً أو كذا إردبا .

فَتَخَرَّبَ الضِّيَاعَ وَتَتَعَطَّلَ عِمَارَتَهَا ، فَكَنتُ أَكْمَنُ نَهَاراً فِي بَعْضِ
مَنَازِلِ الْفَلَاحِينَ ، وَأَظْهَرُ لَيْلاً فَأَعْقُدُ ^(١) مِنْهَا مَا تَهَيَّأَ لِي عَقْدُهُ .

فَإِنِّي لَكَامِنٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ حَتَّى سَمِعْتُ رَجَّةً شَدِيدَةً ، فَدَخَلَ
إِلَيَّ بَعْضُ غِلْمَانِي . فَقَالَ : دَخَلَ أَصْحَابُ دَمْيَانَةَ ^(٢) الضَّيْعَةَ وَعَمِلُوا
عَلَى نَقْلِ الْغَلَّاتِ . وَأَيَقِنْتُ بَتْلَفَ أَكْثَرِ مَا أَمْلِكُهُ ، ثُمَّ سَكَنْتُ
أَصْوَاتَهُمْ ، وَدَخَلَ إِلَيَّ غِلَامٌ لِي . فَقَالَ لِي : يَا مَوْلَايَ ! كَانَتْ هَذِهِ
الضِّيَاعُ قَدْ أَشْفَتْ ^(٣) عَلَى نَقْلِ مَا فِيهَا ، حَتَّى نَظَرَ إِلَيَّ الْعَبَّاسِيُّ الَّذِي
كَانَ فِي جَوَارِنَا . فَقَالَ لِي : أَلَسْتَ غُلَامَ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ ؟
قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَهَذِهِ ضِيَاعُهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَصَاحَ بِالْجَمَاعَةِ
الَّتِي دَخَلَتْ مِنْ أَصْحَابِ دَمْيَانَةَ : ” اخْرُجُوا بِأَسْرِكُمْ عَنْهَا ” فَخَرَجُوا

^(١) أَعْقَدُ : أَجْمَعُ مِنْ حَاصِلِهَا .

^(٢) هُوَ دَمْيَانَةُ الْبَحْرَى ، غِلَامٌ يَازِمَانُ . كَانَ مِنَ الْقَوَادِ الْبَحْرِيِّينَ اسْتَدْعَاهُ
مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْكَاتِبُ أَنْ يَقِفَلَ بِمَرَاكِبِهِ إِلَى مِصْرَ فِي وَلايَةِ شَيْبَانَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ .
فَوَصَلَ إِلَيْهَا فِي ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مَرْجَبًا حَرْبِيًا مَشْحُونًا بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ ، وَذَلِكَ فِي صَفَرِ
سَنَةِ ٢٩٢ وَبَعْدَ أَنْ دَمَّرَ كَثِيرًا مِنْ قَرَاهَا وَنَهَبَ كَثِيرًا مِنْ أَمْوَالِهَا أَمْرَهُ عَيْسَى
النَّوْشَرِيُّ بِالْأَنْصُرَافِ وَالرَّحِيلِ عَنْهَا (النَّجُومُ الزَّاهِرَةُ) .

^(٣) أَشْفَتْ : أَشْرَفَتْ وَأَوْشَكَتْ . يَقُولُ : كَادَ أَصْحَابُ دَمْيَانَةَ يَنْتَهُونَ مِنْ نَقْلِ
كُلِّ مَا فِي الضِّيَاعِ مِنَ الْغَلَّةِ .

ثم قال لى : قل لمولاك يا سيدي محلى عند الأمير دميانة محل الأخ ،
فاظهر واركب إليه فقد آمنك الله على نفسك ومالك .

فسألت الغلام ما كان زيّه؟ فقال : كان عليه كساء صوف مما ينام فيه ،
وتحتة خفتان^(١) فأحضرت بعض مشايخ الضيعة ، وحملت إليه دراعة
نخر تحلية ومطرف^(٢) نخر وحمسين ديناراً ، وسألته أن يقبل ما يحتاج إليه
من ناحيتي . فقبل الدراعة النخر وردد المطرف والدنانير . وقال لرسولي :
والله لثلاثة الدنانير التي وهبها لى لشرفى لا لشيء مما ظننته به
أحسن موقعا عندي مما رددته إليه ! فكثر الله فى الناس مثله !
فلم يزل عضدا لى وسيراً على حتى أنصرف دميانة عن الناحية .

* * *

وحدثني يحيى بن الفضيل^(٣) عن يحيى بن نجة (وكان هذا الرجل
حسن الكتابة) . قال :

(١) خفتان : ثوب كانت تلبسه الجنود عادة . جاء فى سيرة البلوى : وعليهم
الخفتان والمناطق .

(٢) المطرف بصيغة اسم المفعول : رداء من نخر مربع ذو أعلام .

(٣) شاعر مصرى قال فى هجاء عنيسة بن إسحاق الذى ولى مصر سنة ٢٣٨ :

خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صواباً

ترددتُ إلى عمر بن فرج الرُّجِّي^(١) مدةً ، فدخلت عليه في يوم
من الأيام . فقال : قد أنصيناك^(٢) ! قد استتمت في هذا
اليوم سنة ! ووقع لي بتقليدِ عَمَلِ سَنِي . واضطربتُ فيما أحتاج إلى
التجهُّز به . فلما لم يبقَ عليَّ إلَّا نصُّ رِكابي^(٣) برَّزتُ ظهري^(٤)

(١) هو عمر بن فرج بن زياد الرنجي ، والرنجي : نسبة إلى رنج ، كورة
ومدينة من نواحي كابل بأفغانستان . وكان زياد جد عمر من سبي معن بن زائدة
في غزوة رنج ، كما كان أبوه فرج مملوكا لحمدونة بنت الرشيد ولحق ولأؤه بالرشيد
فولاه الأهواز ثم عزله عنها وكان عمر وأبوه فرج من أعيان الكتاب أيام المأمون
إلى أيام المتوكل ، وكان عمر واليا على دمشق للعنصم بن الرشيد . ولما توفي الواثق
وتولى المتوكل أمر بحبس عمر هذا سنة ٢٣٣ . وفي هذه السنة توفي عمر
(الوزراء — معجم البلدان) .

(٢) أنصيناك : سبيناك الهزال من طول ما سعت وترددت علينا في طلب
عمل لك .

(٣) نص ركابي : نص الرجل ناقته : استخرج أسرع ما عندها من السير .
والركاب : الإبل واحدها راحلة : يقول إنه تجهز ولم يبق إلَّا الإسراع بالسفر
إلى مكان عمله .

(٤) الظهر : الإبل .

وَوَقَفْتُ^(١) عَلَى بَابِ دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَنَصِّرِ^(٢) أَنْتَظِرُ
تَوْدِيعَ عُمَرَ وَالْخُرُوجَ إِلَى عَمَلِي ، فَأَرَيْتُ غِلْمَانَ عُمَرَ يَتَسَلَّلُونَ ،
فَسَأَلْتُ عَنْ السَّبَبِ فَقِيلَ لِي : سَخِطَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عُمَرَ ، فَخَرْتُ
وَحِخْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِي فَأَخْسِرَ جَمِيعَ مَا أَنْفَقْتُهُ ، فَأَتَى لَفِي تِلْكَ
الْحَيَرَةَ حَتَّى خَرَجَ عُمَرُ بْنُ فَرَجٍ وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ .
فَقَالَ لِي :^(٣) أَيْنَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعِيَ ؟ فَقُلْتُ : تَسَلَّلُوا لِلْحَادِثِ !
فَقَالَ : وَقَدْ وَكَّلْتُ بِهَذَا الشَّيْءِ عَلَى أَنْ يَنْقِيَنِي إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ ،
وَلَمْ أُعِدْ شَيْئًا وَلَا أَجِدُ مِنْ يُعِدُّهُ لِي . قُلْتُ : هَذِهِ قُبَّةُ^(٤) وَظَهَرَ^(٥)

(١) الثقل : متاع المسافرين وحشمه .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جعفر المتنصر . بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ قَتْلِ الْمُتَوَكِّلِ
فِي شَوَّالِ سَنَةِ ٢٤٧ وَكَانَ عُمُرُهُ إِذْ ذَاكَ نَحْصًا وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَمَاتَ سَنَةَ ٢٤٨ .
وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ . وَمِمَّا يُؤْثَرُ عَنْهُ أَنَّهُ تَقَدَّمَ بِالْكَفِّ عَنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ
أَنْ كَانُوا يَضْطَهَدُونَ وَتَرَكَ الْبَحْثَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَمَرَ أَلَا يَمْنَعَ أَحَدٌ مِنْ زِيَارَةِ
الْحَيَرَةِ حَيْثُ قَبْرُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (مَرْوَجُ الذَّهَبِ) .

(٣) فقال لي : أي عمر بن فرج .

(٤) القبة : هنا رحل له عيدان تنصب وتغطى بالثياب ونحوها لمنع الحر والبرد

(٥) ظهر : ناقة .

تُفْلِكَ ، وأنا أضحبك شكراً على ما أسلفتني من التقليد . فركب القبة وأحضر الشيعة قبةً ، وركبنا وأنا أعادله .^(١) ؛ واتهمى المسير بنا إلى نُرَاسَانَ^(٢) ، وكنا لا نقضى من بلدان نُرَاسَانَ إلى بلد إلا وجدناه أغلظ طبعاً من البلد الذي فارقناه ، حتى بلغنا بُخَارَى^(٣) ؛ فرأينا قوماً في نهاية من غلظ الطباع . فقال لي منذ رأيتك أتعجب منهم : كيف لو رأيت الترك وبلدانهم ؟ يقتلون المستجير بهم ويغير بعضهم على بعض فيهلك النازع إليهم بينهم . فرادني هذا القول تهيئاً للسير معه . ثم ملكت ما استغرب^(٤) مني وتماسكت ، وجد بنا السير عن بُخَارَى إلى أرض الترك ، وإني معه في القبة وهو يحدثني بشيء قد شغلني عن تبينه ما يقلقني من ركوب ما أقدمت عليه من الخطر ، حتى سمعنا

(١) أعادله : أجلس في الجانب المعادل له .

(٢) نُرَاسَانَ : بلاد واسعة ، أول حدودها مماليك العراق ، وآخر حدودها مماليك الهند ، وتشتمل على أمهات من البلاد ، منها نيسابور وهرات ومرو وغيرها . وكانت مرو قصبتها (معجم البلدان) .

(٣) من أعظم مدن ما وراء النهر ، بينها وبين سمرقند ثمانية أيام ، نبغ منها عدد عظيم من رجال الاسلام في كل علم وفن .

(٤) ملكت ما استغرب مني : قدرت على كبح دمي . يقال : استغرب الدمع :

حَلَقَ البريد ، فتشَوَّفْنَا لها^(١) ، ووَافَى بها رسولُ أمير المؤمنين وكتَّابُه
بِمَا أَمَرُهُ^(٢) بالحضرة من الرضا عنه وَرَدَّهُ إلى مرتبته ، ويأمره
فيه بكشفِ مدنِ نُرَاسَانَ وتجريدِ عُقُودِها^(٣) على أصوبِ ما استقرَّتْ
عليه ، واستثارةِ التوفيرِ بها والزيادةِ فيها .

فلما استتمَّ قراءته ، حمد الله وألقى الكتابَ إلى . وقال : بَارَكَ اللهُ لَكَ
في الخلاصِ وهنالكَ المَزِيدَ ! وَرَدَّ إِلَى تَأَمَّلَ^(٤) مَا أَمَرَ بِهِ أمير المؤمنين
من كشفِ عُقُودِ النواحي .

فانصرفتُ إلى منزلي بمائةِ أَلْفِ دينارٍ ، مع أرتهانِ شكرِ المُعَامِلِينَ^(٥)
ولإِحمَادِ السُّلْطَانِ .



(١) لها : أعاد الضمير مؤنثا على البريد لأنه يريد خيل البريد .

(٢) أمره : المعروف : أمر به .

(٣) بكشفِ مدن الخ : المراد بكشفِ المدن هنا : التحقق من مقدار مساحة
الأراضي التي يؤدي عنها الزرع خراجا للخليفة ، والمراد بتجريد العقود : تخليص عقود
القبالات التي التزم الزرع فيها أداء مقدار معين من غلتها إلى الخليفة ، من كل
غش وتدليس .

(٤) ورد إلى تأمل الخ : وكلفني النظر فيما أمر به الخليفة من التحقق من صحة
عقود الزرع ومقدار مالههم من الأراضي .

(٥) المعاملين : يراد بهذه الكلمة : من يعملون في أرض الدولة على أن يؤديوا
إلى السلطان في كلِّ سنة مقدارا معيناً من غلتها .

وحدثنا أحمد بن يوسف^(١) . قال :

حبس أحمد بن طولون يوسف بن إبراهيم والدي في بعض داره .
(وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه) فكاد ستره
ينتهك لخوف سبله .

وكان له جماعة من أبناء الستر^(٢) ينحمل مؤنّها مقيمة عليه لا تنقطع إلى
غيره . فاجتمعوا وكانوا زهاء ثلاثين رجلاً^(٣) ، فركبوا إلى دار أحمد

(١) حدثنا الخ : يراد بضمير المتكلم : راوى الكتاب وهو عبد الله الفرغانى ،
وأحمد بن يوسف : هو المؤلف .

(٢) أبناء الستر : يراد بأبناء الستر والمستورين : الفقراء الذين يظهرون التجميل
تعقفاً ويمنعهم شممهم من السؤال . جاء في كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوى :
وحدث إبراهيم بن قراطغان ، وكان على صدقات أحمد بن طولون ، قال : قلت للأمير :
أيّد الله الأمير ! إنّا نقف في المواضع التى جرت العادة بصدقة الأمير على من فيها من
المستورين والمستورات فتخرج إلينا الكف الناعمة المخضوبة نقشا أو تظاريف
والمعصم الرائع وفى الأصبع الخاتم الذهب . فقال لى : يا هذا ! كلّ من مدّ إليك يده
فأعطه ، فهذه هى الطبقة المستورة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه فقال : ” يحسبهم
الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيئاتهم لا يسألون الناس إلحافاً ” .

(٣) ثلاثين رجلاً ، فى السيرة للبلوى : وكانوا نحو مائة رجل .

ابن طولون ، فوقفوا ببابٍ له يُعرَف بباب الجبل ^(١) ، واستأذنوا عليه ، فأذن لهم فدخلوا إليه ، وعنده محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ^(٢) وجماعة من أعلام مستورى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : قد اتفق لنا (أيّد الله الأمير) من حضور هذه الجماعة مجاسه مارجونا أن يكون ذريعة إلى ما نأمله . ونحن نرغب إلى الأمير في أن يسألها عنا ليقف على منازلنا . فسألهم عنهم ، فقالوا : قد عرّضت العدالة ^(٣) على أكثرهم فامتنع منها . فأمرهم أحمد بن طولون بالجلوس ، وسألهم تعريفه ما قصدوا له . فقالوا : ليس لنا أن نسأل الأمير مخالفة ما أمر به في يوسف بن إبراهيم ، لأنه أهدى إلى الصواب فيه ، ونحن نسأله أن يقدمنا إلى ما اعتزم عليه فيه : إن آثر قتله أن يقتلنا ، وإن

(١) باب الجبل : باب من أبواب قصر ابن طولون . وكان لكل باب اسم فيها باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وسمى باب الصوابجة . وباب الخاصة ، وكان لا يدخل منه إلا خاصته . وأما ما كان مما يل المقطم فسمى باب الجبل .

(٢) صحب الإمام الشافعي بمصر وتفقه عليه ، وحمل إلى بغداد في محنة خلق القرآن ، وانتهت إليه الرياسة بمصر . توفي سنة ٣٦٨

(٣) العدالة هنا : عمل كانت تقوم به طائفة تشتهر بالصلاح والتقوى وحسن السيرة ، وهذا العمل هو الشهادة عند القاضى وتركية الشهود ونحو ذلك .

آثَرُ غَيْرِ ذَلِكَ أَنْ يُسَلِّفَ ^(١) بَنًا ، وَهُوَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ مِنْهُ . قَالَ :
وَلِمَ ذَلِكَ ؟ فَقَالُوا : لَنَا ثَلَاثُونَ سَنَةً مَا فَكَّرْنَا فِي ابْتِيَاعِ شَيْءٍ مِمَّا احْتَجْنَا
إِلَيْهِ ، وَلَا وَقَفْنَا بَبَابِ غَيْرِهِ . وَنَحْنُ وَاللَّهِ أَيْهَا الْأَمِيرُ نَرْتَمِضُ ^(٢) الْبَقَاءَ
بَعْدَهُ مَعَ السَّلَامَةِ ^(٣) مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَقَعَ فِيهِ . وَنَحْنُ بِالْبُكَاءِ بَيْنَ
يَدَيْهِ .

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَقَدْ كَافَأْتُمْ إِحْسَانَهُ ،
وَجَازَيْتُمْ إِنْعَامَهُ ! ثُمَّ قَالَ : يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ^(٤) . فَأَحْضَرُ . فَقَالَ :
خَذُوا بِيَدِ صَاحِبِكُمْ وَانصَرِفُوا . فَخَرَجُوا مَعَهُ وَانصَرَفَ بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ .

*
* *

قَالَ : وَطَالِبِيُّ بَعْضِ عُمَالِ الْخَرَاجِ بِمَصْرِ بِمَالٍ زَادَ عَلَى
مَا فِي حَاصِلِي ، فَاحْتَجْتُ إِلَى مَعَامَلَةِ بَعْضِ التُّجَّارِ عَلَيْهِ ، فَدَلَلْتُ عَلَى
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يَعْمَلُ بِرُهُونٍ ، فَصَارَ إِلَيَّ ، وَأَنَا فِي بَيْتِ الْمَالِ

(١) يسلف بنا : يقدم بنا .

(٢) نرتمض البقاء ، ارتمض فلان من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، فالفعل متعد
بحرف الجر . ونظن المؤلف ضمته معنى : نكره .

(٣) مع السلامة : في الأصل : من السلامة ، وهو تحريف .

(٤) يوسف بن إبراهيم : أي أحضروا يوسف بن إبراهيم .

منه^(١) شَيْخٌ حَسَنُ الصُّورَةِ ؛ جَمِيلُ اللَّقَاءِ . فَقَالَ : إِلَى كَمْ تَحْتَاجُ ؟
 قُلْتُ إِلَى مَائَتِي دِينَارٍ . فَأَخْرَجَ مِنْ كُمِّهِ مَالًا فَوْزَنَهُ ، وَاسْتَزَادَ مِنْ
 غِلَامٍ كَانَ مَعَهُ دَنَانِيرٌ حَتَّى أَكَلَ الْمَائَتَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَهَا إِلَيَّ وَاقْتَضَانِي
 خَطًّا بِهَا . وَقَالَ : قَدْ كَفَيْتَ مَوْئِنَةَ الرَّهْنِ . فَقُلْتُ : فَكَيْفَ أَكْتُبُ
 الْخَطَّ ؟ قَالَ : بِمَائَتِي دِينَارٍ ، كَمَا أُعْطَيْتُكَ . فَقُلْتُ لَهُ : سَبِيلُ الْمَعَامَلَةِ
 غَيْرُ هَذَا^(٢) . فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا قَبْلُتُ مِنْكَ فِيهَا رِبْحًا ، وَلَوْ وَهَبْتُهَا لَكَ
 لَكَانَ مِنْ أَصْغَرِ حَقُوقِكَ عَلَيَّ . ثُمَّ قَالَ لِي : تَعْرِفْنِي ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ :
 رَكِبْتُ مَرْكَبًا أُرِيدُ الْفُسْطَاطَ مِنْ تَنْيَسَ^(٣) ، وَحَمَلْتُ فِيهِ تِجَارَةً لِي
 مَا كُنْتُ أَمْلِكُ غَيْرَهَا . حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحَمْلَةَ ، وَوَازَيْتَ ضِيَاعًا كَانَتْ

(١) فصار إلى الخ. في قوله فصار إلى منه تجريد. ولؤلؤف ولع بهذا الأسلوب واستعمله في هذا الكتاب مرات .

(٢) سبيل المعاملة الخ. : يقصد أن الطريق في القرض عند أمثال هذا الرجل أن يزداد عليه شيء من الربح .

(٣) تنيس (بكسرتين وتشديد النون) : جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، والفرما في شرقها . وينسب إليها خاق كثير من أهل العلم . وقد اشتهرت قديما بصناعة النسيج (معجم البلدان) .

في يدك ، كُسر بنا ، وغرق جميع ما أملاكه ، وسلّمتُ بحُشاشة نفسي .
 بخلست على الشَّطِّ أبكى وأنحِبُ ، فأقبلت في جماعة معك ، فسألتنى
 عن حالى فأخبرتكَ بها ، فبُثِّتَ في حَشْدٍ مَن يغوص على المركب
 وما فيه ، وحططت^(١) على الشَّطِّ . فأخرجوا بزاً كان لى وتلف
 ما سواه ، واستحلقتنى على ما ذهب لى فأخبرتكَ به ، وكانت قيمته
 سبعين ديناراً ، فقسمتها لى على وكلائك وكُتّابك . فلها حصّلت لى
 أعطيتنى دنائير من عندك ، وقلت لى : هذا أرش^(٢) ما لحقك
 فى الثياب . وأمرت أن يُكْتَرَى [لى] إلى تَنْيَسَ ، وكتبت لى إلى
 جماعة مُعامليك بَتَنْيَسَ بما لحقنى ، وبمعونتى على أمرى . فرجع بك
 إلى ما أملاكُ واكتسبتُ جاها بَتَنْيَسَ تضاعف مالى به ، وحسنت
 معه حالى .

وأخذ خطّى بالمال وانصرف .

*
* *

(١) وحططت : يريد أقتت حتى يتوا عملهم .

(٢) الأرش : التعويض .

وسمعتُ أبا العباسِ أحمدَ بنَ إسَاطم . يُحدِّثُ أبا الطَّيِّبِ
أحمدَ بنَ علي . قال :

لَمَّا سَخِطَ الْمُؤَقَّ (١) عَلَى صَاعِدَ (٢) وَكَلَّ بِهِ مَنْ يَطَالِبُهُ ،
وَأَقَرَّنِي وَالطَّائِيَّ (٣) عَلَى مَا كُنَّا نَتَقَلَّدُهُ لَهُ . وَكَانَ صَاعِدَ مُحْسِنًا
إِلَيْنَا ، جَمِيلَ الْعَشْرَةِ لَنَا ، فَلَمْ تَتْرِكْ شَيْئًا نَصِلُ إِلَيْهِ مِمَّا خَفَّفَ عَنْهُ
إِلَّا بَلَّغْنَاهُ . وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّائِيَّ إِحْنَةً ، فِدَعَانِي الْمُؤَقَّ فِي يَوْمٍ
مِنَ الْأَيَّامِ ، وَنَحْنُ بِوَاسِطِ (٤) ، وَقَدْ بَلَغَ (٥) صَاعِدَ ، وَاسْتَزَلَّ الْمُسْتَخْرِجُ (٦)
جَمِيعَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْهُ . فَقَالَ لِي : أَحْمَدُ ! ادْخُلْ إِلَى صَاعِدَ فَقُلْ لَهُ
أُظْنُكَ أَرْضَيْتَ الْمُسْتَخْرِجَ حَتَّى فَتَرَ فِي مَطَالِبَتِكَ ، وَتَالَلَّهِ لَنْ لَمْ تُخْرِجْ
مُحْتَجِبَكَ ، لِأَتَوَلَّيَنَّ تَعْذِيبَكَ بِنَفْسِي ! فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ وَأَدَيْتُ الرِّسَالَةَ .

(١) هو أبو أحمد طلحة بن الخليفة المتوكل على الله . كان من أجَلِّ ملوك بني
العباس رأيا وأسمحهم نفسا وأحسنهم تدبيرا . توفى سنة ٢٧٨ هجرية .

(٢) هو صاعد بن مخلد ذو الوزارتين كاتب الموفق ، انتقلت إليه الوزارة أيام
المعتمد بعد سليمان بن وهب ، ثم غضب عليه الموفق وعلى جميع أهله وأصحابه
ونهب منازلهم . وتوفى صاعد بعد هذا بأيام سنة ٢٧٠ هجرية .

(٣) هو أحمد بن محمد الطائي ، كان يلي للوفيق الكوفة وسوادها وطريق خراسان
وسامرا والشرطة ببغداد . (الطبري) .

(٤) مدينة بالعراق ، اختطها الحجاج بن يوسف في سنتين بين الكوفة والبصرة .

(٥) بلغ : أدركه الإعياء والجهد .

(٦) المستخرج : من كُلف مصادرة أمواله واستخراجها منه .

فقال لى: يا أحمد! والله ما بقى لى شىء وما ملكت قط ما هو أحب
إلى من نفسى! فنقول له: ياسيدى! والله ما أملك على الأرض
ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا جَوْهراً! وأنت أولى بالتطوّل على
خادمك. فانصرفت من عنده، وأنا أخاف أن يُغريه^(١) ذلك
الجواب. ودخلت إليه، وقلت له: يقول لك ياسيدى ما أملك
على وجه الأرض ولا بطنها غير مائة ألف دينارٍ عند الطائى فأمر
بإحضاره، فلما مثّل بين يديه. قال له: المائة الألف الدينار التى
لصاعد عندك، قد بعث إلى يحلف أنه لا يملك غيرها. فقال له:
هى بمدينة السلام، فيُنظرنى الأميرُ مسافة الطريق، وأنا أستسلف^(٢)
له ما تيسّر منها من الثّجّارها هنا. فقال له: اكتب خطك بها.
فكتبه وسلّمه إلى الموقّق، فسلمّه إلى غلام من خاصّته، وانصرف
الطائى.

فاستقبح ما صدر منى فيه، وعظّم فى نفسى لتصديقه
صاحبه وترك معارضته بما يدفع به المرء عن نفسه، فدنوت من
الموقّق وقلت له: أيها الأمير! جميع ما أدّيته إليك عن صاعد منى

(١) يغريه: يغرى الموقّق.

(٢) وأنا أستسلف له: أوّدى إليه مقدما.

تقولته، وقد قبّح في عيني ؛ وسيدى الأميرُ مُخَيَّر بين الصّفح عنه^(١) والعقوبة عليه . فقال : أحسنت ، بارك الله عليك ! ثم أمر برد الطائي فقال : لمَ لمَ تتقرّب إلىّ بذكر هذا المال ؟ فقال أيّها الأمير ! يمعنى ذلك ما تولاه^(٢) من اصطناعي . فقال له : ليس يُقْنَعُنِي إِلَّا أن تحاف برأسي على هذا المال ، وفي أيّ وقت دفعه إليك . فقال : يُعْزِنِي الأميرُ من ذلك . فقال : والله لا فعلتُ . فقال : وحقّ رأس الأمير ماله عندي درهمٌ واحد فضلاً عنه ! ولكنّي لمّا رأيته قد عاذ بالدعوى علىّ ، تيقّنتُ أنّه لم يبقَ له حيلةٌ في المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمّل هذا المال ، ووالله ما أمليكه ! ورجوت أن أصل إليه بجاهي ولطيف حيلتي .

فاستحضر الموقّق الخطّ ودفعه إلى الطائي ، فقال له : خرّقه . ثمّ تقدم بإعفاء صاعد من المطالبة .

*
* *

(١) عنه : الضمير يعود على العمل الذي عمله .

(٢) تولاه : ضمير الفاعل يعود على صاعد .

وكان نجاح^(١) بن سلمة مع ما يؤثر عنه من زعارة^(٢)
أخلاقه ، وقبح تسلطه ، يحب التبسط على طعامه^(٣) ، ويحسن
المكافأة ، عليه^(٤) فحدثني يعقوب بن إسحاق بن تميم^(٥) . قال :

أقام إسحاق والدي ببغداد خمسا وعشرين سنة في رفع حسابه ينقض
الكتاب جماعته ، ويسلطون الإعانة عليه^(٦) . قال لي يعقوب :

(١) هو أبو الفضل نجاح بن سلمة الكاتب ؛ كان على ديوان التوقيع والتبعية
على الهمال . وكان نديما للتوكل ، توفي سنة ٢٤٥ هجرية .

(٢) زعارة أخلاقه : شراستها .

(٣) يحب التبسط الخ : يحب لإقبال الناس على طعامه وعدم احتشامهم منه .

(٤) ويحسن المكافأة عليه : أي إنه يكافئ كل من يسره بالإقبال على طعامه .

(٥) هو أبو يوسف الكاتب يعقوب بن إسحاق بن تميم . ممن دخل مصر مع ابن
طولون . وكان با بكاك قرنه به . ثم غضب عليه ابن طولون في أمر كان بينه
وبين أخيه موسى وتصرف فيه يعقوب بما أغضب ابن طولون فسيجنه في المطبق
ثم عفا عنه . وغادر مصر إلى سر من رأى حيث أهله وأقام بها . وكان على اتصال
بإبن طولون .

(٦) كان إسحاق عاملا من عمال الخليفة وكان عليه أن يؤدي حسابا عما جمعه
من الأموال والغلات . ويظهر أنه أقام هذه المدة ببغداد لتعنت الكتاب في محاسبته
ولأنه كلما أوشك حسابه أن ينتهي مات الكاتب أو عزل ، فابتدى معه الحساب
من جديد .

فخَدْنِي أَبِي أَنَّ أَغْلَظَ الْكُتَّابِ بِأَسْرِهِمْ كَانَ نَجَاحَ بْنَ سَلَمَةَ . قَالَ :
فَلَهَا أَفْرَطَ عَلَى سُوءِ تَحْكُمِهِ ، جَلَسْتُ فِي مَنْزِلِي .

فَرَّبَهُ اسْمِي ، فَقَالَ : قَدْ عَزَمَ إِسْحَاقُ بْنُ تَمِيمٍ عَلَى أَنْ يَتَرَبَّصَ بِنَا ،
كَمَا كَانَ يَتَرَبَّصُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا^(١) ! ثُمَّ نَظَرَ إِلَى بَعْضِ الْمَضْمُونِ
إِلَيْهِ ، فَقَالَ : بَكَرَ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ تَمِيمٍ فَأَحْضَرَهُ الدَّارَ إِلَى أَنْ أَنْصَرَفَ^(٢) .
قَالَ : فَبَاكَرَنِي فَظٌُّّ مِنَ الْجُنْدِ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي مَعَهُ حَتَّى صَارَ [بِي]
إِلَى دَارِ نَجَاحَ . فَوَجَدْنَاهُ قَدْ رَكِبَ فَحْصَلَنِي^(٣) عَلَى الْبَابِ ، وَجَلَسَ
مَعِي ، وَتَعَالَى النَّهَارُ ، وَاشْتَدَّ جُوعِي . فَقُلْتُ لَهُ : أَمْضِ مَعِيَ إِلَى
الْمَنْزِلِ لِنَأْ كُلَّ جَمِيعًا وَنَرْجِعَ ، فَأَبَى . فَقُلْتُ لِحَاجِبِ نَجَاحَ (وَرَأَيْتُهُ مَمْتَكًا
مِنْ دَارِهِ) : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! إِنِّي قَلِيلُ الصَّبْرِ عَلَى الْجُوعِ ، وَأَخَافُ
أَنْ يَتَأَنَّرَ الْأَسْتَاذُ^(٤) ، وَأُضْعَفُ عَنْ حُجَّتِي فِي حَضُورِهِ بَغْلَبَةِ الصَّفَرَاءِ
عَلَيَّ ، وَقَدْ سَأَلْتُ هَذَا الرَّجُلَ أَنْ يُطَاقَ لِيَ الذَّهَابَ إِلَى مَنْزِلِي لَا كُلَّ

(١) يَتَرَبَّصُ بِنَا : يَنْتَظِرُ مَوْتَنَا أَوْ عِزْلَنَا .

(٢) إِلَى أَنْ أَنْصَرَفَ : أَيْ وَأَبْقَاهُ بِالْدارِ إِلَى أَنْ أَنْصَرَفَ مِنَ الدِّيْوَانِ وَأَحْضَرَ
لَأَرَاهُ .

(٣) حَصَلَنِي : أَيْ الْجُنْدِيُّ وَالْأَصْلُ فِي التَّحْصِيلِ الْجَمْعُ وَيُرِيدُ هُنَا : حَجَزَنِي .

(٤) الْأَسْتَاذُ : الرَّئِيسُ .

وَأَرْجَعُ فَأَبَى . قال : لم لا تأكل هاهنا ؟ وأجلسنى فى ساحة ^(١) فيها ^(٢) . واستَحْضَرَ الطَّعَامَ ^(٣) ، فَأَحْضَرَتْ مَائِدَةً نَجَاحُ بْنُ سَلَمَةَ ، ولم يَبْقَ حُلْوٌ ولا حَامِضٌ ولا حَارٌّ ولا بَارِدٌ إِلَّا نُقِلَ عَلَيْنَا . حتى إِذَا بَلَغْتُ إِلَى الحُلُوءِ مِنَ الطَّعَامِ دَخَلَ الدَّارَ نَجَاحٌ فَجَلَسَ فى المَجَالِسِ ^(٤) . وراأتى فى دخوله ومكانى من الساحة ، فبعث إلى غلاما له [يقول] : بجيأتى استتمَّ أكلُك ؛ ولا تتجوز فيه ^(٥) . فأقمت حتى فرغ الطعام ؛ وجاءونى بالغسل ^(٦) والبخور ، ثم قمت . فلما رأتى ضحكى إلى ، وقال : من علمك على هذا ^(٧) ؟ قلت : التوفيق . قال : أجل . ثم قال لى : ارفع حسابك كيف شئت وأحشه ^(٨) فقد أمتنك الله من اعتراضك بشيء تكرهه .

(١) فى الأصل رسمت الكلمة هكذا : (بنحانحه) .

(٢) فيها : فى الدار .

(٣) واستحضر الطعام : طلب حضوره .

(٤) فى المجالس : أى فى الحجرة ذات المجالس التى يستقبل فيها زواره .

(٥) لا تتجوز ، لا تخفف .

(٦) الغسل : الماء يغسل به .

(٧) من علمك الخ : أى من أرشدك إلى أن خير وسيلة لرضائى ومعوقى لأى إنسان أن يقاسمنى طعامى .

(٨) واحشه : أى وأضف إليه من النفقات ما شئت .

قال يعقوب : قال لى أبى : فغدوت إليه بحسابى ؛ فوالله ما زاد على التوقيع فى الجماعات^(١) بامضائها وتخليدها^(٢) : ثم قال : متى تعزم على بلدك ؟ فقلت ياسيدى ! إنما انتظر فيه إذنك ، فكلُّ شىء لى مفروغ^(٣) منه . فقال : اجعله بعد صلاة الجمعة . قلت : أفعل . ثم قال لى : تروح إلى لألقاك فى حوائج لى ، فقدّرت أن يمحلىنى فى الحوائج غرم الألف الدينار^(٤) .

فلما رُحْتُ إليه دخلت ، وهو خالٍ . فقال لى : إنك ترجعُ إلى بلد قد يئس منك فيه أهله ، فأدخلَ الجارُ من جيرانك الخشبةَ فى حائطك ، والجارُ فى البستان قد تحيّف حُدودك ، فهَبْ لى ما بينك وبينهم^(٥) . قلت : أفعل . قال : وترى ببلدك جماعة قد ارتفعوا ، أبناء خاملين فلا تنهرهم بدقة أصولهم ، والصدقِ عما كان عليه سلفهم ،

(١) الجماعات : حواصل الجمع .

(٢) وتخليدها : قيدها فى سبجلات الدولة .

(٣) مفروغ : اتصلت الفاء بالخبر لإفادة المبتدأ العموم .

(٤) يمحلىنى فى الحوائج الخ : يقصد أنه يكلفه أشياء فيها غرم نحو ألف دينار .

(٥) فهب لى الخ : أى تجاوز عن ذلك وسامح فيه لأجل .

فإنه يزرع لك المقت في قلوبهم . قلت : أفعل . قال : واصحاب
البريد^(١) ، فاحذر أن يرد في كتبهم ذكرُك بخير ولا شر . قلت :
أفعل . ثم أوماً إلى يعانقني . قلت : ياسيدي ! حوائجك ؟ قال : هي
ما عدته عليك . إنك قد حللت مني بانبساطك محلّ القراية^(٢) الذي
أسر بصوابه ويغني زلله ، فإن حزبك^(٣) أمر في بلدك فلا تعدل به
عني ، وأنا استودعك الله . فانصرفت عنه وأنا على غاية من الشكر .

*
* *

وحدثني محمد بن يزيد^(٤) (وكان حسن التقشف ، سديد الرأي)
قال :

أطلق جماعة من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظنة
بالتلصص ، وكانوا ينزلون كورة أهناس . فإني عند بعض أصحاب

(١) أصحاب البريد كان إليهم نقل أخبار الولاة والناس إلى الخليفة . وقد
أشار الامام أبو يوسف في رسالة الخراج التي بعث بها إلى الرشيد إلى وجوب
حسن اختيارهم ، فقال بعد كلام طويل : ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار
في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاض ولا وال .

(٢) محل القراية : أي محل ذى القراية ، وهو استعمال سائع .

(٣) حزبك : نأبك واشتد عليك .

(٤) هو محمد بن يزيد الواسطي . كان من البارزين بين علماء الكلام . توفي

الأكسية حتى وافاه غلام أصفر ، خبيث المنظر ، متمكن من نفسه^(١) من الخارجين من الحبس . فرحب به ، وجلس عنده ، وهنأه بسلامته . ثم سأل عن حاله . فقال : خرجت من الحبس كما تراني وما معي نفقة تبليغي منزلي ! فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : مسافر . فقلت له : يا بني قدم الله في أمورك ولا تعدل عنه ، فإن الراحة في ظله . فقال لي : ياسيدي ! الحق فيما قلته ، والنفس أمارة بالسوء ، والتوفيق إلى الله دون خلقه . فأعجبني جوابه وقلت له : كم يكفيك إلى منزلك ؟ فقال : دينار ، فدفعته إليه وقلت له : إذا حدثت نفسك بإخافة السبيل فابعث إلى حتى أمسك من رمقك ، وأكف فافتك .

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أهناس والبهنسا^(٢) بتسلط رجل من اللصوص ، في جمع كثير على كثير من المواضع وكبسهم الضياع . وكانت لي أسلاف^(٣) بسُسطا^(٤)

(١) متمكن من نفسه : مغتر بنفسه واثق بها .

(٢) البهنسا : مدينة بصعيد مصر غربي النيل وبظاهرها مشهد يزار وينسب إليها جماعة من أهل العلم (معجم البلدان) .

(٣) أسلاف : قروض .

(٤) سُسُطا : قرية من الصعيد الأدنى في الناحية الغربية من النيل .

ونواحيها ، فخرجت لَقْبُضِهَا فِي رُقَّةٍ مِنَ التَّجَارِ قَدْ حَمَلُوا الْبَزَّ وَالطِّيبَ
وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْأَرْيَافِ . فَإِنَّا بِنَوَاحِي الْمَحْرَقَةِ حَتَّى لَقِينَا قِطْعَةً مِنَ
الْصُّوَصِ فَسَاقَتْنَا بِأَسْرِنَا إِلَى مَوْضِعٍ مَنقُطَعٍ عَنِ الْمَازَةِ ، وَفِيهِ شَابٌّ
أَصْفَرُ رَاكِبٌ فَرَسٍ ، وَمَعَهُ مَقْدَارُ خَمْسَةِ فَوَارِسَ . فَعَرِضَتِ الْجَمَاعَةُ
عَلَيْهِ إِلَى أَنْ بَلَغَنِي فَتَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ مُسَافِرًا ، فَأَكَبَّ عَلَى رَأْسِي ،
وَنَحَفَّ بِي ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَخْطَأَ وَاللَّهِ حَزْرُكُمْ ! هَذِهِ رُقَّةٌ
شَيْخِي وَسَيِّدِي ، وَوَاللَّهِ لَا دَخَلَ إِلَيَّ مِنْهَا شَيْءٌ ! وَسَارَ مَعَنَا حَتَّى
أَخْرَجَنَا إِلَى الْأَمْنِ . ثُمَّ قَالَ لِي : أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَأْكُلُ طَعَامِي ،
وَلَا تَقْبَلُ شَيْئًا مِنِّي ، وَقَدْ وَاللَّهِ يَا سَيِّدِي حَبِيتَ إِلَيَّ مَجَانِبَةً مَا أَنَا
بِسَبِيلِهِ ! فَشَدْتُكَ اللَّهُ لَمَّا ^(١) جَعَلْتَنِي طَرِيقَكَ فِي الرَّجْعَةِ !
فَتَضَمَّنْتُ لَهُ ذَلِكَ .

وَدَخَلْنَا مَدِينَةَ أَهْنَسَ ، فَشَاعَ خَبْرُ مَا أَوْلَانِي فِي النَّاسِ .
وَكَانَ الْمُنْقَلِدُ لَهَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونٍ يُعْرَفُ
بِفَهْمِهِ ، مُتَقَدِّمًا عِنْدَهُ ، أَثِيرًا لَدَيْهِ ^(٢) ، فَبَعَثَ إِلَيَّ وَعَرَفَ مَذْهَبِي .

(١) لَمَّا : إِلَّا .

(٢) أَثِيرًا لَدَيْهِ : مُقَرَّبًا عِنْدَهُ مَحْبُوبًا .

فقال : قد أَحْفَيْتُ^(١) المسألة عن هذا الغلام فرأيتُه لا يرى القتلَ ،
ولا هَتَكَ الحريمَ ، وإنما يتعلَّق بأطراف الأموال ولا يبلغ الاجتياحَ^(٢)
وأنا أسألك أن تَسْفِرَ^(٣) بني وبينهم . فَإِنِّي أُوْمِنُهُ وَأُكْرِمُهُ وَأَقْلُدُهُ سِيَارَةَ^(٤)
البلد . فرَجَعْتُ في حاجة فَهَمَّ إِلَيْهِ ، فَأَلْفَيْتُهُ ، والجماعةُ بين يديه ،
فَأَدَيْتُ إِلَيْهِ رسالته ، وأعلنتُه أَنَّ هذا الرجل صحيحُ الضمان . فقال :
يا سيِّدى ! ما بيني وبينه في الأعمال إلاَّ أَنَسُ النَّاسِ بِهِ^(٥)
ثم قال لأصحابه : مَنْ يُسَاعِدُنِي على الخروج إلى الله (عزَّ وجلَّ)؟^(٦)
فقالوا بأجمعهم : نحن . فسار معي حتى إذا قُرُبْنَا من أهناس وضع
حبلًا في عُنْقِهِ ، وقال : ادْخُلْ بِي فِي زِيِّ الْأَسْرَى وهذه الجماعة^(٧) ،

(١) أَحْفَيْتُ المسألة : أَكْثَرْتُ من السؤال وكررت .

(٢) الاجتياح : الاستئصال .

(٣) تسفر : تكون سفيرا ووسيطا .

(٤) سيارَة : مصدر من " سار " دالٌّ بصيغته على الحرفة ، ويظهر أن سيارَة
البلد كانت وظيفة في هذا العهد ، يقصد بها حسن السير بالبلد ، وصيانة الأمن
والنظام به . وقد استعمل صاحب " النجوم الزاهرة " هذه الكلمة بهذا المعنى .
(٥) ما بيني وبينه الخ ، يقول إني لا أطلب منه فيما يعمل إلا أن يأنس
الناس به ولا يخافوه على أرواحهم وأموالهم .

(٦) من يساعدنِي الخ : أى من يساعدنِي على التوبة والرجوع إلى الله .

(٧) وهذه الجماعة : معطوف على الضمير في " بِي " .

فدخلوا ، والناسُ سيكون لما اتَّفَقَ لهم من حسن الهداية ، ورأى
الناسَ عَجَباً مِنْ سَوَقِ شَيْخٍ مِثْلِي ضَعِيفٍ رَجُلًا قَدْ أَعْجَزَ خَيْلَ
السلطان . فطلبَ فهِمٌ أَنْ يَقْبَلَ لَهُ خِلْعَةً فامتنعَ من ذلك ، وأضاف
أَصْحَابَهُ إِلَى فهِمٍ . وأقامَ إلى وقتِ الْحَجِّ فخرجَ إلى مَكَّةَ رَجُلًا ،
ثُمَّ فَقَدَتْهُ .

*
* *

وحدثني أبو حبيب المقرئ . قال :

ضاعت أحوالي فلم تَبْقَ ^(١) لي إِلَّا جاريةٌ أُحِبُّهَا ، ومنزلاً أَسْكَنُهُ .
فَبِعْتُ الْمَنْزَلَ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَخَرَجْتُ إِلَى مَكَّةَ بِالْجَارِيَةِ . فَقُلْتُ لَهَا :
يَكُونُ هَذَا الْمَالُ فِي وَسْطِكَ ، فَكَانَتْ إِذَا نَزَلْتُ فِي مَنْزِلٍ حَفَرَتْ
فِي خَيْمَتِهَا حَفِيرَةً وَأَوْدَعَتْ الْمَالَ فِيهَا وَطَمَّتْهَا ^(٢) ، فَإِذَا نُودِيَ
بِالرَّحِيلِ أَثَارَتَهُ وَشَدَّتَهُ فِي وَسْطِهَا .

قال : فَاتَّفَقَ أَنْ رَحَلْنَا عَنْ مَنْهَلٍ ، وَنَسِيتِ الْمَالَ فِي الْحُفْرَةِ ،
فَأَخْبَرَتْنِي الْجَارِيَةُ بِذَلِكَ . قال : فَخَارَ فِكْرِي ، وَطَاشَ رُوحِي ، وَلَمْ أَدْرِ

(١) فِي الْأَصْلِ : يَبْقَى .

(٢) طَمَّتْهَا : دَفَنَتْهَا .

ما أعمل . ودخلنا مكة فخذتني نفسي ببيعها فلم يطغني قلبي . فلما رجعنا ونزلنا المنهل الذي خلقت فيه الكيس ، رأيت صحراء ، وغلاماً على رابية يرعى غنّيات له ، وأقبلت أدور وأنظر إلى الأرض . فقال لي : ويحك ما تطلب ؟ قلت : شيئاً أودعته أرض هذا المنهل . فقال لي : صفه لي ، قلت : كيس أحمر فيه مال . فقال : وما لي فيه إن دلتك عليه ؟ قلت : نصفه . قال : ها هو ذاك في الرابية . فلما رأى تحيّر^(١) فيه قام حتى أخرجه ، ووضع بين يدي . فحمدت الله وقسمت الكيس قسمين وخيرته أحدهما^(٢) . فقال لي : إني أرى قسمي منه كثيراً ، وأنا أكتفي بنصف أحد القسمين ، فقسمته^(٣) قسمين . فقال : تقسمه أيضاً قسمين ، ففعلت . فقال : ما أعجب أمرك ! أتركه كله حراماً ونصفه حلالاً وأخذ منه شيئاً ؟ هذا ما لا يكون ، انصرف بمالك . فقلت له : يا غلام أنت حرٌّ أو مملوك ؟ فقال : مملوك . فقلت : لمن ؟ فقال : لشيخ هذا الحى .

(١) تحيّر فيه : دهشتي منه .

(٢) خيرته : في العبارة إيجاز أى خيرته في أن يختار أحدهما

(٣) فقسمته : أى قسمت أحد القسمين .

فدخلتُ الحىَّ فألقيتُ الشيخَ ، والناسُ عنده . فقلتُ له : رأيتُ
غلاماً فى المنهلِ يرفعُ غُنيَّاتٍ ، وأسألكَ أن تبيعه . فقال : اشتريته
بعشرةً دنانير . فقلت : أنا آخذه بعشرين . فقال : إن لم أبعه ؟ قلتُ
أعطيك به ثلاثين ديناراً . فقال لمن حوَّله : أما تسمعون ما يقول ؟
وما يحملك على أن تبدلَ به هذا الثمن ؟ فقلت : جمع على ضالَّةٍ فقدَّرتُ
أن أعتقه ، وأبتاعَ الغنمَ [التي] ^(١) يراها له وأملكه إياها . فقال : قدَّرتُ
أن تفعلَ به هذا لفعلةٍ واحدةٍ من الجميلِ أولاكها ، ولنا فى كل يوم
منذ ملكناه حسنةً تقتضى أكثرَ مما نأتيه له ! وأنا أشهدُ الجماعةَ أنه
حرُّ لوجه الله ، وأن ما يراه له .

فانصرفتُ عن الشيخ ، وقد بلغ لى ما أملكه له .

*
* *

وقلتُ يوماً لأحمدَ بنِ محمدٍ المعروفِ بابنِ أبى عصمةَ كاتبِ
أحمدَ بنِ طُغان ^(٢) . (وكان لى صديقاً مصافياً) : قد كثرَ الناسُ

^(١) زدنا ما بين القوسين ليستقيم الكلام .

^(٢) يسمى فى بعض كتب التاريخ ابن قراطغان ، وهو من كبار قواد أحمد
ابن طولون . خرج حينما كان أميراً على الثغور على الأمير جيش بن نمارويه
لما ساءت سيرته .

فى إصابتك مع بن طغان^(١) . فقال : ما أخطئوا فى التكثير، وكان صاحبى سَمْحاً، ولقد أصابنى منه فى جهة واحدة ثلاثون ألف دينار، فسألتُه عن تلك الجهة . فقال :

كان لا يُمنِسك مالا ، ولا يعتَقِدُ ذخيرةً^(٢) ، فقال لى يوما : لم يُضْبَحْ فى حاصلِ درهم واحد فاستسلف لى شيئا أنفقَه . فضَيْتُ إلى منزلى فحملت إليه ألف دينار ، فلما وضعتها بين يديه ، فتح الكيس وقلب ما فيه ، فلما رأى الدنانير صحاحا جيدة . قال : ما هذه دنانير صيرَفِي^(٣) فبحياتى ممن أخذتها ! فقلت له : كانت عندى . فقال : ما ظننتُ هذا موضعَكَ^(٤) ، وسكت .

وكان له فى كل شهر ألف دينار نُزْلُ^(٥) بِفَحْتُهُ به عند استيجابه إياه . فقال لى : ما هذا ؟ قلتُ : النزلُ ، فقال : آقُض به دنانير الرجل

(١) إصابتك مع ابن طغان : فى نيلك مالا كثيرا وأنت فى صحبة ابن طغاز وخدمته .

(٢) لا يعتقد ذخيرة . لا يجمع مالا يدخره للحاجة .

(٣) ما هذه دنانير الخ : يظهر أن دنانير الصيارف كانت دائما ناقصة .

(٤) ما ظننت هذا الخ : أى ما كنت أظن أنك تستطيع تقديم هذا المقدار ، أو ما كنت أظن أن منزلتك منى تقتضى أن تقرضنى مالا . وقد تجاهل تجاهل العارف لأنه كان يعرف حقا أن المال مال كاتبه .

(٥) النزل : العطاء ، يريد راتباً من قبل السلطان .

ثم جئته به^(١) مرة أخرى بنزل الشهر الثاني فقال : اصْرِفْهُ إِلَى الرَّجُلِ .
قلت : قد قَضَيْتُهُ . فقال : اصْرِفْهُ إِلَيْهِ كَمَا أَمْرُكَ . فلم يَزَلْ يفعلُ بي
هذا حتَّى مضى ثلاثون شهراً حصَّلت فيها ثلاثين ألفَ دينار .

*
* *

حدَّثني هارونُ بنُ مَثْلُومٍ ، قال : حدَّثني ياسينُ بنُ زُرَّارَةَ ، قال :
كان ببعض أرياف مصر نصرانيٌّ من أهلها كثيرُ المالِ ،
فاشى النعمة ، سَمَحُ النفس ، وكانت له دارُ ضيافة وجرايات واسعة
على ذوى السِترِ بالقسْطِ . فهرب من المتوكل^(٢) رجلٌ كَنَى
عن اسمه^(٣) ، خطيرُ المنزلَةِ ، لميل^(٤) كان من المتصمِرِ إليه ، وتبرأ من

(١) به : الأولى حذف (به) هذه .

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن محمد هارون . وكان يلقب بالمتصمِر بالله ، ثم لقِبَ
في اليوم الثاني لبيعته بالمتوكل على الله . بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الواثق
في ذى الحجة سنة ٢٣٢ . وكان عمره اذ ذاك سبعا وعشرين سنة وأشهرًا . ومات
مقتولا سنة ٢٤٧ ، وكانت أيامه أحسن أيام الخلافة العباسية من استقامة الملك
وشمول الناس بالأمن والعدل ورفع الفتن التي نشأت من القول بخلق القرآن .

(٣) كنى عن اسمه : أى لم يذكر ياسين بن زُرَّارَةَ اسمه صريحا .

(٤) لميل : متعلق بهرب .

حاشيته ، وليس جبة صوف ، فاتتهى به المسير إلى مصر . فلها دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد يخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها ، فاتتهى به المسير إلى ضياع النصراني . فرأى منه رجلاً جميل الأمر ، وسأله النصراني عن حاله فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ما ظهر عليه . فغير هيئته ^(١) وفوض إليه شيئاً من أمره ، فأحكم ما أسند إليه واضطلع به ^(٢) ، ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره . وقام به أحسن قيام . فكان محل ^(٣) الرجل الهارب من النصراني يفضل كل ما ذهب له .

وورد على النصراني مستحثٌ بمحل مالٍ وجب عليه ، [وسأله] النصراني عن خبر الناس بالفُسطاط . فقال : ورد خبرُ قتل المُتوكل وتقلد المُتَّصر ، ووافى رسولُ من المُتَّصر في طلب رجل هرب في أيام

(١) فغير : أى النصراني . هيئته : أى زى الهارب الذى كان يدل على الفقر واختلال الحال .

(٢) فى الأصل فاحكه فيما أسند اليه . ويظهر أن العبارة تحريفاً .

(٣) فكان محل الخ : أى إن الرجل الهارب نال من المتلة والشأن عند النصراني ما يزيد على ما فقده ببغداد من أموال وضياع .

المتوكل يُعرفُ بفلان بن فلان ، ويُوْعزُّ إلى عُمَالِ مِصرَ والشَّامِ بأن
يتلقَّوه بالتَّكْرِيمَةِ والتَّوسِيعَةِ ، فيلْحَقَ أميرَ المؤمنين في حالِ تُشْبِهِ مُحَلَّه عنده .
فعدَلَ النَّصْرَانِيُّ بِالْمُسْتَحْتِّ إلى بعضِ مَنْ أُنْزِلَ عليه ^(١) . وخلا الهاربُ
بِالنَّصْرَانِيِّ فقال :

أَحْسَنَ اللَّهُ جِزَاءَكَ ! فقد أوليتَ غايةَ الجميلِ ، وأحتاجُ
إلى أن تأذَنَ لِي في دخولِ الفُسطاطِ . فقال : يا هذا إن
كنتَ استقصرتني فاحتكم في مالي ، فإنِّي لا أَرُدُّ أَمْرَكَ ، ولا أزلُ
عن حُكْمِكَ ، ولا تَتَأَنَّ عَنِّي . فقال له : أنا الرَّجُلُ الْمَطْلُوبُ بِالْفُسطاطِ
وقد خَلَقْتُ شَمَلًا ^(٢) بِجَمًّا ، ونعمةً واسعةً ، وإنما عدَلُ بي ^(٣)
الخوفُ على نفسي ، فقال له : يا سيِّدِي ! فالْمَالُ في يدِكَ ، وما
عندكَ من الدوابِّ فأنت أعرفُ به مِنِّي فاحتكم فيه . فأخذ بغِلا
وما صلَحَ لمثله ، وخرج النَّصْرَانِيُّ معه . وقَدَّم ^(٤) كُتَّابًا إلى عاملِ
^(١) فعَدَلَ النَّصْرَانِيُّ إلخ أي إن النَّصْرَانِي اتَّجِهَ بِالْمُسْتَحْتِّ إلى جماعة من عماله
ليَتَزَلَّ بينهم .

^(٢) شَمَلًا : شَتُونًا وأَهْلًا

^(٣) وإنما عدَلُ بي : أي عن أهلي ومالي .

^(٤) وقَدَّم : أي العَظِيمُ البَغْدَادِي يَقُولُ : إنه قبل سفره أرسل من المَكَانِ
الَّذِي هُوَ فِيهِ كُتَّابًا إلى عاملِ المَعُونَةِ .

المُعونة ^(١) من مُسْتَقَرِّهِ . فتلَقَّاه عاملُ المعونة في بعض طريقه
ووصَّاه ^(٢) وجميعَ العُمَّالِ بالنصرانيّ . وصار إلى الحضرة فأصدر إليهم
الكتبَ في الوصاية به ^(٣) إلى أن قَدِمَ بعضُ العُمَّالِ المتجِّرة ^(٤) . فتنبَّع
النصرانيّ ورام الزيادةَ عليه ^(٥) فخرج إلى بغداد .

قال لي هارونُ إنّ ياسيناً قال له : إنّ النصرانيّ حدّثه : أنه دخل
بغدادَ فلم يَرِ بها أوفى محلاً ؛ وأكثرَ قاصداً منه ^(٦) . ثم استأذنتُ
عليه ، وعنده جَمْعٌ كثيرٌ ، فخرجَ أكثرَ غلمانِه حتى استقبلوني ، فلما رآني

(١) عامل المعونة : رجل الشرطة .

(٢) ووصَّاه : أى وصَّى البغدادىَّ العظيمَ عاملَ المعونة .

(٣) فأصدر إليهم الخ : أى فأصدر العظيمَ البغدادىَّ إلى العمالِ الكتبَ بالوصاية
بالنصرانيّ .

(٤) العُمَّالُ المتجِّرة : الذين كانوا يتجرون بمناصبهم ، ويتخذونها أداة للعسف
وابتزاز الاموال .

(٥) رام الزيادة عليه : كان النصرانيّ ملتزماً بعض أراضى الدولة في مقابل مال
معين فأراد هذا العامل أن يزيد هذا المال ليخرج النصرانيّ من الالتزام .

(٦) منه : من العظيم البغدادىّ .

قام على رجله . ثم قال : مرحباً بأستاذي^(١) وكافلي والقائم بي حين
قعد الناس عني ! وأجلسني معه ، وأنكبَّ على ولده وشمله^(٢) ، وأنا
أتأمل مواقع الإحسان من الأحرار . وسألني عن حالي في ضياعي ،
فأخبرته خبرَ العامل ، وكان أخوه^(٣) في مجلسه ، فنظر إليه (من
كنى عنه^(٤)) وقال له كنتُ السببَ في تقليد أخيك ، فصار
أكبر سبب في مساعتي . فكتب من مجلسه كتاباً إليه بجلية
الخبر^(٥) وأنفذه . وأقتُ عنده حولا في أرغد عيشة وأعظم ترفه .
وورد على كتب أصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان
اعترض عليه في أمري ، وأخرج أمرُ السلطان في إسقاط أكثر
خراج ضياعي ، والاقتصار بي على يسير من مالها .

(١) الأستاذ : الرئيس في عرف هذا العهد .

(٢) أخوه : أخو ذلك العامل .

(٣) وأنكب على ولده الخ : أي نشطوا في إكرامي والحقاوة بي .

(٤) العبارة التي بين قوسين من كلام الراوي ياسين بن زرارة . وهي بيان
للضمير المستتر في "نظر" ، والمعنى فنظر إليه العظيم البغدادي الذي كنى النصراني
عنه ولم يصرح باسمه . وفي الأصل : (من تكأ عنده) .

(٥) بجلية الخبر : أي بوجوب الابتعاد عن التمرض للنصراني .

قال ياسين : فكتب النصراني ببغداد حجة^(١) أشهد فيها على نفسه
أن أسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسمّاها وحدّدها) لهذا الرجل
الذي كان هرب ، وصار بها إليه^(٢) . فقال له : قد سوّغك الله
هذه الضياع فإني أراك أحقّ بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من
ذلك . وقال له : عليك فيها عاداتٌ تُحسِّنُ ذِكْرَكَ ، وترُدُّ الأضغانَ
عنك ، ولستُ أقطعُها بقبض هذه الضياع عنك .

ورجع النصراني إلى القسّاط بخدّد الشهادة له فيها ، فلما توفّي
النصراني أقزها^(٣) في يد أقاربه ولم يزلوا معه بأفضل حال .

*
* *

(١) حجة : وثيقة تثبت حقاً أو ملكاً .

(٢) وصار بها إليه : وحل الحجة إليه .

(٣) أقزها : أقر العظيم البغدادى الضياع .

حدّثني أحمد بن أبي يعقوب عن أبيه . قال :

كان يحيى بن خالد بن برمك^(١) قد تبنّى الفضل بن سهل^(٢) ، وأجراه
مُجرى الولد ، ونظر إليه ولّدَه بعين الأخ لهم . فضمّه إلى المأمون^(٣) . وكان
يحيى بن خالد حسن المعرفة بالنجوم ، والفضل بارعاً فيها . فاتّفقا
على ما توجّه به النجوم في مُدد البرامكة ، وتبيّنا سعادةً تنتهي إليها حال
الفضل ، وكان كلّ واحد منهما كالشاهد لما انتهى إليه .

(١) يحيى البرمكي : هو أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك من
مجوس بلخ . وكان يحيى من النبل والعقل وخير الخلال على أكمل حال . وكان
المهديّ قد ضمّ إليه ولده هارون الرشيد وجعله في حجره . فلما استخلف هارون
عرف له فضله ، وولاه الأمر ، ودفع إليه خاتمه ، وجعل إصدار الأمور وإيرادها
إليه ، إلى أن نكب البرامكة ، فغضب عليه وخلّده في السجن إلى أن مات فيه .
(ابن خلّكان)

(٢) الفضل بن سهل : هو أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي ، أخو الحسن
ابن سهل . أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ووزر للمأمون وكان له نفوذ عنده . وكان
يلقب بذي الرياستين لأنه تقلّد الوزارة والسيف ، وكان يتشيع . ولما نقل أمره
على المأمون دسّ عليه غالباً المسعوديّ الأسود ، فدخل عليه الحمام بسرّخس ومعه
جماعة فقتلوه يوم الخميس ثاني شعبان سنة ٢٠٢ .
(ابن خلّكان)

(٣) المأمون — هو عبد الله بن هارون الرشيد ، ويكنى أبا جعفر ، وقيل
أبا العباس ، واسم أمّه مراجل . ولي الخلافة سنّته ثمان وعشرون سنة وشهران —
ومات سنة ٢١٨ — وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وكانت أيامه من خير الأيام
وأوسعها علماً وحضارة .
(مروج الذهب)

وأوقع الرشيد بالبرامكة فاعتصم الفضل بحمله من خدمة المأمون ،
وكانت يده تعجز عما يصلح يحيى وولده عند الرشيد . فوجه إليه :
ياسيدي ! قد كرتُ أمرُك ، ولست أصلُ إلى حُسن الدفاع عنك
فأحلّ^(١) ذمامه في هذه المحنة ، فإني أرجو أن أقضيه عنك عند انتهائي
إلى سعادتي .

قال ابن أبي يعقوب : فحدثني أحمد بن أبي خالد الأحول . قال :
اتصل بي من ضيق يحيى ما كدر عيشي . وذكرت إحسانه إليّ ،
وحسن صنيعه بي ، فضاق بي العريض . ووجدت ما أمليكه أربعة
آلاف دينار ، فقسمتها قسمين . وحملت أحدهما ، وتوصلت إلى
الدخول إليهم في محبسهم ، فوضعتها بين يدي يحيى بن خالد . فقال لي :
ليس يحسن بنا أن نغرّك من أنفسنا ، ولا أن نعدك عنا ما لا تنفي به
الأيام لك ، وقد انتهى أمرنا . فان كنت تُقدّر أن أحوالنا
تصلح فأمنسك عليك مالك . فقلت : ما ذهبتُ في ذلك إلا لقضاء
بعض الحق عني . فأخذ بيضاء فكتب فيها :

(١) فأحلّ ذمامه : حلّ أمر الله : وجب ، وأحلّ فلان الحق : أوجبه على نفسه .
فمعنى أحلّ ذمامه : أوجب على نفسي قضاء حق الدفاع عنك .

يا أبا العباس ! أيّدك الله ! هذا رجلٌ خلّص على تجربتنا ،
وأحسن بنا ، مع استحكام يأسه منا ، وأنا أذكرك العهد ، وأرغبُ
إليك في قضاء حقّه عني ، وتخفيف ثقله عليّ ، أحسن الله عونك ،
وكفاك ما أعجزك !

ثمّ ثناها وقطعها عَرْضاً قطعتين وقال لي : احفظ هذا النصف
معك ولا تُفَرِّط فيه فيفوتك حظٌ كبير .

ثم فرق ذلك المال في قومٍ ضعفت أحوالهم بما لحقه ، وأنصرفت
من عنده وقد آيسنى من رُجوع حاله ، وأعطاني نصف رُقعةٍ
لا أقف على ما توصل إليه . وتقضى أمرهم ، ومات الرشيد بطوس^(١) ،
وعُلب الفضل بن سهل على المأمون بخراسان ، وخلفه على
جميع أمره . وشجر الأمر بين الأمين والمأمون فظهر المأمون عليه .
وصحّت وزارة الفضل بن سهل للمأمون ، ووردت بادرة المأمون
بذلك إلى سائر النواحي ، وطالت عطلتي واشتدت فاقتي ، وفقدتُ
من كان يؤثّرني وينحاش^(٢) إلى .

(١) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ . فتحت في أيام
عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر علي بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد .

(٢) ينحاش إلى : في اللغة انحاش عنه : نفر ، فيكون معنى انحاش إليه :
مال وانحاز .

فأتى جالساً في منزلي في يوم قد أعوزني فيه قوتُ يومي ، وعلى
ثوبٍ خَلَقَ ، وليس لي إلا خِلْعَةٌ أركبُ فيها . حتى دخل إلى غلامي
فقال : بالباب جماعةٌ من أصحاب طاهر بن الحسين . فلبستُ ثياب
ركوبي ، وأذنتُ لهم وتقدمهم رئيسُ لهم تبيّنتُ إعظامي في نفسه .
فقال : الأميرُ طاهرُ يسألك المسيرَ إليه . فنهضتُ ، فلما دخلتُ
قدمني وأعظمني ، وقال : وردَ كتابُ الوزير (أيده الله) عليّ في حملك
إلى حضرته على حالٍ تَكْرِمَةٍ ، ومعك نصفُ الرُقعة التي دفعها إليك
يحيى بن خالد ، وأمرني بدفع ألفي دينارٍ إليك لحمولتك^(١) ومُخْلَفِكَ^(٢) .
فقويتُ نفسي ، وانفسح رجائي ، وخرجتُ بعد قبض المال مع
رسول طاهر . فلما دخلتُ إلى الفضل بن سهل ، لقيني بأجمل لقاء ،
وسألني عن نصف الرُقعة فأحضرتها . ثم أسرَّ إلى بعض خاصته
شيئاً ، فمضى وجاء برُقعة ، فوصلها بها فكملت^(٣) . فلما استتمَّ قراءتها
بكى . ثم قال : ” رَحِمَ الله أبا العباس ! فما كان أعرفه بتصرف الأيام

(١) حمولة : ما يحمل عليه المتاع من الدواب .

(٢) مُخْلَفِكَ : تعبير شائع في هذا العهد ، والمؤنَّف يستعمله كثيراً في هذا
الكتاب ، يراد به أولاد الرجل ومن يعولهم .

(٣) يظهر أن يحيى بعث قبل وفاته بنصف الرُقعة الذي به اسم أحمد الأحول
إلى الفضل بن سهل .

واستدعاء الشكر فيها ، والتَّحِيزُ من ^(١) الذَّمِّ بها ! ثم أدخلني إلى
المأمون وواكد أمرى عنده ، حتى بلغت معه إلى أخصِّ أحوال
كُتَّابِه ، ومن وثق به في مهمِّ أمره .

*
* *

وحدَّثني عليُّ المتطبِّبُ المعروفُ بالديدانِ (وكان حسنَ المعرفة
بكتب أفلاطون ^(٢) ورموزه ، ومبرزاً في الطبِّ) قال :

خرجتُ مع رجلٍ يُعرفُ بابنِ فروخ ^(٣) من قواد السلطان ^(٤) إلى طرسوس .
فغنمَ سبياً كثيراً . وكان السَّبْيُ في دارٍ خرابٍ في الموضع الذي نزل فيه .
فدخلت لتأمله . فوجدت في السبيِّ شاباً حسنَ الصورة جميلَ السمْتِ ،

(١) التحيز : التلوى ، ويتضمَّن معنى الابتعاد .

(٢) هو أفلاطون بن أرسطو أحد أساطين الحكمة الخمسة . صَنَّفَ كتباً كثيرة
في الحكمة والفلسفة . وكان لرغبته في العلم شديد الطلب له كثير الجِدِّ والبحث
منفقاً وقته وماله في تحصيل الكتب ، حتى إنه سافر إلى صقلية ثلاث مرات لاقتناء
الكتب . وتوفى في السنة التي ولد فيها الإسكندر ، وقد أخذ العلم عن سقراط وألف
كتباً كثيرة في الفلسفة ، وعنه أخذ أرسطو .

(٣) في الأصل : مروح بالميم . ولا يعلم قائد لابن طولون بهذا الاسم ، والمعروف
محمد بن فروخ ، كان أميراً على برقة من قبل ابن طولون .

(٤) السلطان : أحمد بن طولون .

وأكثر السبي حوله . ومكانه منهم مكان المولى من الممالك ، يتسرعون
إلى جميع ما أومأ إليه ، ويكفونه أخذه بنفسه ، فكلمت فيه بعض
السبي وسألته عنه ، فقال لى : هذا من ولد أفلاطون . فارتحت
إليه لانتفاعى بجده ، ودخلت إلى ابن فروخ فقلت : هب لى من
هذا السبي غلاماً ، فقال لى : خذه . فدعوت بغلام يشتمل على
أمرى^(١) ووصفت له الشاب الذى فى السبي ، وقلت له : إذا سلته
إليك غلام ابن فروخ فأطعمه مما أعددت من طعامى ، وألبسه
من فاجر ثيابى ، وطيبه ومكّنه من مجلسى إلى أن أنصرف إليكم .
وتشاغلت بأمر ابن فروخ إلى آخر النهار ، وانصرفت فوجدته على
الهيئة التى آثرتها ، ورام منى ما يفعله غلانى من الوقوف فمنعته
من ذلك . فقال لى بالرؤمىة : يا سيّدى ! ما الذى وعدتك به
نفسك عنى ؟ فان كان عندى بذلته لك وكنت حقيقاً به ، وإن لم يكن
لدى صدقتك عنه ، ولم أتعّم منك ما لا يشبهنى تغنمه^(٢) . فقلت له :
قد اقتبسنا من جدك أنواراً حسن بها أثره علينا ، ووجب علينا
بها وقايتك بأنفسنا . فقال : والله إن الطباع التى لأسلافنا معنا ،

(١) يشتمل على أمرى : يختص بخدمتى ويقوم بشئونى .

(٢) ولم أتعّم منك الخ : ولم أعتّم فرصة عنايتك بادعاء ما لا يليق بى .

ولكنّا شغلناها في رعي الخنازير . فبعُدْتُ بها مِّن قَرْبَتِيْ لهٗ ،
وأكرمتني بسببه .

فخَيَّرْتُهُ بَيْن الدَّخُول مَعِي إِلَى مِصْرَ ، عَلَى أَنْ أَشَاطِرَهُ مِلْكِي وَعَيْشِي ،
أَوْ أَحْتَالَ لَهُ فِي رَدِّهِ إِلَى بِلَدِهِ ، فَاخْتَارَ رَدَّهُ إِلَى بِلَدِهِ . فَلَطَّقْتُ لَهُ
بِإِنْفَازِ بَعْضٍ مِّنْ أَثَقُ بِهِ مَعَ الرِّسْلِ الْمُتَوَجِّهِينَ مَعَهُ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى
بِلَدِهِ .

*
* *

وكانت تَنْتَابُ^(١) عَجَائِزَنَا عَجُوزَ جَمِيلَةِ الْمَذْهَبِ^(٢) ، ضَعِيفَةُ الْحَالِ ، تُعْرِفُ
بِأُمِّ مُحَمَّدٍ . فَيَجْتَمِعْنَ عَلَى كُلِّ صَالِحَةٍ ، وَكُنْتُ أُخْصِفُهَا بِكُفَايَتِهَا .
فَلَمَّا دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ^(٣) مِصْرَ نَزَلَ فِي ظَاهِرِهَا . وَاسْتَدْعَى
الوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ مِنْ أَسْبَابِ الطُّولُونِيَّةِ^(٤) ، فَاسْتَصَفَى مَالَهُ

(١) تَنْتَابُ : تَأْتِي مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .

(٢) جَمِيلَةُ الْمَذْهَبِ : تَعْبِيرٌ مِنْ تَعْبِيرَاتِ هَذَا الْعَصْرِ ، يُرَادُ بِهِ حَسَنُ الْعَقِيدَةِ
وَالْوَصْفِ بِالتَّوْبَةِ .

(٣) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْكَاتِبِ . أَرْسَلَهُ الْخَلِيفَةُ الْمُكْتَفَى بِاللَّهِ الْعَبَّاسِيُّ لِفَتْحِ مِصْرَ ،
فَلَمَّا بَعْدَ قَتْلِ شَيْبَانَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونٍ سَنَةَ ٢٩٢ هِجْرِيَّةً . وَلَمْ تَطُلْ مَدَّتُهُ بِمِصْرَ
حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ الْمُكْتَفَى بِاللَّهِ بِوِلَايَةِ عَيْسَى بْنِ مُحَمَّدٍ النُّوْشَرِيِّ ، فَكَانَتْ
مُدَّةَ إِقَامَتِهِ بِمِصْرَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرَ . (النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ) .

(٤) أَسْبَابُ الطُّولُونِيَّةِ : عَمَّالُ الدَّوْلَةِ الطُّولُونِيَّةِ وَالْمُنْصَلُونَ بِهَا .

بالسَّوْطِ ، وعَظِيمُ الإِخَافَةِ . فَرَاغَنِي أَمْرُهُ ، وَخِفْتُ أَنْ يَلْحَقَنِي عَسْفُهُ . فَإِنِّي لَجَالِسٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَنَا خَائِفٌ ، حَتَّى دَخَلْتُ جَارِيَةَ أُمِّ مُحَمَّدٍ الْعَجُوزَ فَسَلَّمْتُ عَلَى ، فَظَنَنْتُهَا وَاللَّهِ تَقْتَضِي بَعْضَ مَا عَوَّدْتُهَا . فَقَالَتْ : سَيِّدَتِي أُمُّ مُحَمَّدٍ تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَتَقُولُ : جَاءَنِي السَّاعَةَ رَسُولُ ابْنِ عَمِّي وَسَيِّدِي أَبِي عَلِيٍّ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ يَسْأَلُ عَنِّي ، فَعَرَفْتُهُ أَتَى كُنْتُ فِي كِفَايَتِكَ ، وَالرَّسُولُ عَلَى الْبَابِ يُرِيقُ^(١) الْوَصُولَ إِلَيْكَ . فَقُلْتُ : يَدْخُلُ . فَدَخَلَ شَابٌّ حَسَنُ الصُّورَةِ يُعْرِفُ بِنَاشِيٍّ . فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَقَدْ وَصَفَنكَ ابْنَةُ عَمِّ سَيِّدِي بِمَا أَرْجُو أَنْ يَحْسُنَ أَثَرُهُ عَلَيْكَ . وَدَعَا بِأَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ^(٢) ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَمْنَعُوا مِنْ يَعْتَرِضُنِي^(٣) . فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ بَرًّا . فَقَالَ : وَأَيُّ بَرٍّ أَكْثَرُ مِمَّا أُتَيْتَهُ إِلَيْنَا ، وَانصَرَفَ عَنَّا . فَارْجَعَ إِلَى نَاشِيٍّ هَذَا بَرْقَعَةً بَخْطَ ابْنِ سُلَيْمَانَ : ”سَرُّ إِلَيْنَا لَنَنْظُرَ فِي أَمْرِكَ ،

(١) يْرِيقُ : يَرِيدُ .

(٢) دَعَا : أَى نَاشِيٍّ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِأَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ الْمُشْرِفِينَ عَلَى أَقْسَامِ الْمَدِينَةِ لِحِفْظِ الْأَمْنِ وَتَنْفِيزِ أَوَامِرِ السُّلْطَانِ . وَقَدْ تَسْتَعْمَلُ أَحْيَانًا بِمَعْنَى أَصْحَابِ الْبُيُوتِ جَمْعَ رِبْعٍ (بِفَتْحٍ وَسُكُونٍ) .

(٣) يَعْتَرِضُنِي : فِي الْأَصْلِ مِنْ تَعَرَّضُنِي .

وَنَبْلَغَ فِيهِ مَحَبَّتَكَ ، فَإِنِّي أُرْعَى لَكَ مُتَقَدِّمَ حُرْمَتِكَ ، وَوَكَيْدَ أَسْبَابِكَ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ” .

وَمَا لِحَقْنِي مِنْهُ شَيْءٌ أَكْرَهَهُ حَتَّى أَنْصَرِفَ عَنِ الْبَلَدِ .

*
* *

وَكَانَ أَبُو الْفَيَّاضِ سَوَّارُ بْنُ أَبِي شُرَاعَةَ الشَّاعِرُ صَدِيقًا لِي ،
وَمَائِلًا إِلَيَّ . فَلَمَّا اعْتَزَمَ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْعِرَاقِ سَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ
شَيْئًا مِنْ شِعْرِي ، فَكُتِبَتْ لَهُ مَقْدَارُ خَمْسِينَ وَرَقَةً مِنْهُ ، وَكَانَ يَسْتَحْسِنُهُ
وَيُعْجَبُ بِهِ ، فَصَارَ إِلَى بَغْدَادَ وَعَرْضَهُ عَلَى جَمَاعَةِ الْأَحْرَارِ (١) ،
وَأَحْسَنَ وَصَفِي لَهُمْ بِسَلَامَةِ مَذْهَبِهِ وَطَهَارَةِ نِيَّتِهِ .

وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ مِصْرَ وَقَدْ رَدَّ الْبَرِيدَ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ
أَحْمَدَ بْنِ صَالِحٍ (٢) فَسَأَلَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِيَّاهَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ ،

(١) أَعْلَهُ يَرِيدُ بِجَمَاعَةِ الْأَحْرَارِ : الْأَشْرَافَ وَسَادَةَ الْقَوْمِ .

(٢) أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ : كَانَ مِنْ بَطَانَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ .

فأحضر أحمد بن يوسف^(١) (كاتباً كان لأحمد بن وصيف^(٢) ولا بن
الخصاص^(٣) بعده) . فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا .
فقال لهم : ليس هذا الرجل الذى طلبت . فأحضرت ، فلما رآنى
استشرف إلى وقال : تعرف أبا الفياض ؟ فقلت : ذكرك الله وإياه
بكل صالحية ! نعم أعرفه وكان خللاً لى . فقال هل أنشدك من شعره :
ظلمنا بها نستنزل الدنّ صفوه * فينزّل أقباساً بغير هبيب

(١) فأحضر أحمد بن يوسف : أى شخص غير المؤلف اسمه أحمد بن يوسف ،
ثم وصف المؤلف أحمد هذا بأنه كان كاتباً لأحمد بن وصيف .

(٢) أبوه وصيف المملوك التركي صاحب الكلمة والنفوذ فى خلافة المستعين
بالله الذى يقول الشاعر فيه وفى بغا :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالاه كما تقول البغا

وكان أحمد بن وصيف مقبياً بدمشق نفاه إليها المهتدى ، فلما دخلها أحمد
ابن طولون انضم إليه هو وجماعة قواد ماجور .

(٣) هو الحسين بن عبد الله الجوهري ، كان تاجراً يبيع الجواهر ، وهو
الذى أعد جهاز قطر الندى بنت خمارويه ، وقد صادرة المقتدر وأخذ منه أموالاً
كثيرة ، وكان على عظم ثروته سليم الباطن غير حاد التفكير ، توفى سنة ٣١٥

قلت : لا يا سيدي ! ولكنني أنشدته إياه من شعري . فضحك
وقال : والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك .
وكان والله أفضل عون لي على أموري .

*
* *

وحدثني أحمد بن سقلاب^(١) . قال :

كان بمصر رجل من الفقهاء مشهور الاسم ، وله حلقة عظيمة
بالجامع . فبينما هو في صدرها إذ وافى علان بن المغيرة ، فلما رآه
مقبلاً نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لقيه . فأكثرت
الجماعة قيام شيخ مثله إلى حديث مثل علان وتحقيقه به وعرض
نفسه عليه ، وأنه لم يدع شيئاً يفعلهُ تابعٌ بمتبوع إلا بذله ، وأسررنا
الموجدة^(٢) عليه .

(١) لعله من أسرة سقلاب بن شنيعة المصري ، الذي كان زميلاً لورش ،
وهو الذي نقل معه قراءة نافع إلى مصر .

(٢) الموجدة : الغضب .

فلما قام علان ، قال لجماعتنا : ما اعلننى بما أضمرتم ! ولكنى
أريكم عذرى فيما خرجتُ إليه ^(١) :

كانت عندى ألف ^(٢) دينار وديعةً لرجل بالمغرب قد طال مقامها
وطالب زَوْج ابنتى بإدخال امرأته عليه . بخلست أمها بحضرتى
فقلت لى : ما الذى تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها :
نستعمل فيه التجوز ^(٣) . فقلت لى : لنا حسادٌ نخافُ شمائهم ،
ولا بد من أن تعيننى على التَّجْمُل . فقلت : إن كان ما تريدن فى قدرتى
لم أبخل به عليكم . قالت : هو فى قدرتك . قلت : ما هو ؟ قالت :
تمكنتى من هذه الوديعة ونحتاطُ فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل
إلينا ثمنه فى أى وقتٍ أردناه ^(٤) ، ونُدخلُ هذه الصبية على زوجها ،

(١) فيما خرجتُ إليه : أى عن المؤلف من شدة الحفاوة به .

(٢) الألف مذكر ، وقد يؤنث ، يقال ألف مؤلّفة ، وعلى هذا جرى المؤلف
فأنت الفعل وهو " كانت " .

(٣) نستعمل فيه التجوز : أى ندخلها على زوجها مع التقليل من نفقات العرس
والجهاز .

(٤) ونحتاط الخ : أى نشترى فى الجهاز الأشياء التى إذا أردنا بيعها فى أى
وقت استطعنا ذلك .

فإن جاء صاحبُ الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نُوَضِّعْ^(١) فيه إلَّا ما يسهلُ
 علينا غُرْمُهُ . قلت : هذا قبيحٌ عند الله وعند خلقه . فلم تزل تُلحُّ بي
 وتحتالُ علىَّ حتَّى أجبتها . فجهزتُ ابنتها بجميع المال وأدخلتها على
 زوجها . فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلَّا شهران حتَّى وافى صاحبُ الوديعة
 يطلبها . فقلت لها ما تفعلين ؟ فقالت : أمضى فأحملُ المتاعَ وأبيعهُ .
 فمضت إلى ابنتها ورجعتُ إلىَّ فقالت : لا تشغل نفسك بهذا المتاع ،
 فقد حلف زوجها بطلاقها إنه لا يخرجُ منه شيء عن منزله ! فسقطَ
 في يدي ، ورأيت الفضيحةَ في الدارين متصديةً لي . فوَضِّعَ إفطارى
 بين يديّ فلم أطمعْ ، واعترانى ما خفتُ منه على عقلى ، وبِتُّ بليلةٍ
 ما بِتُّ بمثلها ، وأنا أتبيّنُ سهولةَ ذلك على زوجتى فى جنب ما أحرزته
 لبنتها . ثم انتبهت قبل الفجر بمنازل^(٢) ، فصححت بالغلام : أسرج لي .
 فقام وأسرج وقال : ياسيِّدى ! أين تمضى ؟ فقلت : ليس لك
 الاعتراضُ علىَّ .

وركبْتُ وسرْتُ بطُوعِ عَنَانِي ، فلم يزل بغلى يسير حتى دخلتُ
 زُقاقَ عِلَّانَ بنِ المُغِيرَةِ . فوقفت على باب داره وصاح الغلام

(١) ولم نُوَضِّعْ : ولم نقلل من ثمنه الأصلي .

(٢) بمنازل : يريد بدرجات زمنية .

بالبواب وعرفه بموضعي . فسمعت حركة في داره ، ثم فتح الباب وأذن لي بالدخول ، فدخلت عليه ، فوجدت بين يديه شمعة ، وهو يكتب جوابات كُتِبَ وكُلاثه . فلما رآني قام إلى وقال لمن حضره من الغلمان : تَحَوَّا ، وأقبل على فقال : والله لو بعثت إلى لسرت إليك ولم أجشّمك السعي إلى ، فاشرح لي أمرك . فغلبتني العبرة ، وحالت بيني وبين الكلام ، فما زال يسكنني حتى نصصت له اتفاق ^(١) الوديعة ، وهو مغموم بأمرى . ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت ألف دينار ! فضحك ، وقال : فرجت والله عني ! ما توسمت أني أملكها . فكان الغم يقع بها ، فأما وهي في القدرة فما أسهلها علي ، وأخفها لدي ! ثم قال لغلّامه : جئني بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر ، بخاء بأربع صرار فنظر فيما عليها وجمعه وقال : هذه ألف دينار وخمسمائة دينار : ألف للوديعة ، وخمسمائة تُصلح بها ما بينك وبين من عندك . ثم قال لي : متى أشكر ^(٢) إفراذك إياي بعد الله (عز وجل ذكره) بتأميلي في حادثة

(١) اتفاق الوديعة : أي ما اتفق وحصل لها ، ويجوز أنها محرفة عن إنفاق .

(٢) متى أشكر الخ : أي لا أستطيع في أي وقت أن أشكر الخ .

حدثت عليك فأعاني الله على مكافأتك ! وأضاف إلى من خفرتني
إلى منزلي .

فقلت الجماعة : قد سمعنا عذرَكَ ، وعلينا عهدُ الله إنْ لَقِينَاهُ^(١)
أبدًا إلَّا قِيَامًا .

*
* *

وبعث أحمدُ بنُ طولون في الساعة التي توفِّي فيها يُوسُفُ
ابنُ إبراهيمَ والذى بخديم . فهجموا الدار^(٢) ، وطالبوا بكتبه مقدِّرين أن
يجدوا فيها كتاباً من ببغداد . فحملوا صُندوقين ، وقبضوا على وعلى
أنحى ، وصاروا بنا إلى داره ، وأدخِلنا إليه ، وهو فيها جالس ، وبين
يديه رجل من أشرف الطالبين . فأمر بفتح أحد الصُندوقين
وأدخل خادمٌ [يده] فوق^(٣) دَفْتَرِ جَرَايَته على الأشرف وغيرهم .
فأخذ الدفتر بيده وتصفَّحه ، وكان جيِّدَ الاستخراج^(٤) ، فوجد اسمَ
الطالب في الجراية ، فقال له ، وأنا أسمع : كانت عليك جراية ليوسف
ابن إبراهيم ؟ فقال له : نعم : يأيها الأمير ! دخلتُ هذا البلد وأنا

(١) أن لقيناه : ما لقيناه .

(٢) هجموا الدار : المألوف هجموا على الدار .

(٣) فوق دفتراخ : فاتفق أن وقع في يده دفتر .

(٤) جيِّد الاستخراج : يحسن فهم الأوضاع الحسابية وطرق استخراج النتائج منها .

مُتْلَقٌ ، فَأَجْرَى عَلَى فِي كُلِّ سَنَةٍ مَائَتِي دِينَارٍ وَمَائَتِي إِرْدَبٍّ قَمِيحٍ أَسْوَدَ
بَابَنِي الْأَرْقَطِ وَالْعَقِيقِيَّ وَغَيْرَهُمَا . ثُمَّ مُتْنَتْ ^(١) يَدَايَ بَطُولِ الْأَمِيرِ
فَاسْتَعْفَيْتُهُ مِنْهَا . فَقَالَ لِي : نَشَدْتُكَ اللَّهُ إِنْ ^(٢) قَطَعْتَ سَبِيلاً لِي
بِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) . وَتَدَمَّعَ ^(٣) الطَّالِبِيُّ .
فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ : ” يَرْحَمُ اللَّهُ يُوسُفَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ ! “ ثُمَّ قَالَ لَنَا
انْصَرَفُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ ! فَانْصَرَفْنَا فَلَا حَقَّ قَنَا جَنَازَةً وَالدُّنَا ،
وَحَضَرْنَا الْعَلَوِيَّ ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَكَافَاةَ الدُّنَا فِي مُخْلَفِيهِ ^(٤) .

*
* *

وَحَدَّثَنِي مَوْمَى بْنُ مُصْلِحٍ . قَالَ : أَنْفَذَ إِلَى حَسَنِ
ابْنِ مُهَاجِرٍ ^(٥) كَاتِبُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ عَشْرَةَ رِجَالٍ مِنَ التُّجَّارِ ،

(١) مُتْنَتْ : قَوِيَتْ وَصَلَبَتْ . وَفِي الْأَصْلِ : امْتَنَنْتَ وَيُمْكِنُ تَوْجِيهَهَا عَلَى تَكْلُفٍ .

(٢) إِنْ قَطَعْتَ : مَا قَطَعْتَ .

(٣) لَمْ نَعْمَرْ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ فِي الْمَعْجَمَاتِ .

(٤) مُخْلَفِيهِ : أَوْلَادِهِ .

(٥) كَانَ كَاتِبًا لِحُسَيْنِ الْخَادِمِ . وَلَمَّا غَضِبَ ابْنُ طُولُونَ عَلَى ابْنِ مَفْضَلِ
كَاتِبِهِ اسْتَعْدَمَهُ فِي كِتَابَتِهِ . وَقَدْ وَلَدَ حَسَنٌ هَذَا بِالرَّقَّةِ . وَكَانَ وَالِدُهُ يَتَوَكَّلُ لِحُسَيْنِ
الْخَادِمِ فِي ضِيَاعِ هُنَاكَ . ثُمَّ كَانَ أَنَّ حَمْدَ حُسَيْنِ الْخَادِمِ أَمَرَ حَسَنَ هَذَا فَضَمَّهُ
إِلَيْهِ وَتَوَلَّى تَنْشِئَتَهُ وَبَقِيَ مَعَهُ إِلَى أَنْ اسْتَعْدَمَهُ ابْنُ طُولُونَ عَلَى الْبَرِيدِ ، وَلَمْ يَنْكُرْ مِنْهُ
ابْنُ طُولُونَ إِلَّا شِدَّتَهُ عَلَى النَّاسِ لِيَحْظِيَ بِذَلِكَ عِنْدَهُ ، وَبَقِيَ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى مَاتَ .

وقال اعتقلهم بمعزل عن المسجونين حتى أعرضهم في غد على الأمير ، فتسللت منه قوما تشهد لهم القلوب بالفضل . فأنست وحشتهم ، وفسحت رجاءهم . فقالوا لى : قد شكرنا جميل صنيعك ، ولنا إليك حاجة . قلت : ما هى ؟ قالوا : فينا فتى يضعف قلبه عن لقاء الأمير فتقبل منا بدلاً به ، ولك علينا مائة دينار . قلت : أنا أفعل إن وجدتم من يجيب إلى هذا - وكان عندى أنه كالمتنع - فأخذ شيخ منهم رُفعةً وكتب فيها إلى رجل كان قد أولاه عارفة ، فسأله ذلك ، فأجابه الرجل : إني بإثر رُفعتى .

قال موسى : فتوهمت أن هذا قول لائمة له ، فلم أشعربه حتى وافى . فقال : ما أنحرنى عنك إلا أتى جددت وصية ، وأحكمت ما خفت أن يقطعنى عنه ما دعوتنى إليه . وقال : لست أجيبك إلى ما التمت حتى تكون المائة الدينار من عندى دون جماعتكم ، وأنرجها من كمه ودفعها إلى ، وصرفت الرجل ، وأقام هذا مكانه ، فلم أتين منه غماً بهذا ولا قلقاً له . وظلوا ليلتهم يحدثون ويتناشدون ، والسلامة غالباً على خواطرهم ، حتى أصبحوا وأنرجهم حسن بن مهاجر ، فعرضهم

على أحمد بن طولون . فتيّن تحامله عليهم . فأمره بترك التعرّض لهم
فانصرفوا ، وكانت أظافهم تردّ علىّ حتى فقدتهم .

*
* *

وحدثني أحمد بن أيمن^(١) كاتب أحمد بن طولون . قال :
دخلت بالبصرة إلى تاجر — ذهب عني اسمها — فرأيت بين يديه ابنين له

(١) نكبه أحمد بن طولون بعد أن كان له حظوة عنده ، وكان سبب نكبه
ما حكاه عن نفسه فيما رواه البلوى صاحب سيرة ابن طولون قال :

كان لأحمد بن طولون ساع يسعى بالكّاب والمعاملين إليه يعرف بأبي ذؤيب ،
فاجتمعنا يوما عند أحمد ابن طولون ، فقال أحمد لكثير المغنى : أنا أشتى صوتا
ما سمعته منذ خرجت من سر من رأى ، فقال له : وما هو أيها الأمير ؟ فقال :

ألا سقيتم بنى حزم أسيركم ! * نفسى فداؤك ، من ذى غلة صادى

فقال له : ما أعرفه ياسيدى ، فقلت أنا أحسنه ، ففرح بذلك ، فاندفعت ، فطرب
أحمد بن طولون طربا شديدا حتى صفق بيديه ، فحملنى بخف الطرب إلى أن قت
فرقصت على إيعاع اللحن ، فزاد سرور أحمد بن طولون ، وغمرنى على أبي ذؤيب أن
أسقط عليه فترالقت على البساط ، وألقيت نفسى عليه فأخذىكى ، فصاح عليه ابن طولون ،
فقال له : لم يوجعنى ما وقع على من جسمه ، وإنما آلمنى ما على ظهره من البدر التى
اختانها وحصلها من مال الأمير ، فقال له أحمد بن طولون : أمسك وارفع هذا إلى
الصحرى . فما مضت إلا مديدة حتى قبض على أحمد بن طولون وحسنى وأخذ
جميع ما كان لى ، وما خرجت من حبسه إلا بعد وفاته . اه بإيجاز .

في نهاية من النظافة . فلما رآني أقبل بنظري إليهما . قال لي :
أحب أن تعودَهما ، ففعلت . وقلت له : استجذت الأمَّ فحسن نسلك !
فقال : ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحب إلى منها ، ولها معي خبرٌ
عجيب ، فسألته أن يُحدثنيهِ .

فقال :

كنت أنزل الأبلَّةَ ^(١) وأنا متعيش ^(٢) ، فحملت منها تجارة
إلى البصرة ^(٣) فربحت ، وحملت من البصرة إلى الأبلَّة فربحت .
ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر حتى كثر مالي ، وتعلم
الناس إقبالي ^(٤) ، وآثرت السكنى بالبصرة ، وعلمت أنه لا يحسن بي
المقام بها بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلٌ قدراً من جدِّ هذين
الغلامين . وكانت له بنتٌ قد عَضَلَهَا ^(٥) وتعرض لعداوة خطَّابها .

(١) الأبلَّة : (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطئ دجلة
أقدم من البصرة .

(٢) متعيش : متاجر يعيش بالقليل الذي يربحه .

(٣) البصرة : ثغر على شط العرب على نحو مائة ميل من مصبه ، ولها تجارة
عظيمة مع بغداد ، ويؤمها كثير من السفن التجارية الآتية من الخليج الفارسي .

(٤) إقبالي : حسن حظي .

(٥) عضلها : حال دون زواجها .

فَخَدَّثَنِي نَفْسِي بِلِقَائِهِ فِيهَا ، فِجَنَّتِهِ عَلَى خَلْوَةٍ . وَقُلْتُ لَهُ : يَا عَمَّ ! أَنَا
فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ التَّاجِرُ . فَقَالَ : مَا خَفِيَ عَنِّي مَحَلُّكَ وَمَحَلُّ أَبِيكَ .
فَقُلْتُ : قَدْ جِئْتُكَ خَاطِباً لِابْنَتِكَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا بِي عَنْكَ رَغْبَةٌ ،
وَلَقَدْ خَطَبَهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ وَجُوهِ الْبَصْرَةِ وَمَا أَحْبَبْتُهُمْ ، وَإِنِّي لَكَارُهُ
مِنْ إِخْرَاجِهَا عَنْ حِضْنِي إِلَى مَنْ يُقَوِّمُهَا تَقْوِيمَ الْعَبِيدِ ^(١) . فَقُلْتُ :
قَدْ رَفَعَهَا اللَّهُ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي عَدَدِكَ
وَتُخَلِّطَنِي بِشَمْلِكَ ^(٢) . فَقَالَ : وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا ؟ قُلْتُ : لَا بُدَّ ،
وَهُوَ زَائِدٌ فِي فَضْلِكَ عَلَى وَاصْطِنَاعِكَ إِيَّايَ . فَقَالَ :

أَغْدُ عَلَى بَرَجَالِكَ . فَانْصَرَفَتْ عَنْهُ إِلَى مَلَأٍّ مِنَ التُّجَّارِ ذَوِي أَخْطَارٍ ،
فَسَأَلْتُهُمُ الْحَاضِرَ مَعِيَ فِي غَدٍ ، فَقَالُوا : إِنَّكَ لَتَحْرُكُنَا إِلَى سَعْيٍ ضَائِعٍ .
قُلْتُ : لَا بُدَّ مِنْ رُكُوبِكُمْ مَعِيَ . فَرَكِبُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ يَرُدُّهُمْ ، وَغَدَوْنَا
عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ الْإِجَابَةَ ، وَزَوَّجَنِي وَأَطْعَمَ الْقَوْمَ وَنَحَرَ لَهُمْ وَأَنْصَرَفُوا .

(١) وَإِنِّي لَكَارُهُ الْخ : بِقَوْلٍ : إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَقْدَّرَ قِيمَتُهَا عَلَى الْأَسْوَاسِ الَّتِي
تَقْدَّرُ بِهَا الْعَبِيدُ مِنْ جَمَالِ الْوَجْهِ وَحَسَنِ الْهَيْئَةِ .

(٢) بِشَمْلِكَ : بِأَهْلِكَ .

ثم قال لى : إن شئت أن تبیت بأهلك فافعل ، فليس لها ما یحتاج إلى التلوم^(١) علیه . فقلت : هذا یاسیدی ما أحبه . فلم یزل یحدثنی بكل حسن حتى كانت المغرب فصلاها بی ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، إلى أن كانت العتمة فصلاها بی ، وأخذ بیدي فأدخلنی إلى دار قد فرشت بأحسن فرشاة ، بها خدم وجوار فی نهاية من النظافة ، فما استقرّ بی الجلوس حتى نهض . وقال : استودعك الله ، وقدم الله لکما الخیر ، وأحرز التوفیق !

واكتفتنی عجائز من شمله ، بخلون ابنته علی . فما تأملت طائلاً^(٢) وأرخت^(٣) الستورعلینا . فقالت : یاسیدی ! إنی سر من أسرار والدى کتمه عن سائر الناس ، وأفضی به إلیک ورآک أهلاً^(٤) لستره علیه ، فلا تخفّر^(٥) ظنه فیک^(٦) . ولو کان الذی یطلب من الزوجة حسن صورتها

(١) التلوم : التلث .

(٢) فما تأملت الخ : أى فما رأیت شيئاً له فضل أو مزیة ، یرید أنها كانت خلوا من الجمال .

(٣) أرخت : الضمیر الفاعل یعود علی العجائز .

(٤) أهلاً : فی الأصل : أصلاً .

(٥) تخفّر : تنقض وتخلف .

(٦) فیک : فی الأصل : فیه .

دون حسن تديرها وعفافها العظمتِ نحتي . وأرجو أن يكون معي منهما
أكثر مما قصر بي^(١) في حسن الصورة . ثم وثبت بجاءت بمالٍ في كيس .
فقلت : ياسيدى ! قد أحلَّ الله لك معي ثلاثَ حرائرَ وما أثرته من
الإماء ، وقد سوغتُك^(٢) تزوجَ^(٣) الثلاثَ وابتاعَ الجوارى من مال
هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولستُ أطلبُ منك
إلا سترى فقط .

فقال لى أحمد : خلف لى التاجر إنها ملكت قلبي ملكا لم تصل إليه
حسنة^(٤) بحسنها . فقلتُ لها : جزاء ما قدمته ما تسمعيه منى : والله
لا أصبتُ^(٥) من غيرك أبداً ، ولا جعلتك حظى من دنياى فيما يؤثره
الرجل من المرأة ! وكانت أشفق النساء وأضبطهن وأحسنهن^(٦) تديراً
فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينتُ وقوعَ الخيرة^(٧) فى ذلك ، ولحقتنى السنُّ

(١) قصر بي : لم يوصلنى إلى الغاية .

(٢) سوغتك : فى الأصل : سوغك .

(٣) تزوج : فى الأصل : تزويج .

(٤) حسنة : أى امرأة حسنة .

(٥) أصبت : مفعول أصبت محذوف أى حاجة أو غرضاً .

(٦) فى الأصل : وأضبطهم وأحسنهم .

(٧) الخيرة : حسن الاختيار .

فصارت حاجتي إلى الصواب أكثر وشكر الله لي
تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقني منها هذين الابنين
الرائعين لك . ونحن منقطعون إلى جوده فينا ، وإحسانه إلينا .

*
* *

حدثني أحمد بن أبي يعقوب قال :

أنكر المهدي^(١) على هرثمة بن أعين^(٢) تحككه بمعين بن زائدة^(٣) ،
وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى ، فكلّمه الرشيد فيه واستلّ سخيّمته

(١) المهديّ : هو محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، ويكنى
أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن سهم بن أبي مرج من
ولد ذي رعين من ملوك حمير . ولد سنة ١٢٧ هـ وولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ
وكانت وفاته سنة ١٦٧ هـ

(٢) هرثمة بن أعين أحد أمراء الرشيد وخواص قواده . كان شجاعا مقداما
مهيّبا ، فولاه مصر سنة ١٧٨ هـ ولم تطل مدّة ولايته فقد عزله الرشيد بعد
شهرين ونصف شهر لأنه كان يندبه للهمات الجسام . وأرسله إلى المغرب وبقى على
المغرب سنتين ونصف سنة وكانت وفاته سنة ٢٠٠ هـ .

(٣) هو أبو الوليد معن بن زائدة . كان جوادا شجاعا جزيلا العطاء . وكان
مروان بن أبي حفصة الشاعر خصيصا به ، وأكثر مدائمه فيه ، وكان معن أيام
بني أمية متقلّا في الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقيين .
ولما آل الأمر إلى العباسيين وقتل يزيد تتبعه المنصور ثم عثر به وصفح عنه وجعله
من خواصه ، ثم ولى سجستان . فلما كانت سنة ٢٥٨ هـ اندس بعض الخوارج بين
صناع يعملون داره وقتلوه .

عليه^(١) ومات مَعْنُ وزادت حَالُ هَرَمَةٍ ، وشكر للرشيـد ما كان منه ، وأفضت الخلافةُ إلى موسى الهادي^(٢) . فتمكّن منه هَرَمَةٌ ، وحدثت الهادي نفسهُ بَجَلْعِ الرشيـد وجمع الناسِ على تقليد ابنه العهدَ بعده ، وعلم بهذا هَرَمَةٌ ، وتذكّر عارفة الرشيـد قمارض .

وجمع الهادي الناسَ ودعاهم إلى خَلْعِ الرشيـد ونَصْبِ ابنه مكانه ، فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هَرَمَةٌ . فقالوا^(٣) له : تباع يا هَرَمَةٌ ! فقال : يا أمير المؤمنين يميني مشغولةٌ ببيعتك ، ويساري مشغولةٌ ببيعة أخيك ! فبأي يدٍ أباع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكّدت^(٤) في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكّده أبوك لأخيك في بيعته . ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى ، ولولا تأوّل هذه الجماعة بأنها مكرهة ، وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت لأمنسكت عن هذا .

(١) استلّ سخيّمته عليه : أزال ما في نفسه من الحقد والغضب عليه .

(٢) الهادي هو أبو جعفر موسى بن محمد الهادي . بويع له بالخلافة سنة ١٦٩ وكانت سنه أربعاً وعشرين سنة وأشهرًا . وتوفي سنة ١٧٠ . وكان موسى قاسياً . وكان مع هذا كثير الأدب محباً له شجاعاً سخياً .

(٣) فقالوا له : أي قال له أنصار الهادي .

(٤) ينفي "بلا" في المستقبل ، وقد أدخلها على الماضي هنا لأن النفي لا يقتصر على الماضي ، ولكنه يمتد للمستقبل أيضاً .

فقال لجماعة مَنْ حَضَرَ: "شاهت" ^(١) وجوهكم ! والله لقد صدقني
مولاي وكذبتموني ، ونصحتني وغششتُموني !
وسلمَ إلى الرشيد ما قدره ^(٢) الهادي فيه .

*
* *

وسمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ والدي . يقول :
لم يتمكّن أحدٌ من أحدٍ تمكّنَ أبي يوسف القاضي ^(٣) من الرشيد .
ولقد سألتُ إبراهيمَ بنَ المهديّ عن السبب في ذلك . فقال كان
يستحقُّ هذا منه لما حدّثني به مسرور الكبير ^(٤) قال :

(١) شاهت وجوهكم : قبحت وجوهكم .

(٢) ما قدره الهادي فيه : أي سلمت ولاية العهد للرشيد التي كان الهادي
قد نوى وقرر خلعها منها .

(٣) أبو يوسف القاضي : هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد ، لزم
أبا حنيفة فتفقه عليه وغلّب عليه الرأي ، وكان المهديّ صيره مع ابنه موسى وهو
ولى عهده ، وقد تولى قضاء بغداد للرشيد إلى أن مات سنة ١٨٢ في خلافة هارون .

(٤) هو أبو هاشم مسرور الخادم . وهو الذي وجهه الرشيد مع هرثمة بن أعين
للفزو في الصائفة وولّاه النفقات وجميع أمور العسكر في هذا الجيش ، ما خلا
الرياسة فانها كانت لهرثمة .

كنت في خدمة المهديّ وكان الرشيد حفيّاً^(١) بي ، محسناً إليّ ،
فلما انتقل أمر الخلافة إلى الهادي . قال لي الرشيد : إنّ أنحى قوى
الشراسة وأنا أخاف إيقاعه بي ، وجمع الناس على بيعته ابنه بعده .
وأنا على غاية من الثقة بك ، فأعدّل^(٢) إليه ، وكن لي عيناً عليه .
فتقدّمت عند الهادي حتى تولّيت ستر بيت خلوته . وكان المهديّ
قد قرّن أبا يوسف بالهادي فتمكّن منه ، وقيل في مهماته مشورته ،
فلما حلاً بقلبه^(٣) شاوره في ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ! لا تحمل
نفسك على قطيعة رحمك ، وأولياءك على الحنث بإيمانهم ،
وأستدع من الله زيادته بما يرضيه عنك ! فتوقّف بعض
التوقّف . وسعّى إليه بالرشيد ، وقيل له إنّّه [عامل] على أن
يغتالك ، فدعا بأبي يوسف وأخبره بما تأدّى إليه . فقال :
يا أمير المؤمنين ! لا تسمع هذا ، وأنا الضامن لك حسن طاعته ،
ووكيد موالاته . فكنت أنهي جميع ذلك إلى الرشيد فيشتد سروره به ،
ويرغب إلى الله في معونته على مكافأته .

(١) حفيّاً : كثير العناية والاهتمام .

(٢) فاعدل إليه : فل إليه واعمل على التقرب منه .

(٣) حلاً بقلبه : أحبه .

فلما أفضت الخلافة إليه دعا به وقال له : يا يعقوب ! لو جاز
لى إدخالك فى نسبي ، ومشاركتك فى الخلافة المفضية إلیّ ،
لكنت حقيقاً به . ألسن القائل لأنى وقت كذا : كذا . فقال :
يا أمير المؤمنين ! من أنباك بهذا ؟ فوالله ما كان معنا ثالث .
فضحك الرشيد وقال : مسرور كان يتولى ستر بيت خلوته ، وكان
ينهى إلیّ جميع ما صدر عنه .

قال مسرور : فوالله ما برحت بى عناية أبى يوسف حتى بلغت
مع الرشيد هذا المبلغ .

*
* *

وحدثنى أحمد بن أبى غمران الفقيه أن ابن النجى^(١) حدثه
أن بشراً المريسي^(٢) (وكان متزهداً) قال :

(١) هو عبد الله بن أبى شجاع كان فقيه العراق فى وقته ، وكان من أصحاب
الحسن بن زياد اللؤلؤى ، وكان مولده سنة ١٨١ ، وتوفى سنة ٢٦٦ هجرية (الأنساب
للسمعانى) .

(٢) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسيّ مولى زيد
ابن الخطاب . كان أبوه يهودياً يسكن بغداد . وتفقه على القاضى أبى يوسف ،
وبرع فى علوم كثيرة ، وتوفى سنة ٢١٨ هجرية .

ما اشتبهتُ من مراتب السلطان إلا مرتبةً رأيتُ أبا يوسف بلغها .
 في عَشِيَّةٍ من العشايا كنتُ اجتزتُ به مُسَلِّماً عليه ، فقال لي : تُقِيمُ
 عندى العَشِيَّةَ لتتناظر في طائفة من العلم . فإني لجالسٌ عنده ، وقد ابتدأ
 فيما آثرناه ، حتَّى وائى إليه رسولُ أمير المؤمنين الرشيد . فقال لي :
 انتظرني . ومضى فغاب عني مقدار ساعتين ورجع ، وخلفه غلمانٌ يحملون
 مالا ، فوضعوه بين يديه وانصرفوا . فقال : دُفِعَتْ الليلةُ إلى عجائب .
 قلتُ : ما هي ؟ قال : دخلتُ إلى دار أمير المؤمنين فاتتهى بي رسوله
 إلى سِتْرِ مُسَبِّلٍ على بابٍ مسرورٍ الكبير يُمَسِّكُهُ . فقال لي : سلمْ على
 أمير المؤمنين . فسَلَّمْتُ . فقال : وعليك [السلام] يا يعقوب ،
 أَدْخُلْ وَحَدِّك ، فَرَفَعَ السِتْرَ حتَّى دَخَلْتُ . فَأَلْفَيْتُ عنده مجد بن
 جعفر بن المنصور مولى الجارية المعروفة ببذل^(١) ، ووجهُ كلِّ واحد
 منهما مُحَوَّلٌ عن صاحبه . وبين يدي الرشيد سيفٌ مشهور .

(١) بذل : كانت مولدة من مولدات المدينة ، وربيت بالبصرة ، وكانت
 جميلة ظريفة . وكانت أحسن الناس غناء في دهرها . رغب في التزوج بها وجوه
 القواد والكتاب فابت ، وأقامت على حالها حتَّى ماتت .

فقال لى : يا يعقوب هذا الرجل يُديرنى ^(١) مُذِ الظُّهْرِ على قَتْلِهِ .
فقال ^(٢) له : تَرْضَى بِهِ حَكْمًا بَيْنَنَا ؟ قال : نعم . قال : أَلَيْهِ هَذَا
السِّيفُ عَنْ يَدِكَ ، وَأَرْضَ بِالْحَقِّ لَكَ وَعَلَيْكَ . واستدارا جميعا حتَّى
جلسا مَجْلِسَ الْخُصُومِ بَيْنَ يَدَيَّ . ثم قال الرجل : سَأَلْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
أَنْ أُبِيعَهُ جَارِيَةً عَلَى فِيهَا أَيْمَانٌ مُخْرِجَةٌ لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا أُبِيعَهَا وَلَا
أَهْبَهَا . قال ، فقلتُ له : فَتَسْمَحُ بِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنْخَرَجْتُكَ
مِنْ يَمِينِكَ ؟ قال إِي وَاللَّهِ ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَسَهْلٌ عَلَى ! فقلت : هَبْ
لِي نَصْفَهَا ، وَبِعْهُ نَصْفَهَا . فقال : قَدْ أَجَبْتُ ، وَجَعَلْتُ ثَمَنَ النِّصْفِ
هَدِيَّةً لَكَ . وتعانقا جميعاً ، وانصرفتا إِلَيْكَ وَلِحِقْنِي هَذَا الْمَالُ .

فوجدنا الْمَالَ الْمَحْمُولَ خَمْسَةً وَعَشْرِينَ أَلْفًا . فقلتُ فِي نَفْسِي :
أَحْيَا نَفْسًا ، وَأَصْلَحَ بَيْنَ خَلِيفَةٍ وَابْنِ عَمِّهِ فِي مَقْدَارِ سَاعَتَيْنِ مِنَ النَّهَارِ .
قال بِشْرُ : فَوَاللَّهِ مَا فَرَعْنَا مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ حَتَّى ابْتَدَرْنَا الْغُلَامَانِ يَحْمِلُونَ
مَالًا وَبَزًّا وَطِيبًا ، وَمَعَهُمْ جَارِيَةٌ حَصِيفَةٌ . فقالت : تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامُ

(١) يُدِيرْنِي : يُوَجِّهْنِي ، يَهْدِي .

(٢) فقال له : قال محمد بن جعفر للرَّشِيدِ .

سَيِّدَتِي وَقُولُ لَكَ : أَجَازَنِي سَيِّدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا حَمَلْتَهُ إِلَيْكَ
بِفَعْلَتِهِ ثَوَابَ الْفُتَيَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ وَصُولِي إِلَيْهِ . فَكَانَ الْمَالُ مِنْهُ
خَمْسَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا .

*
* *

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو يَعْقُوبَ
عَنْ جَدِّي وَاضِحٍ مَوْلَى الْمَنْصُورِ ^(١) . قَالَ :

كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ وَقَدْ أَحْضَرَ رَجُلًا كَانَ مِنْ رِجَالِ هِشَامِ بْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَهُوَ يَسْأَلُهُ عَنْ سِيرَةِ هِشَامٍ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُعْجِبُ الْمَنْصُورَ . فَكَانَ
الرَّجُلُ يَتَرَحَّمُ عِنْدَ كُلِّ جَارٍ مِنْ ذِكْرِهِ ، فَأَحْفَظُ ^(٢) ذَلِكَ جَمَاعَتَنَا .
فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ ^(٣) : كَمْ تَتَرَحَّمُ عَلَى عَدُوِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَالَ الرَّجُلُ

(١) الْخَلِيفَةُ الْمَنْصُورُ : هُوَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ سَنَةَ ١٣٦ هَجْرِيَّةً وَهُوَ ابْنُ
أَحَدِي وَأَرْبَعِينَ سَنَةً . وَكَانَ مَوْلَدُهُ سَنَةَ ٩٥ هَجْرِيَّةً فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ الْحَجَّاجُ .
وَكَانَتْ أُمُّهُ أُمٌ وَلِدَ يَقَالُ لَهَا سَلَامَةُ بَرْبَرِيَّةٍ . وَكَانَتْ وَفَاتَهُ سَنَةَ ١٥٨ هَجْرِيَّةً .

(٢) أَحْفَظُ : أَغْضَبُ .

(٣) هُوَ الرَّبِيعُ بْنُ يُونُسَ ، مِنْ مَوَالِي بَنِي الْعَبَّاسِ ، اتَّخَذَهُ الْمَنْصُورُ حَاجِبًا ثُمَّ
اسْتَوَزَرَهُ ، وَكَانَ مَهِيْبًا مُحْسِنًا لِإِدَارَةِ الشُّؤْنِ . عَاشَ إِلَى خِلَافَةِ الْمُهَدِيِّ وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٦٩

للربيع : مجلسُ أمير المؤمنين (أيده الله) أحقُّ المجالس بشكر
المحسن ، ومجازاة المُجمل ، ولهشام في عنق قلادة لا ينزعها إلا غاسلي .
فقال له المنصور : وما هذه القلادة ؟ قال : قلّدتني في حياته ،
وأغنانني عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : أحسنتَ بآرك الله
عليك ! وبحسنِ المكافأة تُستحقُّ الصّنائع ، وتزكو العوارف ، ثم
أدخله في خاصّته .

*
* *

وقد مثّل بعضُ الفلاسفة : لحسنِ المكافأة بحسام الصيقل^(١)
الذي يحدث له وقوعُ الشمس عليه أنبعاث شعاعٍ منه يجلو غياهب
الأمكنة المظلمة ، ويكونُ وفورُ شعاعه على حسب صقالته .

وقال أفلاطون : من حسنت مكافأته^(٢) لم تغضبه خبيته فيما
التمسه ، لأنه يُقيم العوارف^(٣) مُقام ديون يُحمّلها لا يسعه إغفالُ

(١) حسام الصيقل : الصيقل شحاذ السيوف وجلأؤها ، وإنما خصّ حسام
الصيقل لأنه يواليه بالصقل والجلأ .

(٢) من حسنت مكافأته : من كان من طبعه أن يحسن المكافأة على ما أدى
إليه من صنيع .

(٣) العوارف : جمع عارفة ، المعروف والمكرمة .

قضاؤها . وإثما يغضبُ من المنع^(١) : من أثر تحصيل العارفة ،
وإغفال المكافأة عليها . ولأنَّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى
مُطالعة^(٢) حُسن المكافأة للإحسان فيثابِرُ عليه ، وسوء المكافأة
على الإساءة فيتأخّرُ عنه ، كان الراغب محتاجاً إلى أن يكون
في خَلده^(٣) من أخبارِ مَنْ أساء الصَّنِيعَ فسَاءت مكافأته ، ما يوازي
ما أثبتناه من حُسن المكافأة للإحسان^(٤) .

(١) المنع : منع الناس معروفهم عنه .

(٢) مطالعة : تصوّر .

(٣) خَلده : باله ونفسه .

(٤) يقول على كليٍّ من المرغوب في إحسانه وطالب الإحسان أن يذكرنا حسن
المكافأة على الفعل الحسن ، وسوء المكافأة على الفعل القبيح ، حتى يكون ذلك
حافزاً للأول على المتابعة على الإحسان ، ودافعاً للثاني على إنباة من يحسن إليه .

المكافأة على القبيح

حدثني أحمد بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده مولى عبد الله بن المقفع^(١) أن عبد الله حدثه . قال :

كان فيما ترجمته من سير الفرس ، أن فيروز^(٢) لما تقلد مملكة فارس حدثه نفسه باجتياز بلد الهياطلة^(٣) . وكان به

(١) هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد فحول البلاغة . وكان من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب . وكان أبوه المقفع يعمل في جباية الخراج لولاة العراق من قبل بني أمية . وولده ابنه هذا حوالي سنة ١٠٦ هجرية . ولما ذاع فضله استكتبه في عصر بني أمية داود بن يوسف بن هبيرة . ثم كتب في عصر بني العباس لعيسى بن علي عم المنصور في أثناء ولايته على كرمان . وعلى يديه أسلم وتسمى (عبد الله) ثم اتصل بالمنصور ثم قتل بالبصرة سنة ١٤٢

(٢) هو فيروز بن يزدجرد بن بهرام آل إليه الملك بعد قتله أخاه هرمز . وبقى فيروز ملكا إلى أن هلك على يد ملك الهياطلة بمرو الروز من بلاد خراسان . وكانت مدة ملكه سبعا وعشرين سنة .

(٣) بلاد الهياطلة اسم لبلاد ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وما بينهما . وفي تاريخ أئى الفداء : أن سبب محاربة فيروز لملك الهياطلة أن فيروز خطب ابنته فلم يجبه .

للهياطلة ملكٌ صحيحُ الرأى ، حَسَنُ الجوار ، بجمع ذوى الرأى
 فى بلده وسألمهم عما يرون ، فعرضوا عليه أموالهم والخروج معه
 بجزاهم خيراً^(١) وانصرفوا .

وخلا به وزيره (وكان على السن) . فقال له : أيها الملك !
 إنَّ يسيرَ الحيلة ربما بلغ أوفى منازل المكافأة ، والذى
 عندى من الرأى أن تُظهرَ السُّخْطَ عَلَى فتقطعَ يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ وَتَنفِئَنِي
 إلى أقاصى عَمَلِك ، وتكتبَ إلى عاملِكَ هناك فى حبسى ، وتُظهرَ
 أَنَّكَ تَبَيَّنْتَ مِنِّي مَيْلاً إلى فيروزَ فقال له : إنَّ حُسْنَ الحيلةِ إِنَّمَا يَقَعُ
 بغيرِ إضرارٍ يلحقُ صاحبها^(٢) ، وإذا بلغنا بك هذا فقد جاوزنا بك
 ماتخافه من فيروزَ لو حَصَلَتْ فى يده .

فقال : أنا مُد تكامل تمييزى أحسبُ مالى وعلى ، فاذا وَهَبْتُ لى
 نعمةً علمتُ أَنَّ علىَّ فيها مِحنةً ، وأنَّ الرغائبَ بالنوائب ، وقد
 عِشْتُ فى سلطانِكَ أيها الملكُ فى هذه السنِّ العاليةِ عزيزَ الجانب ،
 خَصِيبَ الأَفْنِيَةِ ، وَشَمَلِي فى نهايةٍ من رَفَاغَةِ العيش^(٣) وليس من

(١) جزاهم خيراً : قال لهم جزيتم خيراً .

(٢) أَنْتُ الضمير العائد على حسن الحيلة باعتبار المضاف إليه .

(٣) رفاغة العيش : سعته وخصبه .

الجميل أن أمسك عن قضاء حق النعمة على لسلطاني وشملى وأهلى
وولدى ، وصياتهم مما عداهم بنفسى . وأعلم أنى لو خدمت^(١)
السلامة لنفسى لمات ذكرى بموتى ، ولم أبق شرفاً لأهلى ، ولعل
أجلى قريب فأفوز بحسن الذكر فيما أتيت ، وقضيت به حق سوائف
الإنعام على ، والإحسان إلى . وإنما اعتمدت^(٢) هذا الأمر الفظيع
لأعدل بفكر فيروز عن الحيلة^(٣) ، وأضطره إلى السكون إلى .
فلما رأى أنه لا يرجع عما أشار به عليه ، دعا به وقطع يديه ورجليه ،
ونفاه إلى آخر مسالحه^(٤) فكان محبوساً هناك .

وجد فيروز في سفره فوافى الموضع الذى فيه الوزير فوجده خالياً
ممن كان فيه ، ولم يره غير رجل مقطوع اليدين والرجلين ؛ فسأله
عن حاله فقال : كنت وزيراً لهذا الخائن ؛ فاستشارنى فأشرت عليه
ألا يباهضك ، وأن يسألك إقراره فى البلد ، وحمل نحره إليك ،
فاستشاط وسولت له نفسه منأوتك . وقد جمع جيشاً له كثير العدد

(١) خدمت : يريد راعيت ولعلها محرفة عن قدمت

(٢) اعتمدت : قصدت .

(٣) لأعدل بفكر الخ : لأبعد عن فكره أنى أحتال عليه للإيقاع به

(٤) مسالحه : جمع مسلحة ، وهى المكان من المملكة المحصن بالسلاح .

قَوَى النِّكَايَةَ ، وَقَدَّرَ أَنْ يَلْقَاكَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ . وَعِنْدِي حِيلَةٌ أَجَازِيهِ بِهَا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِ .

وَاسْتَجَلَى فَيُرْوِزُ الْوَزِيرَ فَقَالَ لَهُ : إِنْ عَدَلْتَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَتَجَشَّمْتَ قَطْعَ بَرِّيَّةٍ يُقِيمُ السَّائِرُ فِيهَا يَوْمَيْنِ ، تَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ الْمَاءِ إِلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْهَا ، ثُمَّ تُفْضِي إِلَى مِيَاهِ مَتَدَفِّقَةٍ . فَإِذَا قَطَعْتَهَا وَصَلْتَ إِلَى بَلَدِ الْهِيَاطَلَةِ ، وَهُوَ وَجْمَعُهُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي آثَرَ سُلُوكَهَا ^(١) ، فَتَدْخُلُ الْبَلَدَ بَغِيرِ حَرْبٍ .

حَمَلْتَهُ الْأَسْتِنَامَةَ إِلَيْهِ بِمَا رَأَاهُ عَلَى تَصَدِيقِهِ ، وَلِحَاجٍ ^(٢) فِي الْبَرِّيَّةِ بِجَمِيعِ جَيْشِهِ (وَقَدْ كَانَ وَاطِئاً [الْوَزِيرَ] الْمَلِكَ عَلَى تَكْمِينِ جَمْعٍ لَهُ آتَرَ فِي الْبَرِّيَّةِ) . فَسَارَ يَوْمَهُ وَبَعْضَ غَدِهِ فِي قَفَرٍ لَا يَوْجَدُ بِهِ مَاءٌ وَلَا تَبْتُ ، فَتَسَاقَطَتِ الدَّوَابُّ ، مِنَ الْعَطَشِ ، وَافْتَرَقَ الْجَيْشُ لَطَلَبِ الْإِخْلَاصِ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ مَنَسَرٌ ^(٣) مِنْ جَيْشِ الْهِيَاطَلَةِ ، فَأَبْرَأُوا عَلَيْهِمْ ^(٤) ،

(١) وهو وجعه الخ: أى بينما يكون هو وجمعه في الطريق التي نهيتك عن السير فيها والتي كنت تريد سلوكها .

(٢) لحج : دخل .

(٣) منسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير .

(٤) أبرأوا عليهم : زادوا عليهم وفاقوهم في القوة . وفي الأصل : فاثروا عليهم ، وهو تحريف .

وأخذوا فيروزَ أسيراً ، فنَّ عليه ملكُ الهياطلة بالإمساك عن قتله ،
وجمع وجوهَ بلده ، وأضاف إليهم وجوهاً من عسكر فيروزَ ، واستحلفَ
فيروزَ بحضرتهم أنَّه لا يجاوزُ حجراً جعله فضلاً مُشتركا بينه وبينه .
وأثبتَ المفارقة^(١) في صحيفة بخطِّ فيروزَ وأشهدَ عليه الجماعةُ ، وأطلقه
على غاية من التبجيل والإكرام .

فدخلت فيروزَ نخلةً من رجوعه إلى مملكته بعد أسر ملك
الهياطلة له وتعييره^(٢) به ، وحدثته نفسه بمعاودة قتاله . فخرج إليه
وسوّلت له نفسه أنَّه إن حمل الحجرَ حتى يدخل به بلدَ الهياطلة لم يحنث
في يمينه . فحملَه بين يديه وسارَ بجمعٍ كثيرٍ ، وخرجَ إليه ملكُ الهياطلة
فالتقيا في منتصفِ طريقَهما ، فلما تراءى الجمعانِ انفرد ملكُ الهياطلة
عن جمعه ، وسألَ فيروزَ موازاته ليسمعَ منه شيئاً . فبرزَ فيروزُ . فقال له :
أنا وإياك في قبضة من حنثت في اليمين به ، وهو (عزَّ وجلَّ) يشكرُ

(١) وأثبت المفارقة : أى الاتفاق الذى فارق كل منهما صاحبه عليه .

(٢) فى الأصل : تمعيه ، ويمكن توجيهها بتكلف . يقال معرت وجهه إذا
غيرته غيظاً .

لإحسان إحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته ، وقد أنعمت عليك ،
واحسنت إليك ، وأنا أخوفك الله وأحذرُكَ سَطَوَاتِهِ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ
أَنَّ حَيَاءَكَ مِمَّا جَرَى عَلَيْكَ هُوَ الَّذِي رَدَّكَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
استحيائك من الله (عزَّ وجلَّ) أَشَدَّ مِنْ أَسْتِحْيَائِكَ مِنْ خَلْقِهِ .
وليس يُخْرِجُكَ مِنْ يَمِينِكَ حَمْلُ هَذَا الْحَجَرَيْنِ يَدَيْكَ ، لِأَنَّ الْيَمِينَ
تَكُونُ عَلَى نِيَّةِ الْمُسْتَخْلِفِ لَا عَلَى نِيَّةِ الْمُسْتَخْلَفِ ، فَتَدَبَّرْ قَوْلِي ، وَأَعْلَمُ
أَنَّ مَنْ سَمِعَكَ ^(١) مِنْ أَصْحَابِي عَلَى غَايَةِ مِنَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ فِي نَصْرِهِ ، وَمَنْ
سَمِعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى ذُنُوبٍ مِنْ أَنْ تَهْلِكَ بِحُوبِكَ ^(٢) فَقَالَ لَهُ : لَسْتُ
أَرْجِعُ عَنْ قِتَالِكَ .

فَأَمَرَ أَنْ تُرَكَّبَ الصَّحِيفَةُ عَلَى أَطْوَلِ رِمَحٍ فِي الْعِسْكَرِ ، وَحُمِّلَ عَلَيْهِ
فَهَزَمَ جَيْشُ فَيْرُوزَ وَقُتِلَ فَيْرُوزُ فِي الْمَعْرَكَةِ ^(٣) .

*
* *

(١) من سمعك : أى وأنت تقسم اليمين .

(٢) الحوب : الاثم .

(٣) قالوا : إنه تردى مع بعض جماعته في خندق حفره الهياطلة وغطوه
فمات .

وسَمِعْتُ أبا جعفرٍ مُحَمَّدَ بْنَ هَرِثَمَةَ . يقول :

كان مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتُ ^(١) يسعى على المتوكل في أيام الواثق ^(٢)
ويُحَرِّضُهُ عليه . فتَغَيَّرَتْ عليه نَبَتُهُ حتى أَدَّاهُ ذلك إلى حبسه عند مُحَمَّدِ
ابنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَسَمِعْتُ المتوكل يقول (في اليوم الذي تقدَّم في إدخاله إلى التنوير
الحديد) : لم يَمْنِ أَحَدٌ بِمِثْلِ ما مُنِيتُ به من ابنِ الزِّيَّاتِ ! ضَيَّقَ
على مُحِبِّيهِ ، ومنعني مما اقتَضَيْتَنِيه عادتي . وكنتُ قد رَبَيْتُ وَفَرَةً ^(٣)
فلم يُطْلَقِ [لى] تَنْظِيفُهَا ، فَكَثُرَتْ الدَوَابُّ فيها . وتأدَّى ذلك إلى

^(١) هو أبو جعفر مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ أَبَانَ بْنِ حمزة المعروف بابنِ الزِّيَّاتِ
وزير المعتصم . وكان جدُّه أَبَانَ من قرية يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه
إلى بغداد . واستوزر المعتصم ابنِ الزِّيَّاتِ بعد ما علم فضله وحزمه وبسط يده . وكان
مع الكتابة شاعرا . ولما مات المعتصم وولى الواثق أقره على ما كان عليه . ثم لما
ولى المتوكل كان في نفسه منه شيء ، وأغراه به أحمد بن أبي دؤاد فقبض عليه
واستصفى أمواله ، ثم وضعه في التنور فمات ، وذلك سنة ٢٣٣ هجرية .

^(٢) الواثق : هو هارون الواثق بالله بن أبي إسحاق . بويع له بالخلافة يوم قبض
أبوه . وأمه قراطيس أمة . وتوفى الواثق سنة ٢٣٢ هجرية وكانت خلافته خمس سنين
وتسعة أشهر وأياما .

^(٣) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

والدتي ؛ فكتبت إلى الواثق رُقعةً . فقال لمحمد بن عبد الملك :
 أَطْلِقْ لَجَعْفَرِ طَمْ^(١) شَعْرَهُ ؛ وَتَنْظِيفَ ثَوْبِهِ وَتَطْيِيبَهُ . فَانصَرَفَ كَالْمَغِیْظِ
 وَضَرَبَ الْمُوَكَّلَ بِي ؛ وَقَالَ : تَرَكْتَ مُحِبِّسَ جَعْفَرٍ شَارِعًا^(٢) مِنْ الشَّوَارِعِ
 حَتَّى سَهَلَ شَكْوَى أُمِّهِ ! ثُمَّ أَمَرَ بِإِخْرَاجِي فَوَجَدْتُ أُمَارَاتِ
 الْغَضَبِ فِي وَجْهِهِ . فَوَقَفْتُ سَاعَةً لَا يَرْفَعُ فِيهَا وَجْهَهُ إِلَى .
 ثُمَّ قَالَ : نِطْعُ^(٣) . فَأَوْهَمَنِي أَنَّ الْوَاثِقَ أَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِي ، فَبَسِطَ بَيْنَ
 يَدَيْهِ : ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى الْغُلْمَانِ بِإِدْخَالِي فِيهِ^(٤) وَلَمْ أَشُكَّ فِي الْقَتْلِ ، ثُمَّ قَالَ :
 الْحِجَامَ . فَقُلْتُ أَظُنُّهُ يَخْلَعُ أَضْرَاسِي قَبْلَ قَتْلِي ، وَأَنَا فِي سَائِرِ هَذَا قَائِمٌ ؛
 فَلَمَّا وَافَى الْحِجَامَ . قَالَ أَحْلِقِ شَعْرَهُ . فَأَجْلَسَنِي بِحَاقِ شَعْرِي . فَالَيْتُ
 عَلَى نَفْسِي إِنِّي لَا اسْتَبَقَيْتُهُ لِحَظَةً إِنْ ظَفَرْتُ بِالْخِلَافَةِ ، فَمَاتَ مُحَمَّدُ
 ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالتَّنُورِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ .

*
 * *

(١) طَمْ شَعْرَهُ : جَزَّ شَعْرَهُ .

(٢) شَارِعًا : مَسْلُوكًا يَدْخُلُهُ مِنْ يَشَاءُ وَيَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ يَشَاءُ .

(٣) نِطْعُ : بَسَاطٌ مِنَ الْأَدِيمِ كَانَ يَفْرَشُ لِمَنْ يَرَادُ قَتْلُهُ لِيَسْقُطَ عَلَيْهِ الدَّمُ .

(٤) بِإِدْخَالِي فِيهِ : يَقْصِدُ وَقُوفِي عَلَيْهِ أَوْ جُلُوسِي عَلَيْهِ . وَهُوَ تَعْبِيرٌ غَرِيبٌ .

وحدثني نسيم "خادم أحمد بن طولون" قال :

صار إلى ابن سليمان بن ثابت . (وكان سليمان^(١) هذا يكتب لخادم يُعرف بشقير^(٢) يتقلد الطراز^(٣) من خديم السلطان ؛ ثم عمل سليمان بعد ذلك لأحمد بن طولون على أملاكه) ومعه رُقعة . فقال توصلها لي إلى الأمير ، فقرأتها فكان يذكر فيها أن شقيراً أودع أباه أربعاًة ألف دينار . فلما قرأها الأمير قال : انظر ماتقول^(٤) وأصدقني عنه . فقال الأمر والله على ما وصفته لأمير ! فقال : أمسك عن هذا ، وأطو مجيئك إلى عن أبيك وعن سائر الناس ، وانصرف مكلوئاً .

فقال : فكثرت عجبتي من إمساكه عن ذكر هذا لأبيه ، فلم يَمُضْ حَوْلٌ حتى مات سليمان بن ثابت ، فأظهر^(٥) غمّاً به وتَفَجَّعاً عليه . ثم دعا

(١) وكان سليمان : في الأصل وكان ابن سليمان وهو تحريف بالزيادة .

(٢) شقير : شقير هذا غير شقير الخادم صاحب البريد أيام ابن طولون الذي تأمر مع ابن مدبر على الوشاية للخليفة بابن طولون فأحضره ابن طولون لجلده فأخذه الزعر فسات في يومه .

(٣) الطراز : الثياب الجيدة وكانت لها إدارة لضبط مايرد منها للسلطان ومايرسل منها إلى دار الخلافة وغيرها .

(٤) انظر ماتقول : أي تأمل جسامة التهمة التي تلقيناها على أبيك .

(٥) فأظهر : أي أحمد بن طولون .

بأبنة الرافع للرقعة ؛ فردَّ إليه ما كان بيد أبيه من أملاكه ، وضمَّ إليه من الرجال من تقوى به يده ؛ وأقام به ^(١) شهورا ، ثم دعاه ، وأنا قائم بين يديه ، فقال له : كيف حالك مع مخلفي أبيك ؟ وهل أنكرت شيئا منهم ؟ فقال : قد أعزَّ الله جاني بالأمير ومنع مني . ^(٢) فقال له : احمل إلى الأربعمائة ألف التي عندكم لشقيز الخادم ، فلجلج ^(٣) . فردَّ أمره إلى أحمد بن إسماعيل بن عمار ^(٤) ، وأمره بمطالبته بالسوط ، فضربه خمسين سوطا ، واصطفى ^(٥) ما كان له ، فلم يجد عنده بعض ما تقوله على أبيه ، وعاود مطالبته فضربه مرة أخرى فمات .

(١) وقام به شهورا : في سيرة ابن طولون للبلوي : وتركه شهرا .

(٢) منع مني : قواني وحصنني .

(٣) فلجلج : تردد في الكلام ، وفي السيرة للبلوي : فتلجلج .

(٤) هو المعروف بسبع شعرات : قدم إلى أحمد بن طولون من الشام فقلده الأملاك وماخرج عن الخراج ، وصرف به الحسن بن سليمان بن ثابت . وكان أحمد بن إسماعيل قد أشار على ابن طولون بمشورة فلم يعمل بها فبسط لسانه فيه على جهة الإشفاق عليه ، وقال : ليس هو ممن تمتاز في الرياسة ، وفيه لحاج لا يؤمن عليه منه . فبلغ ذلك ابن طولون فحبسه في المطبق حتى مات .

(٥) اصطفى : هنا بمعنى أخذ .

فقال لى : فعجبتُ من هلاكه بهذا المقدار^(١) من الضرب . فأخبرتُ
أنّ هذا المضروب كان يستزيرُ الفرواسدَ من النساءِ فى وفورِ حاله ، فزارته
أمرأةٌ كانت ربيطةً^(٢) للجلاد بالسوط ، وعلمَ الجلادُ بذلك فبكرَ إليه
ووقفَ له ، حتى إذا خرجَ انكبَّ على نَحْذِهِ وقبَّله^(٣) . ثم قال : ياسيدى ؟
قد أغناك الله بِمَسَاقَتِي^(٤) بما بسطه من الرزق عليك ، وظَاهَرَهُ^(٥)
من الإحسان لديك ، وكانت مهجتي عندك البارحة ، فإن رأيتَ أن
تهبها لى فلك منها عَوْضٌ وليس لى عنها معدلٌ ! فصاح فى وجهه
وأمر بإبعاده . فلما شُدَّ بالعقابينِ^(٦) تقدَّمَ الجلادُ فضربه ضربَ القتل
فأتى على نفسه .

*
* *

(١) بهذا المقدار : أى اليسير .

(٢) ربيطة : الربيط الملازم ، والمراد كانت صاحبة للجلاد ملازمة .

(٣) نحذه : المعروف أن الفخذ مؤنثة .

(٤) بمسأقتى : الباء بمعنى عن .

(٥) وظاهره : قواه وكثره .

(٦) العقابان : خشبتان يشدّ بينهما الرجل ويضرب ويعذب .

وحدّثني نسيمُ الخادمُ أيضًا :

أنَّ أحمدَ بنَ طولون كان مدعورًا من نُحروج أبي عبد الرحمن العمريّ ،
فوافاه الخبرُ بقتلِ غلبانِ أبي عبدِ الرحمنِ إِيَّاه ، وانتشار أمرِه ^(١) .

ثم صار إليه جماعةٌ تُقاربُ العَشْرَةَ ومعهم رأسٌ . فقالوا : نحن
غلبانُ العمريّ ، وهذا رأسُه . فجمع الخاصَّ والعامَّ وأدخلهم
إليه ، واستحضر قوماً استأمنوا إليه ^(٢) ، فسألهم عن الرأسِ .
فأجمعوا على أنّه رأسُ أبي عبدِ الرحمن ، وأنَّ الغلبان من خاصّته .

فقال أحمدُ بن طولون لهم : هل كان مُسيئًا إليكم ؟ قالوا : لا واللهِ
ولقد كان محسنًا إلينا ، ومُفضلاً علينا ! قال : فما حَمَلَكُم على قتله ؟
قالوا : طلبنا الحُظُوةَ عندك ، والمكانةَ منك . فقال : قتلتم مولاكم
المحسنَ إليكم بالتطَرُّفِ ^(٣) إلى المزيد !

(١) انتشار أمره : تفرّق قوته .

(٢) استحضر قوماً الخ : في السيرة للبلوى : فدعا بجماعة من أهل الصعيد ممن
يعرف العمريّ .

(٣) التطرّف : في الأصل أن ترى الماشية أطراف النبت ، وأطلق على تجاوز
الحد في الرأي أو العمل ، أى قتلتم سيّدكم بسبب مجاوزة الحد في طلب المزيد ،
وفي الأصل التطرّب .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ فَشَقَّ عَنْ جَمَاعَتِهِمْ ^(١) ، وَأَخَذَتْهُمْ السَّيَاطُ حَتَّى
سَقَطُوا ، وَضُرِبُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالشَّادُوخِ ^(٢) حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا ، وَأَمَرَ
بَدْفِنِ رَأْسِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

*
* *

وَسَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ عَلَى بَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاضِي يُحَدِّثُ . قَالَ :
كَانَتْ لِي بِوَاسِطَةِ حِصَّةٍ أُودِيَ عَنْهَا إِلَى السُّلْطَانِ نَجْرًا .
فَقَدِمَ عَلَيْنَا عَامِلٌ قَدْ جُمِعَ ^(٣) مِنَ الظُّلْمِ ، وَسُوءِ التَّسْلُطِ ، وَفُظَاظَةِ
الطَّبْعِ . فَجَمَعَ الْمُعَامِلِينَ بِأَسْرِهِمْ عَلَى التَّحِيلِ لَهُ بِمَا لَا يُوصَلُ إِلَيْهِ ^(٤)
مِنْ أَمْلاكَهُمْ ، وَلَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ . فَضَرَبَ قَوْمًا ، وَاسْتَخَفَّ

(١) فَشَقَّ عَنْ جَمَاعَتِهِمْ ، أَيْ فَشَقَّتِ الثِّيَابُ عَنْهُمْ ، إِيَّاهُ تَعْبِيرُ مَأْلُوفٍ
فِي هَذَا الْمَهْدِ .

(٢) الشَّادُوخُ : يُظْهِرُ أَنَّهُ اسْمُ آلَةٍ لِلضَّرْبِ وَالتَّعْذِيبِ ، وَالشَّدَخُ : الْكَسْرُ .

(٣) جَمَعَ : كُنُونٌ وَخِلَاقٌ .

(٤) عَلَى التَّحِيلِ لَهُ الْخُ : أَيْ عَلَى الْإِحْتِيَالِ عَلَى مَرْضَاتِهِ بِإِعْطَائِهِ الْأَشْيَاءَ
وَالْأَمْوَالَ الَّتِي كَانَتْ لَا يَسْتَطَاعُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا .

بأنحرين . فقال له رجل ممن حضر : إن رأيت أن تؤخرني إلى نصف
النهار ! فقال له : لعلك ممن يقول إن من عمود إلى عمود فرجاً !
فقال له الرجل : أنا والله أعتقد أن من لحظة إلى لحظة فرجاً يُرجى
من الله . فتضاحك من كلامه .

فوالله ما مضت ساعة حتى دخلت إلينا في الموضع الذي كان فيه
رَعْلَةٌ ^(١) من الخوارج ^(٢) وهي تقول : السُّلَيْطِينَ السُّلَيْطِينَ ^(٣) !
فقطّعتنه بأسياها وخرّجته ، ولم تقتل غيره ، ولا طلبت شيئاً
لأحد . فعلت أنهم عقوبةً اعتمدته ^(٤) .

*
* *

(١) رَعْلَةٌ : قطعة من الخيل .

(٢) الخوارج ؛ جمع خارج أو خارجي ، وهم جماعة خرجوا على نظم الحكومة
في الإسلام فلا يوافقون على حكومة حاكم أو خلافة إمام . وقد كانوا يطلقون
في هذا العهد اسم الخوارج أيضاً على القرامطة ، الذين ظهروا بسواد الكوفة
سنة ٢٧٨ ، واشتد أمرهم سنة ٢٩٠ ، واستمرت شرورهم إلى نحو سنة ٣٢٠

(٣) السُّلَيْطِينَ : التصغير للتحقير .

(٤) اعتمدته : قصدهته .

وحدثني عمر بن يزيد البرقي (وكان جميل المذهب^(١)) . قال :

حضرت مُصَدِّقا^(٢) شديد الاستحلال ، بعيداً من الرأفة ،
وهو جالس على رابية وبين يديه حواء^(٣) يحتاز به ما يحصل له
من الإبل .

قال : فَعَرِضْتُ نَعْمَ رَجُلٍ حَسَنِ الطَّرِيقَةِ ، متعلِّم^(٤) بعفاف
الطَّعْمَةِ . فتخيَّر^(٥) عليه المَصْدُقُ ما آحتازه من إبله ، وأستعمل من
سوء التحكُّم عليه ما لا يصبر عليه غيره ، فأمسك^(٦) . ثم نظر بعد

(١) وكان جميل المذهب : متديناً حسن العقيدة .

(٢) مصدقا : المصدق جامع الصدقات (الزكاة) .

(٣) حواء : الحواء : المكان الذي يحوى الأشياء .

(٤) متعلم : تعالم الناس الخبر : علموه .

(٥) فتخيَّر عليه : تخير : انتقى واختار ، و " عليه " هنا تفيد التسلُّط والغلبة ، أى

اختار على الرغم منه .

(٦) فأمسك : أى لم يتكلم ولم يبد اعتراضاً .

أنفصال ما بينهما إلى فصِيلٍ سَمِينٍ كان في إبله . فقال لغلمانه :
خذوا هذا الفصيلَ حتى يُصلَحَ لنا غَداءٌ . فقال صاحب الإبل
له : قد أخذتَ زيادةً على حقك ، فما هذا ؟

قال : لا بد لي من أخذه . قال : فأتني لأُسَلِّمَهُ . فأمر^(١) يَوْجَى
عنقه ، وأُخِذَتْ مقادته من يده^(٢) ، فصاح بأعلى صوته : " كلُّ
هذا بِعَيْنِكَ يا جِبَّارُ " ^(٣) ! فحلف لي عمرُّ إنَّه جاء من الحوَاءِ فحلَّ
ونُحِرَ منه وهو يرغو ، فأخذ بعضده ولم يزل يضرب به الأرضَ
حتى قتله ، وأنصرف الرجل بفصيله .

*
* *

(١) وجأ عنقه : ضربه بالسكين .

(٢) أخذت مقادته : أى أخذ زمام الفصيل من يد صاحبه .

(٣) كل هذا الخ : الخطاب لله عز وجل والمعنى أيصنع كل هذا جهارا يارب
وأنت الجبار المنتقم فلا تعاقب عليه ؟

وفيا أخبر به الهيثم بن عدي^(١) قال :

كان عدي بن زيد^(٢) قد تقدّم عند كسرى أبرويز^(٣) في ترجمة العربي إلى الفارسي . وكان رجلاً جاراً^(٤) للنعمان بن المنذر^(٥) ، فرام منه النعمان أن يكون عيناً له على كسرى ، فامتنع من ذلك ولم يرض بهذه السجية ، فتركه النعمان حتى أطمأن إليه ثم سأله أن يزوره .

(١) هو الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي الكوفي ، كان مؤرخاً عالماً بالأدب والأنساب ، ومن كتبه " خطط الكوفة " و " دولة الكوفة " و " طبقات الفقهاء والمحدثين " توفي بقم الصلح سنة ٢٠٧ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٢) هو عدي بن زيد بن حماد التيمي : نشأ بالحيرة ، وكان يحسن العربية والفارسية ، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى وقد اتصل بالنعمان ابن المنذر وصاهره ، ثم وثى به إلى النعمان فسجنه وقتله في مجننه (الأعلام جزء ٢)

(٣) هو ابن هرم بن أنوشروان ملك الفرس حكم نحو ثمان وثلاثين سنة ومات في نحو السادسة من الهجرة .

(٤) وكان رجلاً جاراً : أي وكان عدي ، قبل اتصاله بكسرى ، جاراً للنعمان أي في كنفه وتحت رعايته .

(٥) هو النعمان بن المنذر بن امرئ القيس التيمي من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية ، وهو ممدوح النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وحاتم الطائي ، ملك الحيرة إرثاً عن أبيه سنة ٥٨٥ م تقريباً وأقره كسرى فاستمر نيافاً وعشرين عاماً ونقم عليه كسرى أبرويز أمراً فعزله وسجنه إلى أن مات سنة ٨ قبل الهجرة تقريباً (الأعلام جزء ٣)

فكلم كسرى وسأله أن يأذن له في زيارته شهراً واحداً، ونصب عدى
أبنته مكانه. (وكان حلو الشاهد، مضطرباً بما يسند إليه) فأذن له،
فلما حصل في يد النعمان قتله، وكتب إلى أبنته يخبره بأنه مات حتف
أنفه، وأنه على غاية من الأسى عليه. وتأدى خبر عدى إلى أبنته
على الصحة، فلم يحرق^(١) فيه. وأقام يتتبع غوائله^(٢) ويعمل الحيلة
في اقتراس وتره^(٣).

بحرى في يوم من الأيام ذكر الجوارى بين كسرى وبين ابن عدى،
وكان أبرويز مستهتراً بهن^(٤). فقال ابن عدى: أحسن النساء حرقه
بنت النعمان. فكتب أبرويز إلى النعمان كتاباً يأمره فيه بحمل حرقه
ابنته إليه. فعظم هذا على النعمان، وكتب إليه كتاباً يذكر فيه قسف
تربية العرب لأولادها^(٥)، وتقصيرهم بذادة الهيئة^(٦)، ووسخ

(١) فلم يحرق فيه: خرق من بابي فرح وكرم: حق وطاش، والاسم الخرق
(بالضم) أو الخرق (بالتحريك).

(٢) يتتبع غوائله: يتربص ما يمكن أن ينزل به من الدواهي.

(٣) اقتراس وتره: الوتر: النار، والاقتراس: اتمهاز الفرصة.

(٤) مستهتراً بهن: المستهتر بالشئ المولع به لا يبالي ما يفعل ولا يابه لما يقال.

(٥) قسف: القشف سوء الحال.

(٦) بذادة الهيئة: رثاتها.

المِهْنَةِ، وَأَنَّ فِي عَيْنِ^(١) الْعِرَاقِ عَوْضًا مِنْهُمْ. وَأَنْفَذَ الْكَتَّابَ إِلَى كِسْرَى.
فَأَمَرَ كِسْرَى ابْنَ عَدِيٍّ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَمَرَهُ عَلَى طَرَفِهِ ثُمَّ أَلْقَاهُ
وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى جَبِينِهِ . وَقَالَ : ” ابْنَتِي لَا تَصْلُحَ لَكَ . . .
. ” فَغَضِبَ كِسْرَى وَأَنْفَذَ رُسُلًا إِلَيْهِ فَأُشْخِصَ
فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ مَقَرِّ كِسْرَى أُنْجِرَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ جَارِيَةٍ بِالْحُلِيِّ وَفَاحِرِ
الْكُسُوفَةِ وَأُذِنَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ بِالْفَارْسِيَّةِ : ” يَا كَلْبُ !
. ” وَأَمَرَ بِشَدِّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ؛ وَأَلْقَاهُ فِي الْأَرْضِ ؛
وَأَطْلَقَ الْفِيلَةَ عَلَيْهِ فَوَطِئَتْهُ حَتَّى مَاتَ تَحْتَ قَوَائِمِهَا .

*
* *

وَفِيمَا جَاءَ بِهِ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ^(٢) . قَالَ : اجْتَازَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ
الْمَدِينَةِ بِمَرِيضٍ مُلْقًى عَلَى كُنَاسَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَنْزِلِ رَجُلٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ^(٣)

(١) عَيْن : جَمْعُ عَيْنَاءٍ ، وَالْفِعْلُ عَيْنَ كَفَرَحَ عَيْنًا (بِالتَّحْرِيكِ) وَهُوَ اتِّسَاعُ الْعَيْنِ
مَعَ اشْتِدَادِ سَوَادِهَا . وَيُرِيدُ بَعَيْنَ الْعِرَاقِ نِسَاءَ الْجَمِيلَاتِ الْوَاسِعَاتِ الْعَيُونَ .

(٢) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ الْقُرَشِيُّ الْأَسَدِيُّ الْمَكِّيُّ مِنْ أَحْفَادِ الزُّبَيْرِ
ابْنِ الْعَوَامِ . كَانَ عَالِمًا بِالْأَنْسَابِ وَأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَقَدْ وَلَدَ بِالْمَدِينَةِ وَتَوَلَّى قَضَاءَ
مَكَّةَ ، وَبِهَا تَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٦ هَجْرِيَّةً (الْأَعْلَامُ جُزْء ١)

(٣) الْأَوْلِيَاءُ : يُرِيدُ أَوْلِيَاءَ الْأُمُورِ أَيْ عَمَّالِ الْوَالِي . وَهَذَا التَّعْبِيرُ مَأْلُوفٌ فِي هَذَا

اختلفت حاله^(١) ومريض ولا قيم عليه^(٢) وتبرم به رفقاؤه فأخرجوه من منزلهم ، وهو ملق في الطريق . فأمر الشريف بنحوه إلى منزله وتقدم إلى أبنه عمه في حسن القيام عليه بحشمها ، وأن ترفه عيشه إلى أن تنقضى علقته ، فابتدره كل من في منزل الشريف بالخدمة حتى تكاملت صحته ، وصار في منزلهم كأحدهم ، وقفل إلى دمشق . فلما كان في الوقت الذي توجه جيش يزيد^(٣) للحرة^(٤) وافى فوقف على باب دارهم ، فظنوا به أنه وافى لحمايتهم ، وحسن المدافعة عنهم ليقضيهم سوافهم لديه ، فدخل الدار ومعه ثلاثة غلمان . فلما تمكن منها أخذوا في جمع الأثاث ، فقال لهم الشريف : ما هذا ؟ فقال : إني استوهبت دارك بما فيها من الأمير ووهبها لي ، وكنت

(١) اختلفت حاله : الجملة نعت لكلمة رجل السابقة .

(٢) ولا قيم عليه : ليس له من يدبر شئونه أو يشرف عليه .

(٣) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي ، ثاني خلفاء الدولة الأموية ، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٠ هـ وفي زمنه قتل الحسين وفتح المغرب الأقصى ، توفي بجوارين (من أرض حمص) سنة ٥٦٤ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٤) الحرة : أرض بظاهر المدينة وبها كانت وقعة لحرة في ذي الحجة سنة ثلاث وستين حين أمر يزيد عسكره من أهل الشام ، بعد التغلب على أهل المدينة ، بنهبها والتنكيل بأهلها .

أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا ، إِذْ كَانَتْ الْأَحْوَالُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَكِدَّةً ، فَقَالَ لَهُ
الشَّرِيفُ : رَجَعْتَ يَا ابْنَ الْخِنَاءِ ^(١) إِلَى لُؤْمِ أَصْلِكَ ، وَفَسَادِ مَرْجِكَ ! ^(٢)
ثُمَّ عَلَاهُ بِسَيْفِهِ ، وَفَرَّ الْغُلَمَانُ ، وَهَدَأَتْ وَقْدَةُ الْفِتْنَةِ ، وَطُلَّ ^(٣) دَمُهُ .

*
* *

وَحَدَّثَنِي نَافِعُ بْنُ مَصْقَلَةَ الْحِمِصِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : رَأَيْتُ
مَشَايِخَنَا مُجْتَمِعِينَ عَلَى أَمْرِ لَحِقِهِ أَسْلَافُهُمْ :

أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ بِمَحْصَ شَابٍّ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ حَسَنُ الصُّورَةِ ، لَيِّنُ
الْعَرِيكَةِ ، فَأَقَامَ مَعَهُمْ مَدَّةً ، ثُمَّ صَارَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ،
فَتَقَلَّدَ ذَلِكَ الْفَتَى حِمَصَ ، وَكَانَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي أَبِي الْعَبَّاسِ . فَلَمَّا دَخَلَهَا
قَصَدَ إِلَى دَارِ رَئِيسٍ كَانَ بِهَا مِنْ أَصْحَابِ بَنِي أُمَيَّةٍ فَذَبَّحَهُ فِيهَا وَجَمَاعَةً مِنْ
غُلَمَائِهِ . ثُمَّ خَرَجَ فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَأَلَانَ الْجَانِبَ . فَقِيلَ لَهُ : لَيْسَ
يُسَبِّهُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي ذُبِحَتْهُ وَسُكِّلَتْهُ ! فَقَالَ :
اسْمَعُوا مِنِّي مَا جَرَى عَلَى عِلَّتِهِ ^(٤) : اجْتَرَأْتُ بِهِ ، وَقَدْ نَظَّفْتُ أَثْوَابًا

(١) ابْنُ الْخِنَاءِ : لُثَيْمُ الْأُمِّ .

(٢) فُسَادُ مَرْجِكَ : كَذَابُهُ عَنِ فَسَادِ الطَّرِيقِ وَسُوءِ الْوَسَائِلِ .

(٣) طُلَّ دَمُهُ : ذَهَبَ هَدْرًا بِلَا مَطَالِبٍ .

(٤) عَلَى عِلَّتِهِ : كَمَا هُوَ بِمَالِهِ وَمَا عَلَيْهِ . وَفِي الْأَصْلِ عِلْنَةٌ .

لا أملك غيرها ، وقد دُعيتُ إلى أمرٍ لا يسعُنِي التأخر عنه ، أحتاجُ فيه إلى حُسْنِ الهَيْئَةِ وإظهارِ التَّجَمُّلِ ، ومعى رسولٌ من أَسْتَحْضِرُنِي . وهو قاعدٌ على الباب ، فرائتُ دابَّتِي بِحَيْثُ تَقَعُ عَيْنُهُ ^(١) من رَحْبَةِ مُبَلَّطَةِ لِدَارِهِ ، فَأَمَصَّنِي ^(٢) وَأَمَرَ الْغُلَّامَ بِتَرْجِيلِي وَضَرْبِي ، فَرَكِبْتَنِي أَيْدِيهِمْ . ثُمَّ حَلَفَ أَلَّا أُبْرَحَ حَتَّى أَكُنْسَ رَوْثَ دَابَّتِي بِيَدَيَّ فِي كَمِّي ^(٣) وَأَحْمِلَهُ فِي ثَوْبِي وَجِرْي ، وَأَخَذْتُ فَجَرَرْتُ إِلَى ذَلِكَ . وَلَمْ تَزَلْ حَاشِيَتُهُ تَضْحَكُ مِمَّا نَزَلَ بِي .

فَحَدَّثْتُ مَوْلَايَ فَاسْتَحْلَفْنِي بِحَقِّهِ عَلَى غَلِيظِ مَا أَتَيْتُهُ إِلَيْهِ ^(٤) .

*
* *

(١) بِحَيْثُ تَقَعُ عَيْنُهُ الْخ : أَيْ إِنْ الدَّابَّةَ رَأَتْ فِي مَكَانٍ تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُهُ حِينَ يَكُونُ أَمَامَ الْبَابِ جَالِسًا فِي رَحْبَةِ مَبْلُطَةٍ . وَفِي الْأَصْلِ : تَقَعُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) أَمَصَّهُ : قَالَ لَهُ يَامَصَّانَ وَهُوَ شَتَمٌ قَبِيحٌ ، وَمِنْ مَعَانِي الْمَصَّانِ : اللَّثِيمُ الَّذِي يَمَصُّ ضَرْعَ النَّاظَةِ أَوْ نَحْوَهَا حَتَّى لَا يَقَعَ شَيْءٌ مِنَ اللَّبَنِ عِنْدَ الْحَلَبِ .

(٣) فِي كَمِّي : أَيْ دُونَ أَنْ أَرْفَعَ كَمِّي لِتَجَنَّبَ الْقَذَرُ .

(٤) فَاسْتَحْلَفْنِي الْخ : أَيْ جَعَلَنِي أَحْلَفَ عَلَى أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُ الْإِنْتِقَامَ الشَّدِيدَ الَّذِي أَوْقَعْتَهُ بِهِ .

ومما قرأته من سير العجم :

أن جماعة المنجمين حكموا لبعض الأكاسة أن ابنه يقتله ويتولى ملكه . فعمد كسرى إلى سُموم وحيّة^(١) فجعلها في قوارير وختمها وكتب عليها : دواء الشربة مثقال . وكانت وزنة قيراط تقتل من تلك السُموم . وقال : إن كان الأمر كما حكاه المنجمون فسأخذ بطائلي^(٢) منه ، فعدا عليه ولده وقتله ورأى تلك القوارير فشرب مثقالاً فمات .

*
* *

وحدثني أحمد بن أبي يعقوب ، قال حدثني أبي عن جدّي واضح قال : سمعت خالد بن سَهْم يحدث المنصور ، وكان هذا الرجل خاصاً بمروان بن محمد الجعدي^(٣) . فطلب منه مروان جارية له كان يحبها .

(١) وحيّة : سريعة التأثير .

(٢) بطائلي : بئارى .

(٣) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر خلفاء بني أمية ، تولى الخلافة سنة ١٢٧ هجرية ، وفي أيامه قويت الدعوة العباسية وزحف جيش قطبة بن شبيب الطائي يريد الإغارة على الشام ، فنازله مروان بعسكره بالقرب من الموصل فهزم مروان وفر ، وانتهى إلى بوسيد (من أعمال مصر) فقتل فيها سنة ١٣٢ هجرية (الأعلام ج ٣) .

وتجرّم^(١) عليه فأطال حبسه ، وأخذ الجارية منه . وكان ذا رأيٍ ونجدة ،
فلما استفحل أمرُ أبي مُسلم وكسر عساكر مروان أخرجه من الحبس
ووعده جميلاً .

قال خالد : كان مروان يضحك من ذوى المسودة^(٢) ويقول :
لو أسرناهم ما بلغنا بهم ما بلغوا بأنفسهم من التشوية والشهرة . فلما
أضطرّ إلى مكافتهم وواقعهم ، رأيتُه قد تهيّب معاركهم فقال لى :
يا أبا يزيد ! (وما تكّانى قبل ذلك اليوم) إني قد آرتعتُ ، فهل
ذلك بيني في ؟

قلت : بلى يا أمير المؤمنين ! وكنتُ أداجنه^(٣) ويسرّنى حوولُ
أمره . فقال : ما أجد قلبي يطيق مواقعتهم . فقلتُ : إن كان
هذا فتحصّن منهم بالانهزام ، فإنّ خيلك أنجى^(٤) من خيلهم .

(١) تجرّم عليه : ادعى عليه الجرم ولم يجرم .

(٢) المسودة : العباسيون لأن السواد كان لباسهم وشعارهم .

(٣) أداجنه : أداهنه وأظهر له غير ما أبطن .

(٤) أنجى : أسرع .

فانهزم وتوقف أصحابُ أبي مُسلمٍ عن طلبه. فلما بلغ إلى سواده^(١) قال لي : قد عزمْتُ على الدخول إلى بلد الروم (وكان من أصوب تدبير له) فنفسْتُ عليه بالرأى^(٢)، واستعملْتُ مغالطته فقلت : تدخلُ بأحداثٍ من وَلَدِكَ وشَمْلِكَ مستجيرين بكافرٍ قد أَمِنَ سِرْبُهُ^(٣) ، واستقام أمرُهُ ! ولعلَّ وَلَدَكَ يروُقُهُم ما يروونه في مملكته فيحملهم ذلك على النصر، ولأنَّ تَمَادَى^(٤) في مَسِيرِكَ حتَّى تدخلَ مِصرَ فتجدَ فيها الرجالَ والكُرَاعَ والمالَ ، وتملكَ بها اختيارَكَ [خيرُكَ^(٥)] .
فرَكَنَ إلى قولي فسرنا ، فلما دخلنا مِصرَ نَحَرَجَ إلى صَعِيدِهَا واستأمنتُ إلى عامِرٍ ، لحالٍ كانت بيني وبينه ، وقتل ببوصير الأشمونين .

*
*
*
+ لعلها
==

(١) السواد : مجتمع العسكر .

(٢) نفسْتُ عليه بالرأى : المعروف نفسْتُ عليه الشيء : لم أره أهلاً له .

(٣) سِرْبُهُ : نفسه .

(٤) تَمَادَى : تَمَادَى .

(٥) خيرُكَ : زِيدْتَ لِيَسْتَقِيمَ الكلام .

ولما قدم أحمد بن طولون إلى مصر متقلداً بها عمل المعونة^(١) أهدى
إليه أحمد بن محمد بن مدبر من دق^(٢) مصر ودواً بها والرقيق المجلوب إليها
ما مقداره عشرة آلاف دينار . فرد ذلك عليه ، وذكر أنه لا حاجة
له بشيء منه . فنقل ذلك على ابن مدبر . وقال : ما ينبغي أن يثق
السلطان^(٣) بمن لم يكن لعشرة آلاف دينار في عينه قدر على طرف
من أطراف مملكته .

ولما مضت أيام بعث^(٤) إليه : قد كنت أنفذت إلى
طائفة من برك فرددتها عند وقوع الاستغناء عنها . وقد

(١) عمل المعونة : يراد به معونة الخليفة في حكم مصر ، وذلك أنه لما تولى
المعتز بالله وقتل المستعين قلد المعتز بالله بأكاك ولاية مصر على أن يلتزم من يخلفه
عليها ، فقبل له إن أحمد بن طولون هو الثقة الأمين فقلده خلافة وضم إليه الجيش .
ورحل ابن طولون إلى مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٤
مقلداً للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الاسكندرية وغيرها .

(٢) الدق : الدقيق ، ويراد به كل بديع الصنعة محكمها .

(٣) السلطان : الخليفة .

(٤) بعث إليه : أى بعث أحمد بن طولون إلى ابن مدبر .

بلغنى أنّ عندك مائة رجلٍ من مُولدى الغور^(١) وبنى إليهم أمس حاجةً . قال ابن المدبر : قد ظهرت في هذا الرجل علامة أخرى ! يردُّ الأغراض والأموال ويستهدى الرجال .

✓ وكان حسين بن شعرة^(٢) مضحك المتوكل على الله^(٣) قد أنصوى^(٤) إليه فحَمَى به ضياعه وأملاكه . ووقف على استئصال ابن مدبر لأحمد ابن طولون ، وأخرج حكايته في تزمّنه وكلامه^(٥) فيضحك ابن مدبر ومن حضره . فاتصل ذلك بابن طولون فأحضره ثم قال له : بلغنى أنّك تتنادر^(٦)

(١) الغور : جبال وولاية بين هرات وغزنة ، وهى بلاد واسعة موحشة . وفى سيرة أحمد بن طولون للبلوى فى وصف مجيئه إلى مصر : ونظر ابن طولون بين يدي أحمد بن مدبر مائة غلام من مولدى الغور قد انتخبهم وجعلهم عدة وجمالا وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس يعرفون به شديد .

✓ (٢) سماء البلوى الحسن بن شعرة .

(٣) فى البلوى . وكان يغنى أيضا .

(٤) أنصوى . انضم .

(٥) وأخرج حكايته الخ ، الترتمت : الوقار ، أى وأخرج التشبه به ومحاكاته فى مبالغته فى وقاره وتصنعه فى كلامه مخرج الهزء والسخرية .

(٦) تتنادر بى : تسوق النوادر للسخرية منى ، وتعمل على أن يتفكك الناس بالضحك على . وكثيرا ما يستعمل الأدباء هذا الفعل وهو ليس فى المعجمات بهذا المعنى ، والذي فى التاج : فلان يتنادر علينا أى يأتينا أحيانا .

بي، ولك في الناس مندوحة فاحذرني، فانك إن وقعت لم ينفك ابن المدبر ولا غيره . فحمد هذا واعتذر إليه منه . ثم أنصرف إلى ابن المدبر وقال : ياسيدي ! لو شاهدت أحمد بن طولون يؤنني ! فقال : ما قال لك ؟ قال : اضرب حتى أريك حكاية صورته ومعاتبته . ثم تلبس ^(١) وجلس يحكيه ويقتص ^(٢) ما لقيه به . ثم اتصل ذلك بأحمد بن طولون فأمسك عنه وتبع غوائله ^(٣) .

واضطربت الرعية لنزاع السعر ^(٤) ، وقد بلغ ثلاثة أراذب خنطة بدينار . فركب ^(٥) وتقدم بعقوبة القماحين ، وازدحمت النظارة من السطوح عليه . فوقع مركن ^(٦) فيه ريحان إلى الأرض بمزاحمة من

(١) تلبس : التلبس بالثوب اختلط به ، والمراد التف بثيابه على هيئة تشبه هيئة ابن طولون . وفي السيرة للبلوي : فلما عاد إلى ابن مدبر دخل خزانة الكسوة ولبس منها مثل ما كان على أحمد بن طولون .

(٢) يقتص : يقتص ، ففي التاج : اقتص الحديث : رواه على وجهه .

(٣) تبع غوائله . ترقب ما ينزله به من الدواهي .

(٤) نزاع السعر : ارتفاعه .

(٥) فركب : أى ابن طولون .

(٦) مركن : آتية كبيرة كالإجانة تغسل فيها الثياب وتزرع بها الرياحين .

تَشَوِّفَ إِلَيْهِ مِنَ النَّسَاءِ . فَسَحَّ كَفَلَ دَابَّةً ^(١) أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ .
فَسَأَلَ عَنِ الدَّارِ : لِمَنْ هِيَ ؟ فَقَالُوا لِحُسَيْنِ بْنِ شَعْرَةَ ! فَأَخْضَرَهُ
وَضَرَبَهُ ثَلَاثَةَ سَوَّطٍ ^(٢) ، وَطَافَ بِهِ ^(٣) . وَكَانَ مَا أَوْقَعَهُ بِهِ مِنْ أَجْلِ
مُتَقَدِّمِ سَوَالِفِهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يُفْلِحِ الْحُسَيْنُ بْنُ شَعْرَةَ بَعْدَهَا .

وَزَادَ أَمْرُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ فِي الْقُوَّةِ وَزِيَادَةَ الْمَالِ وَوُفُورَ الْكَفَايَةِ حَتَّى
تَهَيَّبَهُ ابْنُ مَدْبَرٍ ، فَخَذَّ ثَنِي أَبَا الْعَبَّاسِ الطَّرْسُوسِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ
يَقُولُ لَهُ ^(٤) : يَا أَبَا الْحَسَنِ ! أُنْشِدُكَ اللَّهَ إِنْ تَعَرَّضْتَ ^(٥) لِي ، وَلَا تَرَسَّيْتُ
عِدَاوَتِي ^(٦) ، فَقَدْ أَجْتَهَدْتُ فِي اسْتِصْلَاحِكَ فَلَمْ أَصِلْ إِلَى ذَلِكَ .

(١) فَمَسَحَ الخ : فِي السَّيْرِ لِلْبَلَوَى : فَوَثَبَ الْفَرَسَ وَتَرَهَ مِنْ سَرِّجِهِ وَلَوْلَا ثَبُوتُهُ
فِي ظَهْرِهِ لَرَمَاهُ عَلَى الْأَرْضِ .

(٢) ثَلَاثًا : فِي السَّيْرِ لِلْبَلَوَى : نَحْمَسًا .

(٣) وَطَافَ بِهِ : أَيَّ أَمْرٍ بَانَ يَطَافُ بِهِ فِي الْأَسْوَاقِ تَشْهِيرًا لَهُ .

(٤) لَهُ : لِابْنِ مَدْبَرٍ .

(٥) إِنْ : مَا .

(٦) تَرَسَّيْتُ عِدَاوَتِي : تَرَسَّيْتُ الْإِثْرَ اقْتِفَاءً وَتَتَبَعَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ : بَعْدَاوَتِي .

فقال له ابن مدبر : والله ما أردُّ أمرك فيما أتقلده ، وإني فيه كالمقيم
من قبلك ، فأى شيء أنكرت علىّ حتى أتجنّبه ؟ فقال : أنكر عليك
المكاتبة إلى الحضرة ^(١) وقد قلّد ^(٢) بك البغى . فحلف له ابن المدبر
أنه لا يكتب إلّا بشكره . وصُرف ابن المدبر عن مضر بأبي أيوب
ابن أخت أبي الوزير ، فلما أجمع ^(٣) الشُّخوص عنها ، قال له أحمد
ابن طولون : يا أبا الحسن ! لو أردتُ بك سوء القدرتُ عليه ،
وأحتاجُ إلى أن تجددَ تلكَ اليمينَ ، فحلف له بالخريجاتِ إنّه لا يألُو
حرصاً في تزيين آثاره ، وتطبيب أخباره ، وأشهد عليه الله بذلك ، وخرج
عن مضر متقلداً للشام ، فأقام مع ماجور ^(٤) .

فحدثتني نعتُ مولاة أحمد بن طولون وأم ثلاث بناتٍ كنّ له ،
فقلت : كنتُ عند مولاى بائنةً فسمِعته يحلمُ في نومه ، فخفتُ أن

(١) الحضرة : دار الخلافة .

(٢) قلّد بك : جمع بك .

(٣) أجمع : عزم على .

(٤) ماجور : المشهور أما جور التركي وكان متقلداً أعمال الشام .

أَنبَهَ فُيْنَكَرَ عَلَى هَذَا ، فَانْتَبَهَ وَجَلَسَ وَمَسَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ : ” خَيْرٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ “ ، فَسَأَلْتُهُ عَمَّا رَأَى ، فَقَالَ : رَأَيْتُ ابْنَ مَدْبَرٍ قَائِمًا
فِي وَسْطِ بَرِّيَّةٍ ، وَمَعَهُ قَوْسٌ مَوْتَرَةٌ وَسِهَامٌ ، وَأَنَا تَجَاهَهُ قَائِمٌ ، وَمَعِيَ
جَمِيعُ السِّلَاحِ إِلَّا الْقَوْسَ ، وَبَيْنَنَا نَهْرٌ ، فَكَأَنَّهُ يُسَدُّ السَّهْمَ نَحْوِي
وَيَرْمِي فَأَخْطَأَنِي ، وَكَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ : لَوْ رَمَاكَ يَوْمَهُ كُلَّهُ لَمَا أَصَابَكَ
بِهِ لِأَنَّهُ عَاهَدَكَ ، وَمَا يُضُرُّ هَذَا الْفِعْلُ غَيْرَ نَفْسِهِ ؛ فَكَأَنَّهُ أَشْتَدَّ
عَلَى أَنَّهُمَا كُهُ فِي الرَّمْيِ لِي ، وَلَيْسَ فِي يَدِي غَيْرُ سَيْفٍ وَشَرِخٍ
أَشْبَهُهُمَا ، لَا تَعْمَلُ فِي الْبُعْدِ . وَقَدْ حَالَ النَّهْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعُبُورِ إِلَيْهِ .
فَأَنَا عَلَى هَذَا ، حَتَّى نَضَبَ النَّهْرُ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ قَطْرَةٌ ، فَعَبَرْتُ إِلَيْهِ ، فَكَأَنِّي
كَلَّمَا كُنْتُ قَرِيبْتُ مِنْهُ يَصْغُرُ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَوَارِيهِ الْكَفُّ ،
فَأَخَذَتْهُ بِيَدِي أَسْتَطْرِفُهُ^(٢) ثُمَّ أَلْقَيْتُهُ مِنْ قَامَتِي عَلَى رَأْسِهِ فَمَاتَ . فَتَأَوَّلْتُ
سِهَامَهُ الْمَكَاتِبَةَ فِيَّ وَالتَّحْرِيطَ عَلَيَّ ، وَالنَّهْرَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْهُ مَقَامَ مَا جُورَ
بِدِمَشْقَ ، وَنَضُوبَهُ مَوْتَ مَا جُورَ ، وَصَغَرَهُ قَدَرْتِي عَلَيْهِ ، وَأَحْتِيَازَهُ

(١) شَرِخٌ : الشَّرِخُ النَّصْلُ لَمْ يَرْكَبْ عَلَيْهِ قَائِمُهُ .

(٢) أَسْتَطْرِفُهُ : أَجِدُهُ غَرِيبًا طَرِيفًا .

في كفى قبضي عليه ، وقول القائل في السهام إنها تُخَطُّكَ أَنَّ اللهَ لا يُعينه على^(١) .

حدثت هذا الحديث سعداً الفرغاني غلام أحمد بن طولون فقال لي :
ما سمعت بهذا إلا منك . والذي عندي من خبره مطابق لهذه الرؤيا .
وذلك أن الحسن بن مخلد^(٢) برم^(٣) بكيد الكتاب وانتقاض الأولياء^(٤) ،

(١) كان ابن طولون يؤمن بصدق رؤياه . حكى القاضي التنوخي أن محمد بن سليمان قال : نزلت إلى مصر وأنا في زي صغار الأتباع ، فالتصفت بلؤلؤ الطولوني فأجرى على دينارين في كل شهر وصيرني مشرفاً في إصطبله ، فلما كان في بعض الأيام أحضرني وقال : ويحك من أين يعرفك الأمير ؟ يعني أحمد بن طولون . فقلت : والله ما رأني قط . فقال دعاني الساعة فقال : معك رجل أشقر أشهل يقال له محمد بن سليمان فأبعده عنك ، فاني رأيت البارحة وفي يده مكنسة يكذب داري بها . فتوق ويحك ولا تتعرف إلى أحد من حاشيته . ومضت بعد ذلك شهر ثم دعاني ثانية فقال : ويحك ماذا بليت به منك ؟ دعاني الأمير فقال : أليس أمرتك بصرف محمد بن سليمان فأخرجه من البلد الساعة فاني رأيت في النوم أيضاً وفي يده مكنسة وهو يكذب بها دوري وحجري .

ومحمد بن سليمان هذا هو الذي أزال ملك الدولة الطولونية .

(٢) كان من وزراء الدولة العباسية ، وكانت صلته وثيقة بابن طولون ، ثم نفاه الخليفة إلى الرقة متهما بإياه بالإساءة إلى الأولياء والكتاب ، فكتب إلى ابن طولون كتاباً يرغب فيه في المقام عنده .

(٣) برم : سئم ومل .

(٤) الأولياء : أولياء الأمور ، العمال .

فكتب إلى أحمد بن طولون يذكر له رغبته في المقام بمصر. فكتب إليه أحمد بن طولون: إنما أنا وليك^(١)، ومقام صنيعة من صنائعك. وصوب رأيه فيما آثره. فحج من بغداد وثني عنائه إلى مصر فنعى صاحب البذرة^(٢) فأنفذ كتباً إلى أحمد بن طولون فكان أول ما صدر منها إلينا أربعين كتاباً جميعاً بخط ابن المدبر، يُعظم فيها أمر أحمد بن طولون. ويقول: إنه قد عزم على أن يجلس خليفة، ويصفه بكل غدر. فعجب منها ابن طولون. ثم مات ماجور، واحتاز دمشق والشام، وأنفذني إلى الرملة فقبضت عليه وأشخصته إليه، فأقام مدة في حبس ضيق وجفٍ مما جرت به عادته حتى ذهب بصره ومات^(٣).

*
* *

(١) الولي: المحب والنصير.

(٢) البذرة: الخفارة، والمراد هنا خفارة حدود المملكة.

(٣) في السيرة للبلوي: فحبسه في حجرة من داره مكرماً، ولم يدر ابن مدر ما عرّفه به الحسن بن مخلد، وقتره له عنده.

وحدثني سهل بن شَيْفٍ ، قال :

رَجَعْتُ [مَرَّةً] مع أحمد بن محمد بن مَدْبَرٍ إلى داره فاستقبلته
أمرأة ، فقالت أيها السيد ! نحن مائة عَيْلٍ على فلانِ الْمُتَقَبِّلِ ^(١) ،
وقد ضاع شَمْلُهُ لحَبْسِهِ ، فَأَتَيْ دَعْوَةَ تَعْرُجٍ إلى الله مِنَّا فيكَ ! فقال
وهو متهزئٌ : إذا عزمتم على هذا فليكن الدعاء في السَّحَرِ فإنه أنْجِعُ له .
قال لي سهل : فارتعتُ من الكلمة ؛ فما مضى له شهر حتى تقلد
محمد بن هلال ^(٢) الخراج وصرَّفه عنه .

واجتمعنا عند أحمد بن طولون فاهتدى محمد بن هلال إلى ما لم يُظَنَّ
أنه يَقِفُ عليه ، لأنه أوَّلَ ما ناظره قال : رزقُ الخراج كذا وكذا ،
وأرزاقُ الدواوين ^(٣) المُضَافَةُ إليه كذا وكذا ، فهل قبضت جملة هذه

(١) المتقبل : هو الذي يتقبل عملا أو نادية مال للسلطان في مقابل أجر معين .

(٢) قال البلوى : وكان ابن هلال قد تقرب من قلب أحمد بن طولون وتعبد
له ، وكان له بمصر محل ونبل ، فسأله أن يكتب إلى الحضرة يطلب له الخراج ،
فلموضعه منه ولما في نفسه من ابن مدبر سارع إلى ذلك فوردت عليه الكتب بتقليد
ابن هلال .

(٣) وأرزاق الدواوين : يراد بالدواوين أنواع الضرائب الأخرى غير خراج
الأرض .

الأرزاق ؟ قال ابن المدبر : نعم ! ما حضرنى كتابُ أمير المؤمنين
باطلاق جميع الرزق لك ، لأنه يجوزُ أن يكونَ استعملك على جميع
الأعمال برزق الخراج وحده . فانقطع ^(١) [إلى] ابن المدبر وطالبه
بالمال . فقال : ما يلزمنى . ورد ^(٢) إلى يد محمد بن هلال ، فأليس
جُبّةً كانت على بعض الساسة ^(٣) وأقيم في الطريق على كُفاسة ،
وختمت ^(٤) الحبّة في عنقه .

فكان أوّل من وافاه الامرأة التي قال لها يكون دعاؤك في السحر
هو أنجع له . فقالت : جزاك الله يا أبا الحسن خيراً ! فقد نفعتنا
بأكثر ممّا ضررتنا ! لأننا جربنا ما أشرت به فوجدناه أنجع شيء
يُلتَمَس ، فبكى ومن حوله من المتوكّلين به ، وأنصرفت المرأة
داعيةً له .



(١) انقطع : أى محمد بن هلال .

(٢) ورد : أى ابن المدبر إلى ابن هلال مرة أخرى .

(٣) الساسة : خدام الخيل ونحوها .

(٤) ختمت : لعلمهم في هذا الزمن كانوا يختمون المجرمين بخاتم خاص .

وكان محمد ^(١) بن أبي الساج ، قد هادن نُمَارَوِيَه بن أحمد
ابن طُولون ، وحلّف بأُخْرَجَاتِ إِيَّاهُ لا يَشَاقُّهُ ولا يُجَهِّزُ إِلَيْهِ جَيْشًا
أَبَدًا ، وخَلَّفَ عِنْدَهُ أَبْنَاهُ المعروف بـدَاوَدَ رَهِينَةً ، فسكن نُمَارَوِيَه
إلى هذا . ثم تواترت الأخبار بتخييشه عليه ، وما آثره من المسير
إليه ، فدعا بآبِنه وقال : قد نقض أبوك ما بيني وبينه . فقال :
يَا سَيِّدِي ! مَا عَرِفَ لِي أَبَا غَيْرِكَ ، فَرَقَّ لَهُ وَأَجَازَهُ وَأَقْرَأَتْهُ ^(٢) ثُمَّ تَوَجَّهَ
إلى ابن أبي الساج فالتقيا بالثنية .

^(١) هو محمد بن أبي الساج ، ولي إمرة الأهواز وحرب صاحب الزنج من قبل
الخليفة المعتمد سنة ٢٦١ هـ وقد رغب في ضمّ الشام إلى ملك بني العباس عقب
وفاة أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ ولكنه لم يوفق في مسلكه : خالف إسحاق
بن كنداج وحاربه وكانا متفقين على فتح الشام معا . ثم خرج على الخليفة العباسي ودعا
لنُمَارَوِيَه وهادنه ، ثم انتهى أمره بالهرب من نُمَارَوِيَه بعد وقعت جرت بينهما
فأكرمه الموفق وخلع عليه بعد أن قبل توبته وأخرجه معه لحرب الخارجين من
أهل الجبل ، وقد توفي باذر بيجان سنة ٢٨٨ هـ .

^(٢) هو أبو الجيش نُمَارَوِيَه بن أحمد بن طولون ، ولي مصر بعد وفاة أبيه
وله من العمر عشرون عاما ، وقد اتسع الملك في أيامه فكان له من الفرات إلى بلاد
النبوة . قتل بدمشق سنة ٢٨٢ هـ (الأعلام جزء ١ —)

^(٣) أقرأته : وافق على إشارته إياه على أبيه . وفي الأصل ، (وافرأه)
هكذا بدون نقط .

فحدثني أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ^(١) [وكان معه] . قال :

لما تراءى الجمعان أمر بالقاء حصير الصلاة فَأُلْقِيَتْ ، ونزلت معه فصلّي ركعتين ، فلما استتمهما أدخل يده في خُفِّه فأخرج منه خطَّ ابن أبي الساج الذي حلف فيه بوكيد الأيمان إنَّه لا يحاربه . فقال : اللهم إني رَضِيتُ بما أعطانيه من الأيمان بك ، ووُثِّقْتُ بكفايتك إياي غدره ، و [إنَّ] ^(٢) بحلفه وأجترائه على الحنث بما أكَدَّه لي اغتراراً بحلمك عنه ، فَأَدْلِنِي عليه ^(٣) .

ثم ركب فرأيتُ مَيْمَنَةً تُحَارَوِيهِ قد أَنهَزمت وتبعَتْها مَيْسَرَتُهُ ، فحمل في شِرْذِمَةٍ يسيرة على جيش ابن أبي الساج ، وهو في غاية من الوفور ، فانهزموا بأَسْرِهِمْ ، فوقف على نَشِيرٍ ^(٤) وَأَطْفَتْ وَمَنْ حَضَرَهُ به ، فاستأْمَنْتُ إلينا عِدَّةً كثيرة ^(٥) . فقلت له : إنَّ مُقَامَنَا أيُّهَا الأمير مع

(١) هو الشريف الحسيني ، كان سيِّداً فاضلاً جواداً ، وكان له جاه ومنزلة ، توفي سنة ٣١٥ . (النجوم الزاهرة) .

(٢) ريدت (إن) على الأصل ليستقيم الكلام .

(٣) فأدْلِنِي عليه : المعروف : أدْلِنِي منه أي أجعل لي الغلبة عليه .

(٤) نَشِيرٌ : مكان عال .

(٥) فاستأْمَنْتُ الخ : أي جاء إلينا عدد من جيش العدو يطلب الأمان .

هذه الجماعة خَطَرُ. فأمرني بالمسير بهم إلى مُسْتَقَرِّ سَوَادِهِ^(١) فسرْتُ معهم ، وأنا على رَقَبَةٍ من طَمَعٍ فِيهِ أَوْكَيْدٌ لَهُ ، فبلغوا نَهْرًا أَحْتَاجُوا إِلَى عُبُورِهِ ، فرَأَيْتُهُمْ قد خَلَعُوا الْخِفَافَ وَحَطُّوا الرِّحَالَ وَسَلَكُوا سُلُوكَ الْمُطْمَئِنِّ فَأَنْسَيْتُ إِلَيْهِمْ .

*
* *

وكان في حارتنا شابٌ قد قَدِمَ مِنَ الْعِرَاقِ ذِكْيُ الرُّوحِ هَادِيٌّ السَّعْيِ^(٢) ، يَذْكُرُ أَنَّهُ قَرَابَةُ لَابِنِ يَعْفَرَ الْقَائِمِ كَانَ بِالْيَمَنِ^(٣) . وكان بمصر في دُونِ قَوْمِهِ^(٤) . فَأَشَارَ عَلَيْهِ مَنْ شَاهَدَ ابْنَ يَعْفَرَ وَسَعَةَ أَمْرِهِ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَأَخَذَتْ لَهُ حَجَّةً^(٥) مِنْ بَعْضِ أَهْلِنَا ، وَأَضَفَتْ إِلَيْهَا بَرًّا يَنْبَغِي بِحُجْمِلِهِ ، وَحَرَجَ فَلَقِيَ بِمَكَّةَ عَجُوزًا يَمَانِيَّةً جَلِيلَةً الْقَدْرِ فِيهِمْ ، فَعَرَفَهَا مَوْضِعَهُ فَقَالَتْ : أَنَا أَتَكْفَلُ بِمُؤْنَتِكَ وَتَحْلِيكَ وَأَغْنِيكَ هَذِهِ الْيَدَ عِنْدَ الْأَمِيرِ . وَحَمَلْتَهُ حَتَّى صَارَتْ بِهِ إِلَى عَشِيرَتِهَا ، فَقَالَتْ لَهُمْ :

(١) سواده : معظم جيشه .

(٢) هادي السعي : متأن قليل النشاط .

(٣) القائم كان باليمن : تعبير مألوف في ذلك العهد : أي الذي كان قائما باليمن

(٤) في دون قومه : غريبا .

(٥) فاخذت له حجة : جمعت له نفقت حجة .

إِنَّ ابْنَ يَعْفَرَ قَتَلَ مِنَّا فِي الْعَامِ الْمَاضِي رَجُلًا ، وَمَعِيَ قَرَابَةٌ لَهُ
فَاقْتُلُوهُ بِهِ . وَاجْتَمَعَ الْحَيُّ وَتَسَلَّهَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ . فَلَمَّا جُرِّدَ السِّيفُ
أَضْطَرَبَ وَبَكَى . فَقَالَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ : مَا نَرْضَى أَنْ نَقْتُلَ هَذَا
بِصَاحِبِنَا ! صَاحِبُنَا شَجَاعٌ ، وَهَذَا جَبَانٌ . فَبَعَثُوا بِهِ إِلَى ابْنِ يَعْفَرَ وَقَالُوا
لِرَسُولِهِمْ إِلَيْهِ : إِنَّا لَا نَرْضَى أَنْ نَقْتَادَ مِنْ هَذَا .

فَلَمَّا وَافَى ابْنَ يَعْفَرَ دَعَا لَهُ بِالسِّيفِ وَالنِّطْعِ لِيَقْتُلَهُ ، وَقَالَ : هَتَكْتَنِي
فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْعَرَبِ ! فَقَالَ لَهُ وَزِيرُهُ : إِنَّ هَذَا الْفَتَى نَحْرَجُ مِنْ فَاقَةٍ
وَأَمِنَ إِلَى مَوْقِفٍ تُضْرَبُ فِيهِ عُنُقُهُ فَأَضْطَرَبَ ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُ الْأَمِيرُ مَنْ
قَادَ الْجِيُوشَ وَتَطَعَّمَ بِحُلَاوَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِيهِ ^(١) وَتَمَكَّنَ مِنَ الرِّيَاسَةِ
ثُمَّ عَدَلَ بِهِ طَبْعُهُ إِلَى الْخَوَرِ . وَالَّذِي أَرَاهُ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ الرِّيَاسَةَ عَلَى
جَمَاعَتِهِ وَيُنْفِذَهُ إِلَى مُهِمَّاتِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَظْهَرُ
بِحَسَنِ الْارْتِيَاضِ . فَفَعَلَ الْمَلِكُ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ وَزِيرُهُ .

فَخَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَامِرِ الْيَمَانِيِّ : أَنَّهُ دَرَجَ بِهَذَا التَّنْذِيرِ
فَظَهَرَ مِنْ شَجَاعَتِهِ مَا لَمْ يُرَفَّ فِي آلِ يَعْفَرَ مِثْلُهُ ، ثُمَّ غَزَا الْحَيَّ الَّذِي
كَانَتْ تِلْكَ الْعَجُوزُ مِنْهُمْ فَقَتَلَ أَوْلَادًا كَانُوا لَهَا وَأَقْفَرَهُ بِهِ ذَلِكَ الْحَيُّ .

*
* *

(١) فِيهِ : الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْمَنْصِبِ الْمَفْهُومِ مِنَ السِّيَاقِ . وَالْأَوَّلَى حَذَفَ (فِيهِ) .

وحدثني يوسف بن إبراهيم [والدي] . قال :

حدثني إبراهيم بن المهدي أنه دخل على الخيزران^(١) أم الرشيد فوجدها جالسة في الدار المعروفة بها (وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها) على نمط إرميني^(٢) والنمط على بساط إرميني، وعن يمين النمط ويساره نمارق^(٣) إرمينية، وعلى أعلى ثمرقة منها زينب بنت سليمان بن علي، وعلى يسار النمارق أمهات أولاد المنصور ونسوة من نساء بني هاشم، إذ وقفت امرأة على طرف البساط فسلمت ثم قالت: يا زوج أمير المؤمنين أنا مريم زوج هشام بن عبد الملك ثم مروان بن محمد من بعده، نكبتها الزمن وزلت بها النعل، حتى أصارها إلى عارية ما تستتر^(٤) به مما عليها. فتبينت الدموع تدور في عين الخيزران، وخافت زينب أن تدخلها

(١) الخيزران: زوج المهدي العباسي وأم الهادي والرشيد، يمانية الأصل، أخذت العلم عن الأوزاعي، توفيت في عهد الرشيد سنة ١٨٣ هـ.

(٢) نمط إرميني: النمط ظاهرة الفراش، وإرمينية وقد تشدد الياء أربع كور متصل بعضها ببعض ببلاد الروم، يقال لكل كورة منها إرمينية، والنسبة إليها أرمني بفتح الحزنة. ولكن المؤلف جرى في النسب إليها على القياس لا على المسموع.

(٣) نمارق: النمرق والتمرقة مثلثة النون: الوسادة الصغيرة.

(٤) ما تستتر: ما موصولة فاعل أصار. والمعنى أن الذي تستتر به من الثياب ممزق خلق صيرها كالعارية.

رَقَّةٌ ، فَقَطَعَتْ عَلَى مُرِيَّةَ الْكَلَامَ بِأَنَّ قَالَتْ : يَا أُمَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ !
 اتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَدْخُلَكَ رَأْفَةٌ بِهَذِهِ الْمَلْعُونَةِ فَتَنْبَوْنِي مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ !
 ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى مُرِيَّةَ فَقَالَتْ لَهَا : بَكَ فِدَامَ مَا أَنْتِ فِيهِ يَا مُرِيَّةُ !
 كَأَنَّكَ نَسِيتِ دَخُولِي عَلَيْكَ بِحَرَآنَ^(١) وَأَنْتِ جَالِسَةٌ بِصَخْنِ دَارِ مَرْوَانَ
 عَلَى هَذَا النَّمَطِ ، وَتَحْتَهُ هَذَا الْبِسَاطُ ، وَعَنْ يَمِينِ نَمَطِكَ وَيَسَارِهِ هَذِهِ
 الْمَنَارِقُ ، وَعَلَيْهَا أُمَهَاتُ أَوْلَادِ جَبَابِرَتِكُمْ ، وَقَدْ مَثَلْتُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ
 الَّذِي أَنْتِ فِيهِ مَائِلَةٌ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ فِي اسْتِيْهَابِ جُثَّةِ
 إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ^(٢) مِنْ مَرْوَانَ^(٣) لَعَلَّا يُمَثَّلَ بِهِ ، وَقَوْلِكَ وَأَنْتِ
 كَالْحَلَّةِ^(٤) فِي وَجْهِهِ : مَا لِلنِّسَاءِ وَالِدُخُولِ فِي أُمُورِ الرِّجَالِ ! ثُمَّ أَمَرَتْ

(١) حَرَآنَ : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَهِيَ قَصْبَةُ دِيَارِ مِزَر . فَتَحَتْ أَيَّامَ
 عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، عَلَى يَدِ عِيَاضِ بْنِ عُثْمَ ، وَبِهَا قَبْرُ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ . قَالَ سَدِيف :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي جَلْدًا فَضَعُضُنِي قَبْرَ بَحْرَانَ فِيهِ عَصْمَةُ الدِّينِ

(٢) هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، زَعِيمُ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .
 انْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُ وَوَجَّهَ أَبَا مُسْلِمَ الْخُرَاسَانِيَّ وَالْيَا عَلَى شِيعَتِهِ بِخُرَاسَانَ ، ثُمَّ قُبِضَ
 عَلَيْهِ مَرْوَانَ بْنُ مُحَمَّدٍ وَبِجَنَّةِ بَحْرَانَ وَقُتِلَ فِي الْحَبْسِ .

(٣) وَقَوْلِكَ : مَعْطُوفٌ عَلَى دَخُولِي عَلَيْكَ .

(٤) كَالْحَلَّةِ : مَائِلَةٌ .

بإخراجي من دارك بغلظة ، فلجأت إلى مروان فوجدته على حالٍ أشدَّ تعظفا على رَحِمِهِ منك . وقال لي : لقد ساءتني وفاة ابن عمي وما دبرتُ المثلَّةَ ^(١) [به] وقد خيرني بين إطلاق تجهيزه له وبين تسليمه إلي ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلته منه .

قال إبراهيم : فالتفتتُ مَريَّةً إلى زينب فقالت لها : كأنك يا بنت سليمان حذتِ لي عاقبةَ أمرى في قطيعتي رَحِمِي ، فأردتِ أن تزَيِّنِي قطيعةَ الرَحِمِ لأُمِّ أمير المؤمنين ! ثم التفتت إلى الخيزران فقالت : قد صدقتُ زينبُ فيما ذِكرت عني ، وذلك الفعلُ مني أحلاني هذا هذا المحل . والسعيدُ من اتعظ بغيره . وانصرفت .

فبعثت إليها الخيزران ما أعاد إليها [حالها] وكفَّ اختلالها .

* *

وحدثني يوسفُ بنُ إبراهيم والدي ، أنه سمع بطوس رجلاً ^(٢) يُحدث إبراهيم بن المهدي : أن نقفور ^(٣) الملك لما تأذى

(١) المثلَّة : التمثيل بالقتيل والتنكيل به .

(٢) رجلا : سيأتي في هذه القصة أن اسم هذا الرجل بطوس .

(٣) كان أبي أن يدفع الخراج إلى الرشيد فخاربه الرشيد وخرَّب بلاده ثم صالحه على خراج يحمله إليه في كل سنة ، ومات نقفور سنة ١٩٣ بعد أن حكم سبع سنين .

إليه الخير ب وفاة الرشيد ، جعل ذلك اليوم عيداً للروم ، ثم جعل عيداً أعظم منه في اليوم الذي تأدى إليه وقوع الشرّيين مجدّ الأمين^(١) والمأمون ، ثم عيداً ثالثاً في الوقت الذي بلغه خروج أبي السرايا^(٢) ، ثم خرج إلى البرجان^(٣) ليُحاربهم فقتل . فسأل بطارقة^(٤) الروم

(١) هو محمد الأمين الخليفة العباسي ، بويغ بالخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد سنة ١٩٣ هـ وبعده منه ، وقد أعلن سنة ١٩٥ خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فكان هذا سبباً في وقوع حرب بينهما انتهى أمرها بتغلب المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ

(٢) أبو السرايا : هو السري بن منصور ، كان في أول أمره يكرى الحمير ، ثم قوى حاله فجمع عصاة لقطع الطرق ، فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون اشترك فيها قائداً وخوطب بالأمير ، ثم شق عصا الطاعة في عهد المأمون واستولى على بعض البلاد ، ولم يزل شرّه يعظم وأمره يستفحل إلى أن قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ (الأعلام جزء ١)

هذا ، وفيما يذكره المؤلف خطأ تاريخي لأن نقفور مات في السنة التي مات فيها الرشيد ، فلم يكن حياً حينما وقع الشرّ بين الأمين والمأمون سنة ١٩٥ ، ولم يكن حياً حينما خرج أبو السرايا على الدولة العباسية سنة ١٩٩

(٣) البرجان : صنف من الروم .

(٤) بطارقة : جمع بطريق : القائد من قواد الروم .

بطريقهم^(١) اختيار رجل ليقبَل مملكتهم فاتفق معهم على رجل من أبناء العرب يقال له اليون، فلكوه^(٢). وكان ذاك نكايه^(٣) فدفع عنهم وقدة^(٤) البرجان، وقوى اليون على ضبط المملكة، وكانت الروم في أيامه أعزّ منها في أيام تقفور، إلا أنهم أنكروا عليه بسط اليد بالهبات والعفو عن أسرى المسلمين.

ثم اجتمعت البطارقة الاثنا عشر في مجالس على نبيذ لهم، فتذاكروا أمره واستشنعوا فعله. وكان أغلظهم كدحا عليه^(٥) ميخائيل البطريق^(٦) الذي ملكهم وملكهم امرأة بعده^(٧). فبلغ اجتماعهم وما قالوا

(١) بطريقهم : يراد به القائد الأكبر .

(٢) لم يكن اليون من أبناء العرب . والذي تزعمه الروم هو أن تقفور من أبناء العرب .

(٣) نكايه : فتك وكيد .

(٤) وقدة : حدة ، بطش .

(٥) كدحا عليه : سعيًا في الكيد له .

(٦) مات سنة ٢٠٩ بعد أن حكم تسع سنين .

(٧) الذي ملك بعده ابنه نوفيل، ولما مات في سنة ٢٢٧ ملكت الروم زوجته وابنها ميخائيل .

اليون . فوجه في يوم سبت إلى ميخائيل فأحضره ثم دعا بتليس^(١)
من شعر بطول ميخائيل فأدخل رجلاه في قرارة التليس ، ثم أمر بالتليس
فرفع وأقيم ميخائيل فبلغ رأس التليس إلى رأسه . ثم أمر أن يُحشى
رملاً فحشى ، فبلغ الرمل فم التليس . ثم أمر نحيط بشعر جمّة^(٢)
ميخائيل ، ودعا الطبّاخين فأمرهم أن يُعدّوا له طعاماً كثيراً مثل ما يُعدّ
في الأعياد ، ثم قال للبطارقة ، وميخائيل بين يديه على تلك الحال : إذا نحن
تقرّبنا^(٣) في غد ألقيت ميخائيل في البحر . ثم تغدينا وجعلناه يوم سرور .
قال بطرس : فاجتمع البطارقة بعد أنصرفهم من عنده ، وقالوا :
هذا العربي قد امتدت يده إلى ميخائيل ، ونحاف أن يجترئ على
كافّتنا . فاجتمعوا على الاشتمال على سيوفهم ، والدخول إليه وقتله .
ففعّلوا ذلك . ثم جلسوا للمشاورة فيمن يُنصب بمكانه ، واستشرف كل
واحد منهم إلى أن يكون ملكاً . فقال أحدهم لسائر الجماعة : الصواب
أن تملكوا ميخائيل ، فإنه يرى أنكم أنعمتم عليه بالحياة . فاستشرفوا
إلى ذلك ، وراوا موضع السداد منه ، فأخرجوه من التليس وغسلوه ،

(١) تليس : كيس .

(٢) جمّة : مجتمع شعر الرأس .

(٣) تقرّبنا : قدّمنا القرايين .

وأحضروا البَطْرِيقَ ^(١) وثيابَ الْمَلِكِ فألبسوه إياها ، وأعلموه أن اليونَ قد قُتِلَ وملَّكوه عليهم .

ثم صاروا إلى مجلسِ الملكة والموائد منصوبة ، فقالوا له : تَغَدَّ أيُّها الملكُ بالطعام الذي دبرَ اليونُ أن يأكله بعد قتلك ! فقال ميخائيلُ : عارٌ بالملك أن يَطْعَمَ طعاماً ، وفي عنقه يدُ لإنسان من أوليائه ورعيته ، قبل أن يكافئه عنها ، وقد أحيتتموني بعد موتى ، ولستُ أَطْعَمُ طعاماً حتى يُخَبِّرَنِي كُلُّ إنسانٍ منكم بجميع حوائجه في مُدَّةِ عُمُرِهِ . فقال كُلُّ واحدٍ منهم ما تنهى إليه أمله ممَّا يصل ميخائيلُ الملكُ إليه . فقضى جميعَ حوائجهم . وسأله الأكلَ ، فقال : قد فرغنا ممَّا يجب لكم ، وبقي [ما] لله وللملك اليون ، ولا يَحْسُنُ بِي أن آكُلَ حتَّى أفعلَ ما يجب لهما . ثم قال للبَطْرِيقِ ^(٢) : ما جزاءُ مَنْ منعَ ملكاً عليه مِنْ شَمِّ النسيمِ وروحِ الحياة ؟ قال البَطْرِيقُ : يُمنَعُ النسيمُ وروحُ الحياة . فقال لهم : قد حكمَ عليكم البَطْرِيقُ بما لا يجوزُ خلافه . وأمر بضرب أعناقهم وابتدأ بطعامه .

*
* *

(١) البَطْرِيقُ : أى البَطْرِيقُ الأكبر .

(٢) للبَطْرِيقِ : لعله يريد كبير البطارقة .

ومما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعالّمه ^(١) العرب : أنّ
ملك الحبشة لما غلب على مملكة سيف بن ذى يزن ^(٢) خرج إلى
كسرى مستصرخاً إليه مستجيراً به عليه . وكان ملك الحبشة يُجْرى
على ترجمان كسرى رزقا مُثيباً على تحريف دعوى المتظلمين منه .
وكان لكسرى يومٌ في كلّ شهرٍ يركب فيه ويقرب من عامته ، ومن
لا يصل إليه ممن انتجعه ^(٣) . فتوخى سيف بن ذى يزن ركوبه في ذلك
اليوم ، فلما رآه قال : أسعد الله الملك ، أنا سيف بن ذى يزن ،
أغار على مملك الحبشة بفِرط تعدّيه وسوء جواره فأخرجني من مملكة
عمرتها أنا وآبائي مذ أكثر من مائتي سنة ! وأنا أسأل الملك أن يُجِدني
عليه ويردّني بطوله ^(٤) إلى مملكتي ومملكة آبائي .

(١) تعالّمه : علمه .

(٢) من ملوك الإيمانيين ودماتهم ، ولد ونشأ بصنعاء ، ولما غزا بلاده
ملك الحبشة مسروق بن أبرهة استنجد بقيصر ملك الروم فلم يلتفت إليه ، فقصد
النعمان بن المنذر فأوصله إلى كسرى أنوشروان فساعده ونصره على الحبش ، وأبقى
سيف جماعة منهم لإشفاقا عليهم فأتمروا عليه وقتلوه بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة .

(٣) انتجعه : قصده .

(٤) بطوله : الطول ، الفضل والقدرة والغنى والسعة .

فسأل التَّرجُمانَ عن قوله ؛ فقال يقول : أنا رجل من جِلَّة^(١) العرب
وقد اختلَّت حالى ؛ واضطرب شَملى لشدَّة الفاقة ؛ وقد قصَدْتُ
الملك مُستَتراً به^(٢) ؛ ومُستَميراً منه . فأمرَ له بجائزة ، فرأى سَيْفُ بنُ
ذِي يَزَنَ مالا يُشْبِهُ ما ابتدأه به . وصَبَرَ إلى اليوم الذى يسهل فيه كلامه ،
وانتظره فيه . فلما رآه قال : أنا (أيد الله الملك) ذو نعمةٍ وكفاية ،
وإنما وَفَدْتُ على الملك لأقتبسَ من عزِّه ؛ وأنتصرَ بقوته . فسأل
التَّرجُمانَ عما قال . فقال : يقول أُمِرْتُ بما يَقْصُرُ عن حاجتى . فأمرَ
له بجائزةٍ أخرى . فوقف على تحريف التَّرجُمانَ لكلامه ؛ فانتظره
فى اليوم الثالث ، فلما رآه قال : أيد الله الملك ! إنَّ الغادرَ . . . !
فأدَّى^(٣) إليه هذا الحرف فقال^(٤) الخائن . فرأى فى وجه
الملك الاستفهام . فقال : الكذاب . فأشار إليه الملك بيده : مَنْ
هُوَ ! فأومأ إلى التَّرجُمان . فأحضر الملك تَرْجُماناً آخرَ فقَصَّ عليه قصَّته
فضرب عُنُقَ التَّرجُمانَ وأحسن تلقى سيفِ بنِ ذِي يَزَنَ لما تبيَّن منه

^(١) جِلَّة : يقال : جليل من جِلَّة ، ويقال قوم جِلَّة أى عظماء سادة
ذوو أخطار .

^(٢) مُستَتراً به : محتمياً به .

^(٣) فأدَّى : أى التَّرجُمان .

^(٤) أى سيف بن ذِي يَزَنَ .

فى التأتى لإفهامه . ثم أحضره مجلسه . فسأل عن مقدار حاجته .
وما الذى يؤثره من أصناف الناس . فقال له : أسأل الملك أن يطلق
لى من محابسه الكهول ، فانهم أصبر فى المعارك ، واسمح بالنفوس .
فأطلق له جملة من [فى] الحبس كهولاً بأسرهم ، فحملهم فى مراكب
وركب معهم حتى وائى مملكته . فلما نزل جميعهم أحرقت المراكب
واعتمد ^(١) ذلك سراً منهم ، فلما نظروا إلى المراكب قد احترقت .
قال للرجال : إنه لا يحسن بكم التعذير ^(٢) فى القتال فتهلكوا ، ولكن
جدوا جد من لانبجاة له فى البحر . فجرد الجيش العناية ، وصدقوا حتى
برزوا ^(٣) على من أقام بمملكته ، واحتازوا له طائفة كبيرة من أرض
الحبشة ، وقهر ملكها واتق جانبه .

*
* *

(١) اعتمد : قصد .

(٢) التعذير : عذر تعذيرا : لم يثبت له عذر ، والمعنى لا يحسن بكم محاولة اعتذار
لا يفيد .

(٣) برزوا عليهم : غلبوهم وفاقوهم ، وفى الأصل : بزوا .

وحدثني هارون بن مَلُول . قال :

تَقَلَّدَ أبو الوزير خَالُ أَبِي أَيُوبَ ^(١) الخَرَاجَ عَلَى حَالِ اضْطِرَابٍ مِنَ
الْأَوْلِيَاءِ ^(٢) ، وَاسْتَعْمَلَ مِنْ فَرَطِ الْإِسْتِقْصَاءِ عَلَى أَرْبَابِ الْخَرَاجَاتِ ،
وَإِنْخِرَاجِ الْبُقُوطِ ^(٣) عَلَيْهِمْ ^(٤) مَا ثَقُلَتْ بِهِ وَطَأَتُهُ عَلَى النَّاسِ . وَكَانَ لَهُ
كَاتِبٌ (ذَهَبَ عَنِّي اسْمُهُ) فِي النِّهَايَةِ مِنَ الْجَزَالَةِ ^(٥) وَالضَّبْطِ ، وَكَانَ
يُعْزَى إِلَيْهِ أَكْثَرُ صَنِيعِ أَبِي الْوَزِيرِ . فَقَالَ لِي هَارُونُ : فَقَصِّدْهُ جَمَاعَةً
مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فَأَحْسَ بِالْشَّرَفِ فِيهِمْ ، فَأَغْلَقَ الْبَابَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ تَأَمَّلَهُمْ حَتَّى
عَرَفَهُمْ فَكَتَبَ بِفَحْمَةٍ ” يَا سَيِّدِي ! قَتَلَنِي فُلَانٌ وَفُلَانٌ ” وَسَمَّى
جَمَاعَةً رُؤَسَاءَهُمْ . وَكَسَرُوا الْبَابَ وَدَخَلُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ .

(١) هو أحمد بن محمد ولَّاه ابن طولون الخراج في أول عهده بمصر .

(٢) الأولياء : من يتولون أعمال الوالي .

(٣) البقوط : جمع بقط ” كسهم ” وهو أن تعطى الرجل البستان لينزعه على
أن يكون له الثلث أو الربع من غلته .

(٤) عليهم : أى الباقية عليهم .

(٥) الجزالة : حدة العقل وإصالة الرأي .

وركب أبو الوزير حتى شاهده ثم تأمل حائط مجلسه ، فوجد
الكتاب بالفحمة فقبض عليهم فصدّقوه ^(١) ، وقتلوا به .

*
* *

وكان لرجلٍ من جِلّةِ كُتّاب الجيش بمصر يُعرَف بابن الأبرد
رغبةً في وصفه بالنصح في أعمال السلطان . ولا بَسَهُ ^(٢) محمدُ
ابنُ أبا [القائد] ^(٣) فقدّم العناية به والتعصّب له ، ومكّن له عند تُمارويه
مَحَلًّا ردّ إليه بعض أعماله من الخراج ، واحتاج فيه إلى كاتبٍ يحملُ
عنه ، فارتاد رجلاً يُعرَف بنصر بن القاسم يُخلف [ابن الأبرد] ^(٤) فيما
أسند إليه . فكان ^(٥) يسعى به إلى كاتب تُمارويه ، فكتب يوماً

(١) فصدّقوه : في الأصل فصدقوا عنه .

(٢) لابسهُ : خالطه ، وعرف باطنه .

(٣) كان محمد بن أبا من كبار قواد ابن طولون ، أرسله مع جماعة من قواده
إلى الاسكندرية لينصح ابنه العباس حينما خرج عليه ، وكان أحد القواد الذين
وصى ابنه أبا الجيش بطاعتهم عندما استخلفه على البلد وذهب إلى الشام للقاء
الخليفة المعتمد ، وبقى محمد بن أبا على إخلاصه وولائه لابن طولون إلى أن مات .
(٤) هنا إظهار في مقام الإضمار ، والمألوف أن يقول : يخلفه فيما أسند
إليه .

(٥) فكان : أي نصر بن القاسم .

رُقعةً تشتمل على ما كَرِهه ابنُ الأبردِ من التغميز به ^(١) والانتقاص له . ويشير فيها بأشياء تُفسدُ محلّه ! وبَعثَ بها إلى كاتبِ نُمَارويه ؛ فغَاطَ الغلام وجاء بها إلى ابنِ الأبرد ، فاستعرض فيها أشياء قبيحةً وفارق الكاتب .

ورأى ^(٢) الكاتبُ أنّه قد أحرز بما أتاها من السعاية مكانةً عند كاتبِ نُمَارويه . وقُتِلَ نُمَارويه وثبتت يدُ كاتبةٍ على الأمر ؛ فرام نصرُ بنُ القاسم أن يدخلُ في جملته ؛ فامتنع من ذلك وقال : مَنْ سعى إلينا سعى بنا . فمات نصر بنُ القاسم كمدًا .

*
* *

وسمعتُ سعدَ بنَ عبدِ الله بنِ عبدِ الحَكَمِ ^(٣) يقول : وَجَدَ في أخبارِ مصرِ المُسنَدَةَ ؛ أنّ عَمْرَو بنَ العاصِ ^(٤) عند تغلبه على

(١) التغميز به : غمز (بالتخفيف) بالرجل سعى به شرا .

(٢) ورأى الكاتب : وظنّ الكاتب .

(٣) في الأصل : سعيد بن عبد الله بن الحكم .

(٤) عمرو بن العاص : هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم ، وكان له شأن عظيم في الخلاف بين عليّ ومعاوية ، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ (الأعلام جزء ٢)

مصر، كان يتنكر ويخرج وحده متشبهًا بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين . فمادى به السير راجلاً حتى لحق بطرف من الفسطاط فرأى جماعة قد التأمّت على سوء فيه^(١) . فقال لها : اعملوا بى كلّ ما تُؤثرون من سوء ولا تردوني إلى يد الأمير ! فإنى هربت منه . فقال بعضهم ردّوه إلى يد الأمير فإنه يقتله ويكون لكم بذلك عارفةً عند الأمير . فساقوه إلى دار الإمارة فأخذ يتضوّر^(٢) ويتأبى فى سياقته حتى قُرب من الدار ، فقام إليه الشرط^(٣) فقال : لا يفوتنكم منهم أحد ! فجمعوا له فأتى على آخرهم ولم يعاود التنكر .

* * *

وكنْتُ أعرف شيخاً فى أيام نُمَارويه ، حُلُو النادرة ، مليح الألفاظ ، يعرف بالدِفَاتى . وكان معاشه من التوصل بكتب الولاءة إلى معاملهم^(٤) . فحدثنى أنّه خرج بكتب إلى الشرقية ، فالتقى مع رجلٍ فى زى بعض المائنة^(٥) من الأطباء ، وهو على حمارٍ

(١) فرأى جماعة الخ : أى فرأى جماعة التقت حوله لإيقاع الشر به .

(٢) يتضوّر : يتلوى ويضطرب .

(٣) الشرط : هم أعوان الوالى وحفظة الأمن الواحد شرطى .

(٤) معاملهم : من يعملون تحت إمرتهم .

(٥) المائنة : هم أتباع ماني بن فاتك ويقال لهم الماتومة أيضا .

بُخْرَجَيْنِ ، وَكُنْتُ عَلَى حِمَارٍ ، فَاسْتَخْبَرْنِي عَنْ صِنَاعَتِي ، فَتَحَسَّنْتُ
عِنْدَهُ ^(١) بِأَنْ قُلْتُ : أَنَا تَابِعٌ فِي الْغَلَّاتِ . فَطَمَعَ فِيَّ ، وَكَانَ مُبَنِّجًا . فَقَالَ
لِي : هَذَا مَوْضِعٌ طَيِّبٌ ، فَلَوْ أَكَلْنَا فِيهِ ! فَقُلْتُ . ذَاكَ إِلَيْكَ .
فَأَخْرَجَ مِنْ أَحَدِ بُخْرَجَيْهِ رَغِيفَيْنِ مَشْطُورَيْنِ ^(٢) ، فَوَضَعَ أَحَدَهُمَا بَيْنَ
يَدَيَّ وَالْآخَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ أَخَذَ كَوْزًا مَعَهُ وَمَضَى يَسْعَى بِهِ . فَشَرِهَتْ
نَفْسِي إِلَى الرَغِيفِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَبْدَلْتُهُ حَتَّى صَارَ بَيْنَ يَدَيَّ ،
وَصَارَ رَغِيفِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَاءَ بِالْمَاءِ ، وَابْتَدَأَ بِالْأَكْلِ فَمَا ابْتَلَعَ لُقْمَةً
حَتَّى شَخَصَ بَصَرُهُ وَتَمَدَّدَ . وَاجْتَازَ بِنَا جَمَاعَةٌ فَقَالُوا : مَالِصَاحِبِكَ
قُلْتُ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ ! فَقَالُوا لِي : أَنْتَ مُبَنِّجٌ بَنَجْتَ هَذَا الْمُسْكِينَ !
وَسَاقُونِي .

فَكَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ أَنَّ خَلِيفَةَ مُوسَى بْنِ طُونِيْقَ ^(٣) كَانَ يَبْلِدُهُمْ
وَيُجَاوِرُنِي ^(٤) يَتَقَلَّدُ الْمَعُونَةَ ، فَسَاقَنِي الْقَوْمَ إِلَيْهِ ، وَالرَّجُلُ مَحْمُولٌ مَعَنَا ،

(١) فَتَحَسَّنْتُ عِنْدَهُ : أَظْهَرَتْ حَسْنَ حَالَتِي .

(٢) مَشْطُورَيْنِ : الْمَشْطُورُ وَالشَّطِيرُ الْخِزْ عَلَيْهِ الْكَامِخُ .

(٣) فِي النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ابْنُ طُونِيْقٍ بِالرَّاءِ . وَمُوسَى هَذَا كَانَ عَلَى شَرْطَةِ مِصْرَ آخِرَ
عَهْدِ الدَّوْلَةِ الطُّوْلُونِيَّةِ وَقَدْ قَبِضَ عَلَيْهِ حِينَ زَالَ مَلِكُهُمْ مَعَ مَنْ قَبِضَ عَلَيْهِمْ مِنْ
بَنِي طُوْلُونٍ وَأَتْبَاعِهِمْ وَسَقَى فِي الْحَدِيدِ إِلَى حَلَبِ .

(٤) يُجَاوِرُنِي : يُعْطِفُ عَلَيَّ وَيُؤَاوِسُنِي .

وهم يقودون الحمارين ، وقالوا له : هذا مَبْنِجٌ وجدناه! فلما رآني ضحك إلى وقال : متى تعلّمتَ التبنيج ؟ قلت : اليوم ، وقصصت عليه خبري ، وأخرجت كتابَ موسى بن طونيق في برّي ، ففتّش نُرْجَه فوجد فيه شطائرَ تَبْنِيجٍ وشطائرَ خالية ، ووجد معها أوتاراً للختق وأجاراً للشّدخ ، فشَدخ رأسه بها ، وخنقه بتلك الأوتار حتى

[فَاظ ^(١) .]

وإذ وَفَّينا ما وعدناك به من أخبارِ المكافأة على الحَسَن والقيح ما رجونا أن يكونَ ذلك عوناً للاستِكار من مُواصلةِ الخير ، وَتَطَلَّب العارفة في الحَسَن . وَزَجَرَ النفس عن مُتابعة الشرِّ ، وإبعادها عن سورة الانتقام ^(٢) في القبيح . وقد قالوا : الخير بالخير والبادئُ أخيرُ ، والشرُّ بالشرِّ والبادئُ أظلمُ ؛ رأيتُ أن أصلَ ذلك (حِفْظُكَ اللهُ) بِطُرْفٍ ^(٣) من أخبارٍ من ابتلي فصبر ، فكان ثمرةُ صبره حُسْنُ الْعُقْبَى ، لأنَّ النفسَ إذا لم تُعَن عند الشدائد بما يُجدد قواها تولَّى

(١) فَاظ : مات .

(٢) سورة الانتقام : حدّته وشدّته .

(٣) بطرف : جمع طرفة ويصح أن تقرأ بطرف (بالتحريك) أى يجزء .

عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الإنسان أنَّ سُفُورَ الحِالةِ عن ضِدِّها
حَتْمٌ لَا بُدَّ عَنْهُ . كما علم أنَّ آنْجِلَاءَ اللَّيْلِ يُسْفِرُ عَنْ النَّهَارِ . وَلَكِنْ
خَوَرَ الطَّبِيعَةُ أَشَدُّ مَا يَلْزِمُ النَّفْسَ عِنْدَ نَزُولِ الْكَوَارِثِ ، فَإِذَا لَمْ
تُعَالَجْ بِالدَّوَاءِ اشْتَدَّتِ الْعِلَّةُ ، وَازْدَادَتِ الْمِحْنَةُ . وَالتَّفَكُّرُ فِي أَخْبَارِ
هَذَا الْبَابِ مِمَّا يُشْجِعُ النَّفْسَ وَيُبَعِّثُهَا عَلَى مُلَازِمَةِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ
الْأَدَبِ مَعَ الرَّبِّ (عَزَّ وَجَلَّ) بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي مَوَاتَاةِ الْإِحْسَانِ
عِنْدَ نَهَايَةِ الْامْتِحَانِ .

وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

حُسْنُ الْعُقْبَى

[ومِمَّا سَمِعْتُهُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ الْأَنْخَبَارِيِّ لَمَّا مَاتَ أَبُوهُمَا ، وَكَانَ مِنْ رِجَالِ دَوْلَةِ الْمُتَوَكِّلِ ، هَمَّ الْمُتَوَكِّلُ بِمُصَادَرَةِ أَمْوَالِهِ . فَعَزَمَا أَنْ يُجْعَلَا هَا وَدِيعَةً عِنْدَ شَيْخٍ كَانَا يَرِيَانِ فِيهِ الصَّلَاحَ وَحُسْنَ الْمَذْهَبِ ، فَكَانَا يَبْعَثَانِ إِلَيْهِ ^(١)] بِالشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ مِمَّا تَخْلَفُ عَنْ تِلْكَ الْوَدِيعَةِ . وَعَجُوزٌ تَخْتَلِفُ ^(٢) بِذَلِكَ ، هَا وَلَدٌ يَتَشَطَّرُ ^(٣) وَيَلْعَبُ بِالْحَمَامِ . فَوَرَدَتْ عَلَيْهِمَا بَذْرَةٌ ^(٤) دَرَاهِمَ ، وَقَدْ أَتَتْهُمَا بِهَا السَّعْيُ فِي الْإِيْدَاعِ ^(٥) . فَقَالَا لِلْعَجُوزِ : صِيرِي بِهَا إِلَى ابْنِكَ مَعَ هَذَا الْغَلَامِ حَتَّى تُودِعِيهَا لَنَا عِنْدَهُ ، فَمَضَتْ بِهَا ، وَالْغَلَامُ مَعَهَا .

(١) أَضَفْنَا الْعِبَارَةَ الَّتِي بَيْنَ قَوْسَيْنِ لِيَتَسَقَّ نِظَامُ الْحِكَايَةِ ، وَقَدْ كَانَ فِي مَوْضِعِهَا بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ .

(٢) تَخْتَلِفُ : تَتَرَدَّدُ .

(٣) يَتَشَطَّرُ : يَعْمَلُ عَمَلَ الشَّطَارِ ، وَهَمُّ اللَّصُوصِ .

(٤) بَذْرَةٌ : كَيْسٌ فِيهِ أَلْفٌ أَوْ عَشْرَةُ أَلْفٍ دَرَاهِمَ .

(٥) أَتَتْهُمَا بِهَا السَّعْيُ فِي الْإِيْدَاعِ : كَانَ هَذَا أَنْعَرَمَا يَرِيدَانِ إِيْدَاعَهُ .

[قالاً^(١)] فحدثنا الغلام قال : صرنا إليه ، وقد فتح باب البرج وأخرج فراخاً زغباً ، وهو ينظر إليها ، فأدبنا الرسالة إليه . فقال : ليس لي خزانة ولا صندوق ، ولكن أجعلها في هذه المحضنة^(٢) الخالية من البرج . قال : فعلت وانصرفت . فأجمعنا^(٣) على أنه يمزقها مع الغلمان وسباق الحمام .

ثم صلح ما كان التآ^(٤) من أمرنا ، واطمأنت نفوسنا مما كان أخافنا ، فبعثنا فيما كنا أودعناه الشيخ ، فقال للغلام : غلطت بي ، وليست الرسالة إلى . فلما رجع بالجواب إلينا تحيرنا وركبنا إليه ، فاستمر في الجحود وتضاحك مما لقيناه به ، ورجعنا وقد لحقنا من فقد الودعة أكثر مما كنا نخافه من النكبة^(٥) . وميلنا^(٦)

(١) زدنا ما بين القوسين ليتسق الكلام .

(٢) المحضنة : المكان الذي يحضن فيه الطائر البيض .

(٣) فأجمعنا : في الأصل جمعنا .

(٤) التآ : اختلط واضطرب .

(٥) النكبة : أى في أموالنا بمصادرتها .

(٦) ميلنا : ميل بين الشيئين ومايل : وازن .

بين مُطالبته بما نذبه به ^(١) على مقدار ما أودعناه ، ونُطمعُ من خِفناه ،
وبين الإمساك عنه ، وتربّص ^(٢) الأيام به ، فالت نفوسنا إلى الإمساك
لما اجتمعت لنا الضمائر المغادرة للعدل ^(٣) . واجتازت بنا العجوزُ
فقلت : قد ردّدنا ما أودعناه ^(٤) وبقي أبني . واقتضت ^(٥) الغلام
يحملُ البدرة ، فبعثنا به معها .

فحدّثنا الغلام قال : وافيناه بين يدي البرج فأدّت العجوزُ إليه
الرسالة . فقال للغلام : ادخلُ نَحْذُها من المِحْضَةِ التي خلّفتها فيها .
فصار بها إلينا الغلامُ ، وعليها ذَرَقُ ^(٦) الحمام ، فوزناها فوجدناها

(١) بما نذبه به : الباء للتصوير أى بين مطالبته المصوّرة بأنها تؤدى إلى تنبيه
الحليفة إلى ما أودعناه خفية .

(٢) تربّص : انتظار .

(٣) لما اجتمعت لنا الضمائر الخ : يقول آثرنا الإمساك عن الشكوى حينما
اجتمعت لمناواتنا النفوس التي نبذت العدل والإنصاف . وفي الأصل : الصغائر
وقد رجّحنا أن تكون الضمائر .

(٤) قد ردّدنا ما أودعناه : اعتقدت العجوز أنهما استردا وديعتهما التي كانت
عند الشيخ لأنهما لم يخبراها بخبره .

(٥) واقتضت الغلام الخ : أى وطابت منا أن تذهب مع الغلام ليحمل البدرة .

(٦) ذرق الحمام : نجوه ، وفعله من بابى نصر وضرب .

على ما كانت عليه ، فكثُر تعجُّبنا من أمانته وأخرجنا من البَدْرَةِ
ألفَ درهمٍ وتقدَّمنا إلى الغلام بالمصير بها إليه ، فرجع الغلام إلينا
فقال : رمى بها إلىَّ وشبَّني . فأثرنا ارتباطه ^(١) وقلنا للعجوز صيري به
إلينا الساعة . فوافانا ، فقلنا : انبسطنا إليك فانقبضت عنا ! فقال : الخيانةُ
(أعزكم الله) أسهلُّ من أخذِ أجرةٍ على الأمانة . فقلنا : جزاك الله
خييراً ! فقد وجدنا فيك ما لم نَجِدْه في غيرك . فقال : وتحلف عنكم
شيءٌ مما أودعتموه ؟ فقلنا : نعم ، فقال : عرفوني فإني أرجو أن
أخذه لكم بالطِّفِ حيلةٍ . فرأيناه لما فيه من فضل النفس ، وكرم
السَّجِيَّةِ أهلاً لأن نبته وجدنا ، فأخبرناه . فقال : ينبغي أن تتقدما
إلى بعض مَنْ تثقَّان به من غلمانكما أن يَتَّقِظَ ، فلعلَّ أن أُنَادِيَه
الليلةَ . فقلنا : وما تريد بذلك ؟ فقال : ما لا يجوز أن أبديَه ، وأرجو
عَوْنَ الله عليه ، والتفريجَ عنكما به ، ففعلنا ذلك ، وما يتطاول سُؤْلُنا
إلى ما أتاه ^(٢)

(١) ارتباطه : عقد الصلَّة بيننا وبينه واستخدامه فيما يحد من شئوننا .

(٢) وما يتطاول سُؤْلُنا الخ : وما كان يمتد أملنا إلى ما أتاه من الحصول
على الوديعة .

بجمع إخواناً له في عدّة كثيرة من الشُّطَّار، واقتحم على المُستودع وقال له : ما جئنا لنهيك ، ولا نتعرّض لشيء من مالك ، وما جئنا إلّا لوديعة ابني عمِّ الأَخباري ، فإن أدّيتها خرَجنا وكأنّا ما دخلنا ، وإن جحدت واعتمدت بصياح، قتلناك الساعة ، وسهل علينا عقوبتُنا فيك، وقتلنا بك ، لأنّا نُرزق الشهادة في القتل والمثوبة ، إذ كُنّا نُجاهد عمّا اخترلته ^(١) . وضرب إلى لحيته ^(٢) وأنجَله . فقال : هي في هذه الخزانة، ودعا بغلامٍ فقال : ائْخِرج جميع ما [أودعناه ابنا] عمِّ . فأخرج سَفْطاً كان فيه جواهر ، وسَفْطاً فيه أثواب وشي مُذهبة صحاحا ، وبدورا ^(٣) فيها مال . فقال : والله لئن خلّفت شيئا لنُطْلَنَ ^(٤) دمك ، ولئن كنت أدّيت الأمانة لنكونن أولياءك ، والمُقيمين بأمرِك .

فوافي باب منازلنا ، فصاحوا بالغلام ، وهم يحملون الوديعة ، فوضعوها بين أيدينا وحدّثونا بحديثهم ، وقالوا : استعرضوا وديعتكم

(١) اخترلته : اقتطعته لنفسك .

(٢) وضرب إلى لحيته : أي وضرب ابن العجوز الشيخ موجها الضربة إلى لحيته .

(٣) وبدورا : جمع بدرة .

(٤) لنطْلَنَ : لنهدرن دمك .

فنحن في الدهليز حتى تفرُّوا ونُخبرانا : هل بقيَ منها شيء أم لا^(١) !
فلما عرضناها على ثبَّتْها^(٢) عندنا ، ما^(٣) غادرت شيئاً منه ، وعادت بما
ردَّ إلينا نعمتنا ، وانحسمت فاقتنا ، ولم نجد في الجماعة من قبل شيئاً
مما بذلناه ، وانصرفوا .

*
* *

وحدَّثني أحمد بن أيمن ، قال :

كنت أكتب في حدائقي للعبَّاس بن خالد البرمكي . وكان طويلَ
اللسان^(٤) ، مخشَّ الغضب . فإني لجالس بين يديه في داره بمدينة السلام
حتى دخل علينا شابٌ حسنُ الصورة ، رثُ الهيئة ، فأكبَّ عليه^(٥)
فقال : ألسنت ابن فلانٍ صديقنا ؟ فقال : نعم يا سيدي ! فقال :
قد كان حسنَ الظاهر ، جميل الهيئة ، فما بلغ بك إلى ما أرى ؟

(١) هل بقي الخ : التعبير السائق : أبقى منها شيء أم لا ؟

(٢) ثبَّتْها : الثبت : الدفتر أو القائمة .

(٣) ما : في الأصل فما .

(٤) طويل اللسان : يقصد المؤلف بطول اللسان ذرايته وقوة حجته

(٥) فأكب عليه : أقبل واتجه .

قال : كان تَجَمُّهُ أَوْفَى من عَائِدَتِهِ ^(١) وتَوَفَّى فَكُنْتَ أَتْبَلَّغَ بما يستعمله المَوْفَى على جَاهِهِ ^(٢) ، إلى أن خان طبعى البارحة ولم أَطُقْ سَتْرَ مَا بِي ، فقَصَدْتُكَ . فدعا بمائة درهم وقال : تَمَسَّكَ ^(٣) بهذه إلى أن أنظر لك فى عَائِدٍ عَلَيْكَ من الشُّغْلِ ^(٤) .

فلما قام من عنده قال لَغُلَامٍ يَثِقُ بِهِ : قُصَّ أَثَرُ هَذَا الْفَتَى ، فانظُرْ مَا يَبْتَاعُهُ بهذه الدراهم ، وَأَخْصِصْهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَدْخُلَ مَنْزِلَهُ ، وَأَعْرِفْ الْمَنْزَلَ وَصِرْ إِلَى . فرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا سَيِّدِي ! هَذَا غُلَامٌ عَيَّارٌ ^(٥) ابْتِاعَ بَنِيْفٌ وَثَلَاثِينَ دِرْهَمًا سَمِيذًا ^(٦) وسكرا وعسلا ولحما كثيرا وحوائج الأعراس ، وأخذ طبَّاخًا من طبَّاخِي الْأَعْرَاسِ ، وَأَحْسَبُ أَنَّ عَنْدَهُ دَعْوَةً ، وَقَدْ عَرَفْتُ مَنْزِلَهُ ، فَقَالَ : دَعِهِ . X

(١) كان تَجَمُّهُ الْخ : كانت مظاهره أعظم من موارده .

(٢) أَتْبَلَّغَ بِمَا يَسْتَعْمَلُهُ الْخ : اكْتَفَى مِنَ الْقُوَّةِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْمَشْرِفُ عَلَى نَهَايَةِ جَاهِهِ .

(٣) تَمَسَّكَ بِهِذِهِ : أَمْسَكَ بِهَا رَمَقًا .

(٤) فِي عَائِدٍ عَلَيْكَ الْخ : أَى فِيمَا يَعُودُ عَلَيْكَ نَفْعُهُ مِنَ الْعَمَلِ .

(٥) عَيَّارٌ : الْعَيَّارُ فِي اللُّغَةِ الْكَثِيرُ الْمُحِيءِ وَالذَّهَابِ وَالذِّكْرِ الْكَثِيرِ التَّطَوَّافِ ،

وَقَدْ اسْتَعْمَلْتَ الْكَلِمَةَ فِي النُّشَيْطِ الذِّكْرِ فِي ارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ الْمُبَاهِي بِجَرَائِمِهِ .

(٦) سَمِيذًا : السَّمِيذُ . وَبِالدَّالِ : الْحَوَارَى وَهُوَ الدَّقِيقُ الْأَبْيَضُ مِنْ خَالِصِ

لِبَابِ الْبَرِّ .

فلم تَمْضِ إِلَّا أَيَّامَ سِيرَةٍ حَتَّى وَافَى الْفَتَى ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَاسْتَثْقَلَ
 جُلُوسَهُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : يَا عَمِّي وَسَيِّدِي ! لَيْسَ يُشْبِهُ هَذَا اللَّقَاءُ
 مَا لَقَيْتَنِي بِهِ فِي الْأَوَّلَى ! قَالَ : كُنْتَ فِي الْأَوَّلَى رَاجِعًا لَصِلَاحِكَ ،
 وَأَنَا الْيَوْمَ آئِسٌ مِنْهُ . فَقَالَ : وَكَيْفَ ظَنَنْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَخْبَرَنِي
 غُلَامِي أَنَّكَ أَنْفَقْتَ إِلَى أَنْ بَلَغْتَ مَنْزِلَكَ نِيفًا وَثَلَاثِينَ دِرْهَمًا . وَكَانَ
 حَقُّكَ أَلَّا تَرِيدَ عَلَى ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ . فَقَالَ : لَوْ عَرَفْتَ خَبْرِي لَقَدَّمْتَ
 عُذْرِي . قَالَ : مَا خَبْرُكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ مَعَ تَضَائِقٍ حَالِي أَمْسِكَ نَفْسِي
 عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَأَقْتَصِرُ وَأَهْلِي عَلَى الْبُلْغَةِ ، وَأَنَا سَاكِنٌ وَأَهْلِي فِي ظَهْرِ
 دَارِ فُلَانٍ (وَوَصَفَ رَجُلًا ظَاهِرَ الْيَسَارِ مِنَ التُّجَّارِ) وَكَانَ لَهُ طَاقَاتٌ
 فِي مَطْبَخِهِ تُفَضِّي إِلَى مَنْزِلِي ، فَأَوْلَمَ وَلِيمَةً لَا أَشْكُ فِي حَضُورِكَ إِيَّاهَا ،
 فَشَرِقَ مَنْزِلِي بِرَوَائِحِ الْأَطْعَمَةِ ، وَكَانَتِ الصَّبِيَّةُ مِنْ صَبِيَّاتِي تَخْرُجُ فَتَقُولُ :
 رَائِحَةُ جَدِّي يُشَوِي ! وَأُنْحَرِي تَقُولُ : رَائِحَةُ نُقَانِقٍ ^(١) ثَقُلِي ! وَهَذِهِ تَقُولُ :
 ” يَا أَبَا أَسْتَهِي مِنْ هَذَا الْفَالُوذَجِ الَّذِي قَدْ شَاعَتْ رَائِحَتُهُ لُقْمَةً ! وَقَوْلُهُمْ ^(٢)

(١) نُقَانِقُ : وَهِيَ اللَّقَاقِقُ بِاللَّامِ أَيْضًا ، وَهِيَ الْأَمْعَاءُ الْمَحْشُوءَةُ ، يَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ
 الْكَلِمَةَ لَا تَيْنِيهِ الْأَصْلُ .

(٢) وَقَوْلُهُمْ : الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَوْلَادِهِ مِنْ بَنَاتٍ وَبَنِينَ .

يُقرِّحُ قلبي ، وأملتُ أن يدعوني فأتمجِّلَ التزليلَ^(١) لهم ، فوالله ما رآني أهلاً لذلك ! فقلتُ : ولعلَّه إذْ نَقَضْتُ عنده من منزلة من يدعون^(٢) أن يبعثَ إليَّ ؟ فوالله ما فعل ! فبتَّ بليلة لا يبيتُ بها المدُّوغُ ، فأصبحتُ في الغداة ، فكنتَ أوثقَ^(٣) في نفسي من سائر من بمدينة السلام . فلما أعطيتني تلك الدراهم اشتريتُ بها حوائجَ أصلحَ منها ما اشتهوهُ ، فأكلوا أياماً منه ، وهم يدعون الله بالإحسان إليك^(٤) ،
والمُخْلِيفُ عليك

فقال له العباس : أحسنتَ بارك الله عليك ! ثم صاح يا غلمانُ :
أمْرِجُوا لي ، وليس ثيابهُ وركبَ وركبتُ معه ، ودخلَ إلى

(١) التزليل : الزلة (بالفتح) اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك ، عراقية أو عامية . وقد صاغ المصدر هنا من زلَّ ، وقد كان يستعمل هذا الفعل في هذا العصر بصيغة المجرد . جاء في السيرة للبلوي في وصف أطعمة ابن طولون للفقراء والمستورين في كل جمعة : أنه كان يشرف على ذلك بنفسه حتى يأكلوا ، ويؤمرون ألا يخرج أحد أو يزلَّ معه ما يقدر على حمله .

(٢) من يدعون : في الأصل : من يدعوني .

(٣) فكنت أوثق : أي كنت أقوى في نفسي من حيث التأمل فيك من سائر من ببغداد .

(٤) في الأصل : في الإحسان إليك .

صاحب الصنيع^(١) فقال : دعوتنى وجماعة وجوه بغداد إلى طعام
مَقَّتَنَا اللهُ عليه، وعَرَّضْتَ نعمتنا للزوال، وأنفَسْنَا إلى احترام الأعمار^(٢) !
وقصَّ قِصَّةَ الْفَتَى ، وقال : عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَصَدِّقَ عَنْ كُلِّ مَنْ حَضَرَ
وَلَيْمَتِكَ^(٣) ، وَتَكُونُ^(٤) سَبِيًّا لِتَخْلُفِ النَّاسِ عَنْكَ ، وَالْإِمْسَاكِ عَنْ
إِجَابَتِكَ أُخْرَى اللَّيَالَى^(٥) ، فقال : أَنَا أَفْتَدِي إِذَا عَنْكَ بِمَا غَفَلْتُ
عَنْهُ بِخَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ ، قَالَ : أَحْضَرَهَا فَأَحْضَرَهَا ، فَقَالَ^(٦) : اقْبِضْهَا
فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ رَكِبَ إِلَى جَمَاعَةٍ فَقَالَ : أَعْطُونِي فِي مَعُونَةِ رَجُلٍ مِنْ
أَبْنَاءِ النِّعَمِ اخْتَلَّتْ حَالُهُ ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ خَمْسَمِائَةَ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَرَجَعَ إِلَى

(١) الصنيع : الدعوة .

(٢) احترام الأعمار ، ذهابها : يقال احترم فلان بالبناء للفعل : مات واحترمه
المنية : أخذته كتحريمته .

(٣) عَزَمْتُ عَلَى الْخ : أَى عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُوْدَى صِدْقُهُ عَنْ كُلِّ شَخْصٍ حَضَرَ
وَلَيْمَتِكَ حَتَّى أَدْفَعَ عَنْهُمْ السُّوءَ ، لِأَنَّهُمْ حَضَرُوا طَعَامًا كَانَ غَيْرَهُمْ أَحَقُّ بِهِ .

(٤) وَتَكُونُ سَبِيًّا : وَتَكُونُ أَنْتَ بِدَفْعِي إِلَى هَذَا الْعَمَلِ سَبِيًّا لِتَخْلُفِ النَّاسَ عَنْكَ ،
لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدَمُونَ عَلَى طَعَامِ رَجُلٍ يَقْصُرُ فِي دَعْوَةٍ مِنْ تَجِبُ دَعْوَتُهُ .

(٥) أُخْرَى اللَّيَالَى : يَقَالُ لَا أَفْعَلْهُ أُخْرَى اللَّيَالَى أَوْ أُخْرَى الْمُنُونِ أَى أَبَدًا .

(٦) فَقَالَ : أَى الْعَبَاسِ لِلْفَتَى .

منزله ، وقد كان أمرَ الفتى ^(١) ألا يبرح منه ، فأدخله إليه ، وقال :
فيم تهش إليه من التجارة ؟ فقال في صناعة الأنماط ^(٢) فإنها صناعة
أسلافنا ، ومن بها يعرفُ حقوقنا ، فدعا برجلٍ منهم حسنَ اليسار
فأخرج إليه الألفَ الدينار التي أخذها ، فقال : هذا المالُ لهذا
الفتى فليكن في دكانك ، واشترِ له بها ما يُصلحه من المتاع وبصره به .
ثم قال للفتى : احذر أن تُنفق إلا من ربح ! فأنصرف الفتى وقد ردَّ
عليه ستره .

خلف لى أحمد بن أيمن : أن بضاعته ثمرت ^(٣) وأرباحه اتصّلت
وعاملَ السلطان ، ودخل في جملة التجار وجلّتهم .

*
* *

(١) وقد كان أمر الخ : حينما ركب في طلب خمسمائة الدينار الأخرى .

(٢) الأنماط : جمع نط : ظهارة الفرش وضرب من البسط .

(٣) ثمرت : في الأصل ثمرت ، وهو تحريف .

وحدثني أحمد بن أبي عمران عن مسلم بن أبي عُبَيْة عن
أبيه عُبَيْة، (وكان عُبَيْةُ هذا مُصَادِقاً لأبي يُوسُفَ القاضي وترباً^(١))
له) ، قال :

كان أبو يُوسُفَ قد انقطع إلى أنحاء الفقه فأحسن القول
عن أبي حنيفة^(٢) وكانت زيادته في العلم ، بمقدار نُقْصَانِهِ
في الرزق ، وكان كُلُّ مَنْ يَسْتَعْرِضُ حالَهُ بالكوفة ، يُشِيرُ عليه
[بالنزوع] إلى بغداد ، ويرى أبو يُوسُفَ صوابَ ما يُشار به عليه
فَيُقْعِدُهُ نقصانُ حالِهِ عن المَرْكَبِ الفَارِهِ^(٣) ، واللُبْسَةِ التي تُشَبِّهُ مَنْ
حَلَّ^(٤) محلَّهُ من العلم ، وتَزْرَعُ^(٥) إليه من أَقْصَى النواحي .

وكان له غلامٌ كان لأبيه ، حاذقٌ بِعَمَلِ الجَوَاشِينِ^(٦) والدُّرُوعِ وكثير
مما يُحْتَاجُ إليه من آلةِ الحرب . وكان يأتيه في كُلِّ شهرٍ بما يَقْوِيهِ

(١) تراباً له : ولد معه ، قاربه في السن .

(٢) هو النعمان بن ثابت التيميّ بالولاء الكوفيّ إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق
أحد الأئمة الأربعة ، توفي ببغداد سنة ١٥٠

(٣) الفاره : الملبح الكريم .

(٤) تشبه من حلّ : تليق بمن حلّ الخ .

(٥) وزرع إليه : ومال الناس للأخذ عنه وقصدوه .

(٦) الجواشن : جمع جوشن وهو زرد يلبس على الصدر لوقايته في الحرب .

في حاضرة الكوفة ولا يُعنيه على حَضرة السلطان . فرغب الغلام
في عامل^(١) للمهدى على الكوفة^(٢) (قد ذهب على اسمه) . فطلبه
من أبي يوسف (وهو يومئذ من أصاغر رعاياه) فباعه منه بتسعين
ديناراً ، وخرج عند ذلك إلى بغداد . فارتاد دابةً وثياباً .

وكان لعبد الله بن القاسم الغنوي أحد أصحاب الأعمش^(٣) محل
من المهدي ، ولم يكن في المجالس التي تنعقد ببغداد في الفقه أجل
من مجلسه . فدخل أبو يوسف مع كافة من دخل من غير تسليم
على عبد الله ، ولا مقدمة لحضور مجلسه . وكان أبو يوسف حسن
الصورة ، جميل الإشارة ، لطيف التخلّص والاحتجاج ، فقبله قلب
عبد الله ، ولم يعرفه .

(١) في عامل : في خدمة عامل .

(٢) الكوفة : كانت مدينة العراق الكبرى وهي قبة الإسلام ودار هجرة المسلمين ،
يقال إن أول من مَصَرها سعد بن أبي وقاص .

(٣) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي ، تابعي مشهور ، أصله من بلاد الري ،
وكان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، توفي بالكوفة سنة ٢٤٨ هـ .

وجرت مسائل وأجوبة، كان حفظ القياس فيها مقصرا، وكان الاحتجاج على ظاهر القول ^(١) . فتكلم أبو يوسف فيها فأحسن الاحتجاج وجود ، وأعانه على هذا طول لسانه ، وحسن بيانه ، ثم سألهم فقصروا عن الجواب ، فأبان عدولهم ^(٢) برفق . فلما تقضى المجلس عاتبه عبد الله على تخلفه عنه ، أو تعريضه مكانه ، وسأله أين نزل ، فأخبره . فرغب له عن الموضع الذي سكنه ، ودعاه إلى منزل بالقرب منه . وقرر خبره عند أبي عبيد الله كاتب المهدي ، فوصله بالمهدي وأسنى رزقه . ثم قرنه بالهادي فأقام معه مدة أيامه ، وبلغ مع الرشيد ما لم يبلغه عالم بعلمه ، ولا محبوب بمرتبتة .



(١) كان حفظ القياس الخ : القياس في علم الأصول هو إلحاق شيء بشيء في الحكم لمشابهة بينهما ، وكان أصحاب أبي حنيفة أصحاب استنباط وقياس . يقول إن المناقشة كانت تدور حول ظاهر النصوص ، وكان حفظ القياس والاستنباط ضعيفا .

(٢) عدولهم : أي عن الصواب .

وحدّثني عليُّ بنُ سَنَدٍ (وكان انقطاعه في أيام الموفق والمعتضد ^(١) إلى أحمد بن محمد بن إسحاق) وكان آل عبيد الله بن وهب يحقّدون [عليه] سِوَالَفٌ ^(٢) مُنْكَرَةٌ . (ولم يكن مع عبيد الله من سوء المباداة ^(٣) ما مع القاسم ابنه ^(٤)) . فلها حبس أحمد بن محمد بن إسحاق قبض علينا معاشر خلفائه في الأعمال ، وأثبتنا في جريدة ^(٥) . وتقدّم لإحضرنا إلى داره ، فيئسنا من الحياة .

وقال لي عليُّ بن سَنَدٍ : فلم يكن في جماعتنا أضعف حالاً مني ، ولا أقلّ ناصراً . فرأيت الموت ، وحملنا إليه ، وقد أخضر الجلاّدين والسباط

(١) المعتضد : هو أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أحد الخلفاء العبّاسيين ، بويع بالخلافة بعد وفاة عمّه المعتمد سنة ٢٧٩ ، وكان شجاعاً ذا عزم مهيباً . وفي المؤرخين من يقول : قامت الدولة العبّاسيّة بأبي العبّاس وجددت بأبي العبّاس ، يريدون السّفاح والمعتضد . توفي ببغداد سنة ٢٨٩ هـ . (الأعلام جزء ١) .

(٢) سِوَالَفٌ : أمورا حصلت منه .

(٣) سوء المباداة : يقال بادى بالعداوة : جاهر بها .

(٤) هو القاسم بن عبيد الله وزير المكتفى . كان شاعراً وكان قليل الخبرة بأمور السياسة ، ولما استوزره المكتفى لأنه أخذ له البيعة وحفظ عليه الأموال .

توفي سنة ٢٩١

(٥) جريدة : قائمة تدوّن بها الأسماء .

والموتكَيْنَ بالمعابر^(١). قال : فُقِّدَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ جَلَّةِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ بْنِ
 نِسْطَامَ فُضِرِبَ ، وَأُخِذَ خَطُّهُ بِمَا أَدْلَمَ أَنَّهُ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ
 رَجُلٌ ، ظَهَرُهُ إِلَيْنَا ، لَا نَعْرِفُهُ . فَلَمَّا فَرَغَ [مِنْ] أَمْرِهِ ، سَمِعْتُ الَّذِي بَيْنَ
 يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : هَبْنِي عَارِفَتَكَ^(٢) ، فَقَالَ : ذَرُهُ حَتَّى يَرَى عِظَمَ
 مَا سَلِمَ مِنْهُ بِكَ^(٣) . فَقَالَ : هُوَ يَرَاهُ غَدًا^(٤) . فَقَالَ الْقَاسِمُ : سَلُّوْا
 عَلِيَّ بْنَ سَنَدٍ (لَا رَعَاهُ اللَّهُ) إِلَى صَاحِبِهِ أَبِي الْجَيْشِ ثَابِتٍ . فَرَأَيْتُهُ ، وَقَدْ
 قَبَّلَ يَدَهُ ، وَرَدَّتْ عَلَى الْحَيَاةِ بِشِفَاعَتِهِ ، وَأُطْلِقْتُ مِنْ غَيْرِ مُصَادَرَةٍ وَلَا عُقُوبَةٍ .
 فَلَمَّا رَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى مَكَانِهِ ، وَسَارَ بِي رَسُولُ الْقَاسِمِ إِلَيْهِ ، قَالَ لِي : مَرَّ بِي
 اسْمُكَ فِي الْجَرِيدَةِ فَاسْتَوْهَبْتُكَ لِأَنَّ أَبَاكَ كَانَ مِنْ إِخْوَانِي بِخَزْيَتِهِ^(٥)
 الْخَيْرَ عَلَى رِعَايَتِهِ وَالَّذِي فِي .

*
 *

(١) بالمعابر : جمع معبر كمنبر ، وهو ما عبر به النهر (القارب) ولعلمهم كانوا بعد
 تعذيب المحكوم عليهم يقذفونهم في النهر ، ويجوز أنها محرفة عن المقابر أي لأنهم كانوا
 يحضرون أصحاب المقابر لدفن من يموت بالتعذيب .

(٢) هبني عارفتك : أي هبني فضلا ومكرمة منك .

(٣) بك : بسببك :

(٤) غدا : أي حين يسمع بما جرى لأمثاله .

(٥) بخزيتته الخير : دعوت له بأن يجزى خيرا .

وحدثني محمد بن صالح الغوري قال :

كانت لي بضاعة أعودُ بفضلها على شَمْلِي^(١) فافترقتُ في معاملات في الصَّعيد وخرجتُ إلى من عاملتهُ بجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينارٍ . وخرجتُ أريدُ الفُسطاط في رُفقة كثيرة الجمع . فلما كان منتصفُ طريقنا وافى جمعٌ من الصعاليك فسلبَ الناسَ جميعاً ، ودِهَشْتُ ، فرأيتُ منهم شاباً حَسَنَ الصورة . فقلتُ له : واللهِ ما أملكُ غيرَ هذا الكيسِ فارفعه^(٢) لي عندك فقال : وأينَ بيتك بالفُسطاط ؟ فقلتُ : في دُور عباس ابنِ وليد . فقال : ما أسمك ؟ قلتُ : محمدُ الغوري . قال : امضِ لشأنك . وجاء منهم من قَلَعَ ثيابي وسراويلي ، وانصرفوا عنا ، ولم أزدُ أن سَوَّغْتُ واحداً منهم جميعاً ما كان^(٣) معي ، ودخلنا إلى الفُسطاط ونحن فقراء . فرجعَ كلُّ واحدٍ منهم إلى ما تخلفَ له ، وبقيتُ ، ليس معي دِرْهمٌ أنفقهُ . وإني لجالسٌ على دَرَجَةِ المسجد^(٤) بين المغرب والعِشاءِ الآخرةِ حتى رأيتُ رجلاً قد وَقَفَ بي فقال لي : ها هنا منزلُ محمدِ الغوريِّ ؟ قلتُ

(١) شَمْلِي : أهلي ومن أعول

(٢) فارفعه لي عندك : قصد بهذا التعبير أن يتلقى العاص وأن يفهمه أنه يودعه المال لأنه في الحقيقة كان يأسا من عودته .

(٣) سَوَّغْتُ واحداً منهم الخ . سَوَّغْتُهُ إياه : أعطيته إياه .

(٤) المسجد : مسجد عمرو بن العاص .

أنا هو ، ولا والله ما اهتديت إلى الرجل الذي أعطيته المال ! لأنه كان عندي أول مالٍ ذاهب^(١) فقال لي : عيتني ! وأخرج الكيس فدفعه إلى فردت على جدتي ، وتطعمت الحياة . وكان بالقرب من قائد يُعرف بابن قرا ، كنتُ معاملاً له ، وكان له محل^(٢) . فسألت اللص المبيت عندي ففعل . فأصبحتُ وصرتُ إلى ابن قرا وقصصت عليه قصة الرجل . فقال لي : الطُف^(٣) لي فيه ، فوالله لأنوّهن باسمه ، ولأُكفّأنه عنك ! فرجعتُ إليه فاخبرته . فوالله ما ارتاع ، ولا اضطرب ! ومضى معي . فأحسن تلقّيه ، وخلع عليه ، وصيره سيارة^(٤) لعمله وضمّ ، إليه عدّة^(٥) وافرة . ولم يزل في حيزه إلى أن توفي

*
* *

(١) لأنه كان عندي الخ : لأنه كان في اعتقادي أسبق مال إلى الضياع ، وذلك لليأس من الحصول عليه

(٢) محل : مكانة عظيمة .

(٣) الطُف لي فيه : قدمه لي في لطف ورفق .

(٤) سيارة : مصدر سار ، يدل على حرفة ، ويظهر أن المراد به حسن السير بالبلد أو العمل ، وقد كان ذلك عملاً من أعمال الشرطة ، وأطلقه هنا على العامل نفسه .

(٥) عدّة : تقرأ بضم العين وكسرهما ، ولكل وجه .

حدثني أحمد بن أبي يعقوب عن أبيه عن جدّه واضح .
 قال : كانت بين المهدي وأخيه جعفر بن أبي جعفر^(١) عداوة
 في أيام المنصور . وكان مَصْقَلَةُ بن حبيب ينقل عنه إلى جعفر
 ما يكرهه ، ولا يمكن المهدي أن يسطو على مَصْقَلَةَ ولا يمسه بسوء .
 فلما تولى الخلافة نذر دمه فاختنق .

حدثني مَصْقَلَةُ أنه نبأه موضعه الذي كان به فخرج مستترا يريد
 غيره ، فليحقه رجل من أعدائه ، وصاح في أصحاب الأرباع^(٢) :
 هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين . فتسرع إلى الشرط ورأيت الموت عياناً .
 فبينما أنا في أيديهم اجتاز بي معن بن زائدة^(٣) فصحت به :
 ياسيّدى ! يا أبا المنذر ! أبحرنى أبارك الله . فقال للشرط
 والرجل المتشبّث بي : خلّوا عنه . فقال الرجل : ما ذا أقول
 لأمر المؤمنين ؟ قال : تقول له إنه عندي . ثم أمر بجملتي على جنيبة^(٤)

(١) مات في حياة أبيه المنصور .

(٢) الأرباع : رؤساء الأقسام بالبلد الموكول إليهم حفظ الأمن بها . وهو
 جمع ربع (بضم فسكون) .

(٣) المعروف في التاريخ أن معن بن زائدة قتله الخوارج بسجستان سنة ١٥١
 وأن المهدي تولى الخلافة سنة ١٥٨

(٤) الجنيبة : الدابة تقاد إلى جنب الراكب .

من جنائبه، وسار بي إلى منزله، وقَدَّم طعامه فأكلتُ معه ومع ولده.
فلَمَّا فرغنا من الطعام قيل له : وافى رسولُ أمير المؤمنين ، فقال
لولده : اقضُوا حقِّي عليكم بالآلِ تُسَلِّهُوا مَصَقَلَةً ، فقد استجار بي .
فخَلَفُوا له على ذلك وركب . فلَمَّا رآه المهدى قال : تجيرُ على
يا مَعْنُ ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ! قال : ونعم أيضا ! قال :
يا أمير المؤمنين ! قتلْتُ في دولتك زهاءَ ثلاثين ألفِ عَدُوٍّ ، ولا
أَسْتَحِقُّ أَنْ أُجِيرَ فيها عَدُوًّا واحدًا ؟ قال : نعم تَسْتَحِقُّ ذلك ، قد
وهبناك دَمَهُ . فقال : يا أمير المؤمنين ! ليس هكذا يُنْعَمُ مثلك
بالحياة ، إذا تصدَّقتَ على أحدٍ بحياته فاجعلها في خَفِضِ عَيْشٍ من
نعمتك . قال : يُعْطَى ألفَ دينار، قال : يا أمير المؤمنين لا تَسْتَوِي
جائزَتُك وجائزَةُ عبدك مَعْنٍ ، هذا ما سَمَحْتُ له به . فقال : ادفعوا
إلى جارِ مَعْنٍ ألفَ دينارٍ .

فحملتُ معي إلى منزلي ثلاثة آلاف دينارٍ وأَمِنْتُ على نفسي .

*
* *

وحدثني ربيعة بن أحمد بن طولون^(١) . قال : لما توفى
نُحَارويه قُبُضَ على وعلى مُضَرَ وشَيْبَانَ^(٢) ابني أحمد بن طولون ،
جَيْشُ^(٣) بن نُحَارويه ، وحَبَسْنَا بِدِمَشْقَ . فلَمَّا قَقَلَ إِلَى مُضَرَ حَبَسْنَا
فِي حُجْرَةٍ مِنَ الْمَيْدَانِ مَعَهُ ، وَكَانَتْ لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائِدَةٌ نَجْتَمِعُ عَلَيْهَا .
وَكَانَ فِي الْحُجْرَةِ رِوَاقٌ وَبَيْتَانِ ، وَجَلُوسُنَا فِي الرِّوَاقِ ، فَوَافَى خَدَمٌ لَهُ فَأَدْخَلُوا
أَخَانَا مُضَرَ فِي الْبَيْتِ ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِ الْبَابَ . فَانْقَضَ عَنَّا ، وَكَانَتِ الْمَائِدَةُ
تُقَدَّمُ إِلَيْنَا وَنُمنَعُ أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْئًا . فَأَقَامَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ لَا يَطْعَمُ وَلَا
يَسْتَعِثُ . ثُمَّ وَافَانَا ثَلَاثَةً مِنْ أَصْحَابِ جَيْشٍ . فَقَالُوا : مَا مَاتَ أَخُوكُمْ بَعْدُ ؟
فَقُلْنَا : مَا نَسْمَعُ لَهُ حِسًّا ، فَفَتَحُوا الْبَابَ فَوَجَدُوهُ حَيًّا ، وَرَامَ الْقِيَامَ

(١) نفى إلى الاسكندرية حينما ولي هارون بن نَحَارويه ، ثم كاتبه أهل مصر
يطلبون إليه الحضور ليتولى عرش مصر ، فسبق جيشه ، فما يشعر الناس إلا
وهو بالجبل المقطم ، وكان يطمع في أن ينضم إليه الناس فلم يفعلوا ، فأخذ يقاتل
وحده حتى كلَّ وتكاثر عليه الجنود فاعتقل ، وضرب بالسياط حتى مات سنة ٢٨٤

(٢) ولي أمر مصر بعد قتل هارون بن نَحَارويه سنة ٢٩٢ ولم يستقم له الأمر
فبعث إليه محمد بن سليمان يؤمِّنه على نفسه وأهله ، فذهب إليه ثم فتر تحت ستار
الليل ، وبه انتهت الدولة الطولونية .

(٣) ولي مصر بعد قتل نَحَارويه سنة ٢٨٢ وكان سيئ السيرة ضعيف السياسة
نُفِخَ عَلَيْهِ كِبَارُ قَوَادِ دَوْلَتِهِ ، وَقُتِلَ سَنَةَ ٢٨٣

فلم يصل إليه . ورماه الثلاثة بثلاثة أسهم في مقاتله فطفأ^(١) . وكانت الليلة التي دخلوا فيها ليلة جمعة ، وأخرجوه وأغلقوا الباب علينا . وأقننا يوم الجمعة والسبت فلم يقدم إلينا طعام . فظننا أنهم يسلكون بنا طريقه . فلما كان يوم الأحد سمعنا رجّة في الدار ، وفُتح بابُ الحجرة ، وأدخل إلينا جيشُ بنِ مُحمّارويه ! فقلنا : ما خبرك ؟ فقال غلب أنحى على أمرى ، وتولّى إمارة البلد هارونُ بنُ مُحمّارويه^(٢) . فقلنا : الحمد لله الذي قبضَ يدك ، وأضرع^(٣) خدك ! فقال : ما كان عزى إلا أن ألحقكما بأخيكما .

وأنفذ [هارون]^(٤) إلى جماعتنا مائدةً، فلما طعمنا بعث إلينا خادما : أن جيشاً كان قد عزم على قتلكما كما قتل أخاكما فاقتلاه وخذا بثأركما منه وانصرفا على أمان . وبعث إلينا خدماً فترسّروا إليه فُقُتِل . وانصرفنا إلى منازلنا وقد كُفينا عدونا ..

*
* *

(١) طفا : مات .

(٢) ولى مصر سنة ٢٨٣ وهو صبي ، والأمر كله مردود إلى ابن أبالي ، ثم خرج لقتال محمد بن سليمان فانهزم بئس وتفرق عنه جنده ، فدخل خيمته عليه عماء شيبان وعدى وقتلاه سنة ٢٩٢

(٣) أضرع : أذل .

(٤) زيد ما بين القوسين ليتسق نظام الكلام .

وحدّثني منصورُ بنُ إسماعيل^(١) الفقيه . قال :

خرج رجل نعرفه بتجارة ، قصّده إلى الهند . فرجع إلينا بأنواع من الطيب كثيرة لها قيمةٌ خطيرةٌ ، وهو في نهاية السرور . فقلنا له : كم ربحت التجارة التي خرجت بها من عندنا ! فقال :

غرقتُ وسائرُ مَنْ كان معي ، فسلبتُ بُحْشاشة^(٢) نفسي في جزيرة من جزائر الهند . فتلّقاني قومٌ فيها وجاءوا بي إلى ملكهم . فقال لي : قد نفدت الموهبة^(٣) الخارجة عنك فما معك من الموهبة الثابتة عليك ؟ قلتُ : معي الكتابُ^(٤) والحسابُ . فقال الملك : ما بقي لك أفضلُ من الذي ذهب منك ! والصوابُ أن تُعلّم ابني الكتابَ بالعربية والحسابَ ، فأرجو أن نعوضك أكثرَ مما [فقدته] . وسلّمَ إليّ من ابنه أذكي صبيّاً وألفه . فتعلّم في مدّة يسيرة ما يتعلّمه غيره في مدّة طويلة .

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التيمي ، فقيه شافعي أصله من رأس عين الجزيرة وقد رحل إلى مصر وسكنها إلى أن توفي سنة ٣٠٦ هـ . (الأعلام ج ٣)

(٢) حشاشة : الحشاشة بقية الروح في المريض والجريح ونحوهما .

(٣) الموهبة الخارجة عنك : يريد الموهبة الزائلة وهي المال .

(٤) الكتاب : الكتابة .

فلما رأى أَنَّهُ قد توجَّهَ ^(١) واستحققت منه الإحسان ، صار إلى صاحبِ المَلِكِ . فقال : معى هَدِيَّةٌ من المَلِكِ إليك . وأدخل إلى بقرة فَتِيَّةً . ثم قال : أدفعُها لك إلى الراعى ؟ فقلت : افعل . وصغرُ في عيني أمرُ المَلِكِ على عِظَمِ شأنه . فما مضى زمنٌ قصيرٌ حتى جاء الراعى فقال : ماتت البقرة . واستقبلنى كُلُّ خاصَّةِ المَلِكِ بالتَّغْمُغِ ^(٢) . ثم ظهر في ابنه تَزِيدٌ ^(٣) ، فبعثَ إلى ببقرة فَتِيَّةً أُخرى فرددتها إلى الراعى . فما مضت مدَّةٌ يسيرةٌ حتى وافى يَبْشُرُنِي ، فقال : قد حَلَّتِ البقرة . فلما انتهى حملُها وضعت ، فهنَّأتى حاشيةَ المَلِكِ بأسرهم . ثم جلسَ المَلِكُ مجلساً عاماً ، وأحضرَ التجارةَ التى رأيتوها معى . ثم قال :

”لم يذهب على ما يجبُ لك فى تعليمِ أبْنى ، ولم أبعثْ بالبقرةِ الأولى لفضلِ البقرةِ عِندى ، ولكنْ نزلتْ بك مِحْنَةً فى البحرِ أَتَتْ على مالِكِ

(١) توجه : أى توجهه إلى ما وجهته إليه من صنوف العلم .

(٢) التغمغم : الهمس والكلام الذى لا يبين الدالَّ على السخط والتذمر .
وفى الأصل : التغمم ، وهو تحريف .

(٣) تزيد : تقدم فى العلم .

فامتحنْتُ بالبقرة ما أنت عليه منها ^(١) . وعليتُ أني لو أعطيتُك جميعَ ما ملكتُ يدي ، وقد بقيَ منها ^(٢) شيءٌ لضاع منك ، وهلكَ لديك . فلما أُخبرتُ أنها ماتت عليتُ أنك فيها ^(٣) . ثم امتحنْتُ أَمرك بالبقرة الثانية فلما أُخبرتُ أنها قد حملتُ عليتُ أنها قد انحسرتُ عنك . فسُررتُ لك بذلك . واستظهرتُ ^(٤) بانتظار الولادة . فلما ولدتُ شخصاً كاملاً صحيحَ الأعضاء عليتُ أنك قد فارقتَ محنتك . وهذا ما أعددتُهُ لك . ثم وصلني بطيبِ قومتهُ بعشرين ^(٥) ألفَ دينارٍ . وحملني في البحر فسليتُ ، وزاد بأرض العرب ثمنهُ على ما قومتهُ .

قال منصور: فرأيتُهُ قد أيسر بعد الخلة ^(٦) والتلفيق ^(٧) في المعاش .

*
* *

(١) ما أنت عليه منها : حالك من حيث اتصافك بالحنة ألا تزال عالقة بك أم فارقتك ؟

(٢) وقد بقي منها : من الخنة .

(٣) فيها . في الخنة ، لم تتخلص منها .

(٤) استظهرت : استوثقت

(٥) في الأصل : قومته عشرين .

(٦) الخلة : الحاجة .

(٧) التلفيق في المعاش : جمع الرزق من طرق متعددة ، لأن طريقة واحدة لا تقوم بصاحبها .

وحدثني أبو محمد يحيى بن الفضل . قال : اختفى عند والدي كاتب للفضل بن ^(١) يحيى بن برمك عند إيقاع الرشيد بهم . وكان يواصل البكاء عليهم ، ولا يسمع الوعظ فيهم . فقال له أبي : أنا أرجو أن يخلف الله عليك ولا يضيعك ! فقال : والله ما بكائي لما فاتني منهم ، وإنما بكائي لجلالة أخطارهم ، ونفاضة أقدارهم ، ولقد كان لصاحبي ^(٢) في الجمعة السالفة ما لم أسمع بمثله لقديم ولا حديث : قال لي : قد كثُر الزَّوَّار ^(٣) علينا فانظر مقدار ما انصرف وارفع إلى عدة من بقي من الزَّوَّار لا تقدم في برهم ، واحذر أن ترفع إلى رجلاً من أهل الشام ، لأنه كان يتشيع ^(٤) . فخرجت فالفيت من فضل عن المنصرفين أربعة وثلاثين رجلاً . وجاءني رجل من أهل الشام

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي وأخوه في الرضاع ؛ استوزره الرشيد مدة ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ هـ . ولما فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ . قبض عليه وسجنه بالرقعة إلى أن توفي في سجنه سنة ١٩٣ : (الأعلام جزء ٢) .

(٢) لصاحبي : للفضل بن يحيى .

(٣) الزَّوَّار : المجتدون وطلاب الحاجات .

(٤) لأنه كان يتشيع : يرى رأى الشيعة وهم أصحاب علي بن أبي طالب . وكان الفضل يبغض أهل الشام لأنهم خذلوا عليا ونصروا معاوية .

كاملُ الأدب ، ظريفُ الشاهد ، فأعلمته ما تقدّم به إلى^(١) .
فقال : يا أحمى ! أسألك أن تغالطَ بي وتثبتني في وسطِ الجريدة !
ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثم قال : ألم أتقدّم إليك ألا يكونَ
في الجريدة شامى ؟ فقلتُ : وأين الشامى ؟ فوضع (شهد الله) يده
على اسمه وحلق . ووقع بيده لكلِّ واحدٍ غيرِ الشامى ، فما قصرَ بأحدٍ
عن مائةِ دينار ، وأمرني بإطلاقها وإنفاقها فيهم . فجلستُ أفرّقها ،
ووافيَ إلى الشامى فأريته اسمه خالياً ، وحدثته حديثه . فقال : لو قضى
شيءٌ لكان ! وأحسن الله جزاءك على ما قدّمته من العناية بي !
وانصرف . وقد غمّني أمره ولم يبقَ في الزوّار أحدٌ حتى أخذ .

فأنا في منزلي قريباً من نصف الليل حتى وافاني رسوله^(٢) ، فصرتُ
إليه ، فقال : أويّت الساعةَ إلى فراشي واستعرضتُ بفكري شُغلَ
الزوّار ، وما أمرتُ به لهم فحسنَ عندي ، ثم قبّحه في عيني حرمانُ
الشامى المسكين ، ورأيتُه نقصاً في مروءتي . فتقدّم في دفع مقدار
ماوصل إلى جماعة الزوّار إليه . فقلت ياسيّدى ! وصل إلى جماعة

(١) ما تقدّم به إلى : ما أمرني به الفضل بن يحيى .

(٢) رسوله : رسول الفضل .

الزُّوَارِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَهَذَا يَكْفِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ . فَقَالَ :
وَاللَّهِ مَا تَفِي أَلْفُ دِينَارٍ بِغَمِّهِ ، وَقَدْ رَأَى غَيْرَهُ يَأْخُذُ ، وَقِيَامِهِ عَنْكَ
مَحْرُومًا . قُمْ فَادْفَعْ إِلَيْهِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، وَلَا تَعَذِّلْنِي ، فَالْخَطَأُ
فِي الْجَمِيلِ أَحْسَنُ مِنَ الصَّوَابِ فِي الْقَبِيحِ ، وَلَيْسَ يَشْكُرُ النَّاسُ مِنَ
الْبَرِّ إِلَّا مَا أَفْرَطَ ، فَأَمَّا مَا بَلَغَ الْحَاجَةَ فَنَسِيَ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ ، وَالْوَاجِبُ
عَلَى مَنْ آثَرَ جَمِيلَ الذِّكْرِ أَنْ يَتَغَنَّمَ أَيَّامَهُ ، وَلَا يَسُوِّفَ بَشْيَءَ مِنْ فِعْلِهِ .

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ : فَبَكَى وَاللَّهِ أَبِي عِنْدَ هَذَا الْفَصْلِ مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى
خَفْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ : مَا أَجْهَلَ النَّاسَ بِقَدْرِ مَا فَقَدُوهُ مِنْ هَذَا
الرَّجُلِ !

قَالَ الْكَاتِبُ : نَفَرَجْتُ وَبَثْتُ الرُّسُلَ فِي طَلَبِ الشَّامِيِّ حَتَّى
وَجَدُوهُ ، فَوَافَانِي وَقَدْ آنَحَظَّ أَكْثَرُ لَحْمِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . فَقَصَصْتُ
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَشَكَرْنَا جَمِيعًا ، وَقَبَضَ الْمَالَ
وَانصَرَفَ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ .

وَسَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ وَالِدِي . وَهُوَ يَقُولُ :

كَانَتْ بَنِي وَبَيْنَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ مَدِيرٍ سَوَالِفُ ^(١) تُرْعَى وَيُحَافَظُ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا تَوَلَّى مَضَرَ رَأَى حُسْنَ ظَاهِرِي فَظَنَّ ذَلِكَ عَنْ أَمْوَالِ جَمَّةٍ لَدِي .
بِحَدِّ بِي فِي الْمَطْلَبَةِ ، وَأُخْرِجَ عَلَى بَقَايَا لِعُقُودٍ أَنْكَسَرَتْ ^(٢) مِنْ آفَاتٍ
عَرَضَتْ لِضِيَاعِهَا ، وَلَمْ يَسْمَعْ الْاِحْتِجَاجَ فِيهَا ، وَاسْتَقْصَرَ مَا أوردته
و [ظَنَّ] أَنَّ مَا كَانَ عَنْ حِيلَةٍ ^(٣) . فَاحْتَبَسَنِي مَعَ الْمُتَضَمِّنِينَ ^(٤) .
فَكَانَ يَغْدُو فِي كُلِّ يَوْمٍ غَلَامٌ لَهُ يَحْجِبُهُ ^(٥) يُعَرِّفُ بِفَضْلِ ، فَيَكْتُبُ
عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مَا يُؤَدِيهِ فِي يَوْمِهِ ، فَإِنْ شَكَأ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى شَيْءٍ
أُخْرِجَهُ فُحِمِلَتْ عَلَيْهِ الْجِمَارَةُ وَطُوبِلَ أَعْنَفُ مُطْلَبَةٍ ، فَلَمْ يَزَلْ بِي إِحْلَاحُهُ
حَتَّى بَغَتْ حُصْرٌ ^(٦) دَارِي فَضْلًا عَمَّا فِيهَا ، وَعَرَضْتُ دَارِي فَمَنْعَنِي مِنْ

(١) سَوَالِفُ : صَلَاتٌ قَدِيمَةٌ .

(٢) أَنْكَسَرَتْ : لَمْ يُؤَدَّ كُلُّ مَا قَرَّرَ فِيهَا مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ .

(٣) وَظَنَّ الْخَطَّ : أَيُّ إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي حَصَلَ مِنْ إِصَابَةِ الضِّيَاعِ بِالْآفَاتِ وَالْعِجْزِ
عَنْ أَدَاءِ مَا لَهَا لِلْسُّلْطَانِ إِنَّمَا كَانَ اِحْتِيَالًا لَا حَقِيقَةً وَاقِعَةً ، فَيَكُونُ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ
(عَنْ حِيلَةٍ) خَبْرًا .

(٤) الْمُتَضَمِّنِينَ : الضَّامِنِينَ لِأَمْوَالٍ هِيَ دِيُونُ عَلَيْهِمُ لِلدَّوْلَةِ .

(٥) يَحْجِبُهُ : يُؤَدِي عَمَلُ الْحِجَابَةِ لَهُ .

(٦) حُصْرٌ : مَفْرَدَةٌ حَصِيرٌ .

بيعها ، ووجه إلى : فأين يكون حرمك ؟ فوافاني كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى : يشهد الله أنا ما نصلى لك اليوم إلى ما يقيمك فضلاً عن شىء توديه ! وأمسك فضل غلامه عن الدخول فى ذلك اليوم علينا وتعرف ما يؤديه كل واحد منا ، فلما صليت الظهر من ذلك اليوم أنفذ إلى توقيعا ، نسخته :

”يا أبا الحسن أعزك الله . قد ألويت^(١) بما بقى عليك ، وهو سبعة عشر ألف دينار ، وآثرنا صيانتك عن خطة المطالبة هذه المدة . فإن أزحت^(٢) العلة فيها وإلا سلمناك إلى أبى الفوارس مزاحم ابن خاقان^(٣) (أيده الله) وسببت به عليك لأصحابه^(٤)“ .

فكتبت إليه رقة أحاف فيها إني ما أملك عدد هذا المال حب حنطة ، ولو كان لى شىء لصنت به نفسى . فإن رأى السيد رعاية

(١) ألويت : مطلت .

(٢) أزحت العلة فيها : أزلت علة المطالبة وهى المطل .

(٣) ولى مصر فى عهد المعتز بالله وتوفى بها فى المحرم سنة ٢٥٤ وكانت ولايته على مصر سنة وعشرة أشهر ويومين ، وكان من المتشددى فى الدين ، وهو أخو الفتح بن خاقان (النجوم الزاهرة) .

(٤) وسببت به عليك لأصحابه : وحولت ما عليك من المال إليه ليطالبك به أصحابه .

السالف بيني وبينه ، وسَترَ مُحَلِّفَ كان أهلاً لما يأتيه ، وإن سَلَمَنِي
إلى هذا الرجل رجوتُ من الله عز وجلَّ مَنْ^(١) لا يُحْطِئُ مِنْ رجاہ .

فَرَجَعَ إلى بعض غلمانہ ، ومعه رُقْعَةٌ مَخْتُومَةٌ ، فاسترکبني وسار بي
إلى مُزاحِمٍ . فَلَمَّا قُرِئَتْ عليه الرُقْعَةُ أَدْخَلَنِي إليه ، وعنده كاتِبٌ له
يَعْرِفُ بِالْمَرْوَزِيِّ ، فَعَرَفَنِي مُزاحِمٌ ولم أعْرِفْهُ . وكان أبوه في الحارة التي
فيها دار أبي بَسْرَ مَنْ رَأَى^(٢) وَرَبَّتَهُ أُمُّ امْرَأَةٍ لِي تُعْرِفُ بِمَيْمُونَةَ مَوْلَاةِ
أُمِّ مُحَمَّدٍ بِنْتِ الرَشِيدِ ، ولا علم لي بشيءٍ من هذا . فقال : أنت كاتِبُ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ المَهْدِيِّ ؟ فقلت : نعم ، أيد الله الأمير ! قال : كنتُ
أراك ، وأنا صَبِيٌّ في حارتنا ، ووالله ما طَلَبَ ابن المَدْبَرِ أَنْ يَرْجُحَ
عَلَيَّ^(٣) مَالًا . وإنما أراد أن أَقْتَلَكَ بالمُطالَبَةِ . وقد قَبِلْتُ التَّسْيِيبَ^(٤) ،
ورأيتُ أن أكتبُ إلى أمير المؤمنين أعْرِفْهُ رُزُوحَكَ^(٥) وقُصُورَ يَدِكَ

(١) في الأصل : ما .

(٢) مدينة بناها المعتصم سنة ٢٢٠ وبقيت حاضرة الخلافة العباسية نحو
سبعين سنة .

(٣) يروج على : روج الشيء : عجله .

(٤) التسبيب : الحوالة .

(٥) رزوحك ؟ الرزوح السقوط لإعياء أو هزالا . والكلام على المجاز .

عن هذا المال . فإن سهل وإلا نجمه على وعلى رجالى حتى
يُقَاضُوا به ^(١) فى كلّ نجم . ثم قال للروزي : هذا رجل من مشايخى ،
وأُمّ زوجته ببغداد تولّت تربيتى ، وقد استكتبته ^(٢) على أمورى
وما أحتاج إلى قبالة ^(٣) من الضياع بمصر . وليس يُزِيلُكَ عن
رَسمِكَ . وأخذ خاتماً قد كان يُخْتَمُ به الكُتُبُ بحضرته فأعطانيه ،
وسألنى عن العجوز التى ربّته . فقلت : هى بمصر معى . وانصرفتُ
من عنده إلى منزلى . فكان أوّل من هنّأنى بحجلى منه ابنُ المدبر .
ورجعتُ إلى نعمتى معه فى مدّة يسيرة .

*
* *

وحدّثنى أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب ^(٤) . قال :
كان إبراهيم بن الأعمى المهندس قد تقاصرت يده ، واختلت حاله ،
فتكلّم على شكل من أشكال الهندسة ، ورفّعه إلى من أوصله إلى

(١) يقاضوا به : يطالبوا به .

(٢) استكتبته : جعلته كاتباً .

(٣) قبالة : القبالة هنا الانتفاع بأرض الدولة فى مقابل جزء من غلتها .

(٤) كان مصرياً وكان عالم زمانه فى علوم الرياضة ، نخرج عليه كثيرون ، وله
مصنفات جليّة (أخبار العلماء للقفطى) .

المأمون . قال أبو كامل : فحدثني سَنَدُ بْنُ عَلِيٍّ^(١) فقال : سأَل
المأمون محمداً وأحمدَ ابْنَيْ موسى بنِ شاكِرِ المنجِّمِ^(٢) عن منزلة
إبراهيم بنِ الأعجميِّ في الهندسة فقالا : منزلةٌ ضعيفةٌ ، وفيه عامية .
فقال المأمون للسِنْدِيِّ بنِ شاهكٍ أحضرنِي إبراهيمَ بنَ الأعجميِّ .
فلما أحضره ووقف بين يَدَيِ المأمون تَهَيَّبه فلم تَبْدُ منه كلمةٌ . قال :
فرأيتُ انقطاعه^(٣) قد سرَّ ابْنُ موسى ، وقالاً للمأمون : قد عرفنا أمير
المؤمنين أنَّه ليس بمحلٍّ مَنْ يَدْخُلُ إليه . فقلتُ يا أمير المؤمنين : لولا أنَّك
تَبْسُطُنَا بمناجاتك والمواظبةِ عليها لَكُنَّا بمنزلةِ إبراهيم في الانقطاع من
كلامك . فأما تقصيرُ هذين به في الهندسة فَإِنِّي أَشْهَدُ سَيِّدِي [أمير
المؤمنين أَيْ من بعض تلاميذه ، وعليه ابتدأتُ قِراءةَ الهندسة . فأمر
بإيصاله إليه مع خاصته وأجرى عليه ما وسَّعه .

(١) المنجِّم المأموني ، فاضل خبير بتسيير النجوم وعمل آلات الأرصاد ، وكان
يهودياً وأسلم على يد المأمون .

(٢) موسى بن شاكر : عالم في الهندسة هو وبنوه محمد وأحمد والحسن ، وكانوا
جميعاً متقدمين في علوم الرياضة والهيئة وحركات النجوم وعلم الحيل والموسيقا .

(٣) انقطاعه : أى عن الكلام وإظهار مواهبه .

فقلت للسِنْدِيُّ : متى قرأت الهندسة^(١) . فقال : امتعضت^(٢) والله
فيما لحقه من تعسف هذين الرجلين . فنزلت^(٣) هذا القول لأردّ به
الإصغار عنه . فصلحت حاله ورجع إلى أفضل ما كان عليه .

*
* *

وحدثني [أبو كامل] شجاع بن أسلم الحاسب أيضا . قال :
كان محمد وأحمد ابنا شاكر ، في أيام المتوكل ، يكيدان كل
من ذكر [بالتقدم] في معرفة . فأشخصا سند بن علي إلى مدينة
السلام وباعدها عن المتوكل ، ودبرا على الكِنْدِيِّ^(٤) حتى ضربه
المتوكل ، ووجّها إلى داره فأخذا كُتْبَهُ بأنسرها فأفرداها في خزانة
سمّيت الكِنْدِيَّةَ ، ومكّن هذا لهما استهتار^(٥) المتوكل بالآلات المتحرّكة .

(١) متى قرأت الهندسة : أى على إبراهيم بن الأعمى .

(٢) امتعضت : غضبت .

(٣) فنزلت : نزلت الشئ أحلته ، والمراد من نزلت القول وضعته واخترعه .

(٤) هو يعقوب بن إسحاق فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة وانتقل إلى بغداد
فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقا والهندسة والفلك ، وألف وترجم وشرح
كتباً كثيرة يزيد عددها على الثمائة . توفي سنة ٢٦٠

(٥) استهتار : الاستهتار شدة الولوع .

وتقدّم^(١) إليهما في حفري النهر المعروف بالجعفرى . فاسندا أمره إلى أحمد^(٢) بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس^(٣) الحديد بمصر (وكانت معرفته أوفى من توفيقه، لأنه ما تم له عمل قط) فغاط في فوهة النهر، وجعلها أخفض من سائرہ . فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائرہ . فدافع مجد وأحمد ابنا شاكر في أمره . واقتضاهما^(٤) المتوكل، فسعى^(٥) بهما إليه فيه . فأنفذ مستحاثا في إحضار سند بن على من مدينة السلام، فوافى، فلما تحقق مجد وأحمد ابنا شاكر أن سندا قد شخّص أيقنا بالهلكة وييسا من روح الحياة .

(١) وتقدم إليهما : أمرهما المتوكل .

(٢) في تاريخ ابن خلكان أن الذى أنشأ المقياس أحمد بن مجد الحاسب القرصانى (ولعل القرصانى محرفة عن الفرغانى) ثم وصف ابن خلكان هذا المقياس وصفا دقيقا . انظر ترجمة ابن الرداد .

(٣) عمل المقياس الحديد : أمر المتوكل ببناء هذا المقياس سنة ٢٤٧ في ولاية يزيد بن عبد الله وهو المعروف بالحديد (النجوم الزاهرة) .

(٤) واقتضاهما : وطلبهما ليحاكهما .

(٥) فسعى بهما إليه : أى أحضرا إلى المتوكل للحاكمة . وقوله (فيه) أى بسبب هذا الأمر أو بسبب ابن كثير وغلطه .

فدعا المتوكل سندا . وقال [له] : ما ترك هذان الرديئان شيئا من سوء القول إلا وقد ذكراك عندي به ! وقد أتلغا جملةً من مالى فى هذا النهر ؛ فانخرج إليه حتى تتأمله وتخبرنى بالغلط فيه . فإني قد آليت على نفسى إن كان الأمر على ما وُصف أن أصلبهما على شاطئه . وكل هذا بعين محمد وأحمد وسمعهما ، فخرج وهما معه .

فقال محمد [بن موسى لَسَد] : يا أبا أحمد ! ” إن قدرة الحر تذهب حفيظته ! ، وقد فرغنا إليك فى أنفسنا التى هى أنفس أعلاقنا ، وما نُنكر أنا قد أسأنا — والاعتراف يهدم الاعتراف — فتخلصنا كيف شئت ” . قال لهما : أنتما تعلمان ما بينى وبين الكندى من العداوة والمباعدة ، ولكن الحق أولى ما أتبع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخذ كتبه ؟ والله لا ذكرتكما [بصالحه] حتى ترداها عليه ! فتقدم محمد بن شاكر فى حمل الكتب إليه ، وأخذ خطه باستيفائها ، فوردت رقعة الكندى أنه تسلمها عن آخرها . فقال لهما : قد وجب لكما على ذمام^(١) برد كتب هذا الرجل ، ولكما على ذمام بالمعرفة التى

(١) ذمام : حق وحرمة .

لم ترعيها^(١) في. وانخطأ في هذا النهر يستتر مدة أربعة أشهر، بزيادة
دجلة. وقد أجمع الحساب^(٢) على أن أمير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى،
وأنا أخبره الساعة أنه لم يقع خطأ في النهر إبقاءً على أرواحكم. فإن
صدق المنجمون أفلتنا الثلاثة، وإن كذبوا وجازت^(٣) مدته حتى
تنقص دجلة وينضب النهر أوقع بنا ثلاثتنا.

فشكر محمد وأحمد هذا القول منه، واستترا الأمر واسترقهما به، ودخل
إلى المتوكل فقال [له] : ما غلط. وزادت دجلة وأجرى الماء
فيه^(٤)، واستتر حال النهر، وقتل المتوكل بعد شهرين من إجرائه، وسلم
محمد وأحمد بعد شدة الخوف مما توقعوا.

*
* *

(١) ولكما على ذمام بالمعرفة الخ : أى ولكما على حق بصله العلم التى تربطنا
والتي لم ترعيها في.

(٢) الحساب : المنجمون الذين يحاولون معرفة الغيب بالنظر في النجوم وحساب
مواقبها وسيرها.

(٣) وجازت مدته : وتجاوز عمره المدة التى حددها المنجمون.

(٤) فيه : فى النهر.

وحدثني الحسن بن مسلم الأقریطشي (ورأيتُه بعد أن عَلتَ
سِنُّه وبلغَ المائَةَ سنة . وكان صحيحَ التمييز ، سليمَ الحواس) قال :

أَلَحَّ غُرُونَا عَلَى الرُّومِ ، وَنَالَهُمْ مِنْ مَكْرُوهِ عَظِيمٍ ، فَوَجِدَ ^(١)
مَمْلُوكُ الرُّومِ مِنْ هَذَا ، وَنَذَرَ أَنْ يُحْرَبَ أَقْرِيطَشُ ^(٢) ، وَلَوْ أَنْفَقَ
ذَخَائِرَ مَمْلَكَتِهِ ، فَفَظَرَ إِلَى رَاهِبٍ مَحْبُوبٍ تَتَعَالَمُ الرُّومُ زَهَادَتَهُ . فَأَنْزَلَهُ
مِنْ مُتَعَبَدِهِ ، وَضَمَّ إِلَيْهِ أَكْثَرَ جِيُوشِهِ ، فَوَافَى جَمْعٌ لَمْ يُحِطْ بِأَقْرِيطَشَ
مِثْلَهُ قَطْ . فَفَزِعْنَا إِلَى غَلَقِ الْحِصْنِ ، وَتَسَرَّعَ الرُّومُ إِلَى بِنَاءِ مَسَاكِنَ
لَهُمْ ، وَنَخَرَجُوا مِنَ الْمَرَائِبِ ، وَغَلَبُوا عَلَى مِيزَةِ الْبَلَدِ وَمَا يَكُونُ فِي جَوَارِهِ ،
وَاشْتَدَّ الْحِصَارُ ، وَنَزَعَ السِّعْرُ ^(٣) ، وَتَحَلَّقَ الْمَأْكُولُ ^(٤) ، وَشَاعَ الْجَهْدُ ،
ثُمَّ زَادَتْ الْمَكَارِهِ حَتَّى أَكَلَ النَّاسُ مَا مَاتَ مِنَ الْبِهَائِمِ جَوْعًا ،

(١) وجد : حزن وغضب .

(٢) أقريطش : كريت ، جزيرة مشهورة ببحر الروم أول من غزاها جنادة
ابن أمية الأزدي في سنة ٥٤ في عهد معاوية ثم غزاها حميد بن معيوف الهمداني
في خلافة الرشيد ، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي
سنة ٢١٢ إلى أن تملكها أرمانوس في عهد المطيع سنة ٣٤٩

(٣) نزع السعير : أسرع في الصعود ، يقال نزع الفرس سنا إذا جرى طلقا .

(٤) تحلق المأكول ، يقال تحلق ضرع الناقة : ارتفع لبنها ، فتحلق المأكول :
قلته وامتناع وروده .

وأجمعوا على أن يفتحوا الباب له ^(١). فقال لهم شيخ : إني قد أراكم
قد حرمتم التوفيق في قوتكم وضعفكم . والصواب أن تقبلوا مني
ما أشير به عليكم . قالوا : قل . قال : تركوا لله ^(٢) من قبيح
ما يحملكم عليه تظاهر النعمة والسلامة ، وأخلصوا له إخلاص من
لا يجد فرجة إلا عنده ، وافصلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالكم
من نساءكم . فلما ميزهم هذا التمييز صاح بهم : عجبوا ^(٣) بنا إلى الله .
فعجبوا عجة واحدة ، وبكى الشيخ وبكى أكثر الناس . ثم قال : عجبوا
أخرى ولا تستغلوا بغير الله . فعجبوا عجة أعظم من الأولى وبكى
الناس أيضا . ثم عجب الثالثة وعجب الناس معه .

وقال : تشرفوا ^(٤) من الحصن فإني أرجو أن يكون لله قد فرج
عنا . فحلف لي الحسن : إني تشرفت مع جماعة فرأيت الروم قد
قوضوا [رحالهم ^(٥)] وركبوا مراكبهم . وفتح باب الحصن فوجدوا

(١) له : الضمير يعود على الجمع المحيط بالمدينة .

(٢) تركوا : تطهروا وأصلحوا نفوسكم . وفي الأصل تركوا ، وهو تحريف .

(٣) عجبوا : ارفوا أصواتكم .

(٤) تشرفوا من الحصن : تشرف المرء أو المكاتب العالي علاه ، وقد ضمن
الفعل معنى تطلعوا .

(٥) رحالهم : مساكنهم .

قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم . فقالوا : كان عميد الجيش بأفضل سلامةٍ إلى اليوم حتى سَمِعَ ضَجَّتكم في المدينة ، فوضع يدهُ على قلبه وصاح : ” قلبي قلبي “ . ثم طفا ^(١) . فانصرف من كان معه إلى بلد الروم .

ونخرجنا عن الحصن فوجدنا في تلك الأبنية من القمح والشعير ما وسع المدينة وأعاد إليها خصبها [وكفينا] جماعتهم من غير قتال .

*
* *

قال أبو جعفر :

ولما غلب ابنُ الحَليج على مِصر ونواحيها لم يكن بمِصر أسوأ قدرةً على أسباب ^(٢) أبي عليّ الحسين بن أحمد الماذرائي ^(٣) من أحمد بن سهل

^(١) طفا : مات .

^(٢) أسباب : عمال وأتباع .

^(٣) كان أبو عليّ الحسين بن أحمد وأبو بكر محمد بن عليّ من كبار رجال دولة ابن طولون ، وقد دبرا أمور دولته في الرجال والمال ولهما في الكتابة وتدبير شئون المملكة معرفة ودراية والماذرائي نسبة إلى ما ذرايا قرية بالبصرة ، وفي النجوم الزاهرة : أنه كان هو وعيسى النوشري على رأس الجند الذين قدموا مصر للقضاء على الدولة الطولونية ، وقد تولى خراج مصر بعد ذلك ، ثم توفي بدمشق سنة ٣١٤ هـ وكان كاتباً فاضلاً .

بن شَيْفٍ ، فلم يَمِضْ ، شهوْرٌ حتى انهزم ابنُ الخَلِيجِ وظَفِرَ به وُحِلَ
إلى العِراقِ ، ودخَلَ بعد ذلك بشهوَريّ أبو العباس أحمدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ
بِسْطَامٍ إلى مصر متولياً بالأمانةِ على الحُسينِ بنِ أحمدَ ^(١) وكاشفاً لما
جَرى عليه أمرُ الضِياعِ بعد ابنِ الخَلِيجِ وأصحابه ^(٢) .

فقرَّر أبو عليُّ أمرَ المتَضَمِّنينَ ^(٣) بالحِضرةِ عند أبي العباس ،
فعرَّضَ بسهلِ بنِ شَيْفٍ ولم يدعْ سوءاً إلا ذَكَرَهُ به . فقال
أبو العباس : سيعلم ما يجرى عليه مني ! واتَّصل [الخبر] بسهلِ
ابنِ شَيْفٍ فاستطير قلبه ، وكُفِّفَ باله . وأخضِرَ مع جماعةٍ أَجْلَبُوا ^(٤)
من الكُتَّابِ مع ابنِ الخَلِيجِ . فلما دخلوا عليه كاد يقوم إلى سهلِ بنِ
شَيْفٍ ، ثم رفعه حتى كان أقربَ إليه من أخَصِّ أصحابه . ودعا

^(١) متولياً بالأمانة الخ : أى إنه تولى ليكون أميناً على الحسين ، وهى وظيفة كان
يقصد بها ضمان متولى الخراج . جاء فى السيرة : وأقرأ أحمد بن طولون أبا أيوب
على الخراج من قبله ، وجعل عبد الله بن دشومة أميناً عليه .

^(٢) وكاشفاً الخ : أى ومزيلاً لما جرى على الضياع من الاغتصاب والمصادرة
وغيرهما فى حكم ابن الخليج .

^(٣) المتضمنين : المدينين للدولة بالخراج وما فرض عليهم من الغلات .

^(٤) أَجْلَبُوا : أَجْلَبَ : تَوَعَّدَ بِشَرٍّ وَجَمَعَ الْجُمُوعَ لِلنَّوَاةِ ، والمعنى تجمعوا مع ابن
الخليج وناصروه .

ابن حُبَيْش فسارَه ، فنظر إلى سهل ، وقال لأبي العباس : الأمر على ما وصفت ، ثم أطلق سهلاً من ساعته إلى منزله . فسأله أبو علي : هل تعرفه قبل هذا ؟ فقال : لا والله ولكنّه ورد عليّ منه ^(١) أشبه الناس بأبي .

وأفرخ ^(٢) روع سهل بتوفيق الله ولطفه . وما زال حفيّابَه حتّى مات .

*
* *

قال : وكنت قد عملت في أيام ابن الخليفة لحماية ضياع ^(٣) كانت في يدي . فلما تمخّضت ^(٤) دولته اختفيت ونهبت وخفت الإيقاع بي ، واعتور ^(٥) ضياعي العمال ، وأضاقت ^(٦) حالي . فاجتمع الخوف والفاقة ، فرأيت بعد قدوم أبي العباس بن بسطام فيما يرى النائم يوسف بن إبراهيم والدي ، وأنا أشكو إليه خلتي وخوفي . فكأنّه

(١) ورد عليّ منه : رأيت فيه .

(٢) أفرخ روع سهل : ذهب خوفه .

(٣) حماية ضياع : المراد من حماية الضياع الإشراف عليها والانتفاع بنصيب من غلاتها .

(٤) تمخّضت دولته : أي بالفتنة يقال تمخّض الدهر بالفتنة : أتى بها .

(٥) اعتور : تداول وأخذ .

(٦) أضاقت حالي : ذهب مالي ، يقال : أضاقت فلان : إذا ذهب ماله .

يقول : أنا أتكلّم في أمرك حتى تعود إلى محبتك . فلها أصبحت قصصتُ الرؤيا على مَنْ كنتُ مختفيا عنده، وكان حاذقا بالعبارة^(١) . فقال : يجزى لك فرجٌ بذكرِ أبيك^(٢) . وطلب أبو العباسُ بنُ بسطامِ الدُستُوراتِ^(٣) القديمةَ ليعتبر^(٤) منها عبرَ الضياع^(٥) فأخرج إليه ما كان لسنةِ خمسين ومائتين وما قبلها . فرأى فيها اسمَ والدي في ضياعٍ كثيرة . فقال : من هذا يُوسُفُ بن إبراهيم ؟ فقال له أبو علي : هذا صاحبُ إبراهيم بن المهدي ، ورضيعُ المعتصم^(٦) . قال أبو العباس : وصاحبُ كتابِ الطيخ ؟ قال أبو علي : نعم . قال فله ولدٌ ؟ قال : نعم في ناحيتي . قال : نَحْذُلى منه كتابُ الطيخ وكتابُ

(١) بالعبارة : عبر الرؤيا عبرا وعبارة فسرّها .

(٢) بذكر أبيك : بسبب ما ذكره له أبوك .

(٣) الدُستُورات : الدستور : قانون الجماعات ، والمراد به هنا الدُجَلات المحتوية على أوصاف الأراضى وحدودها والمشرفين عليها .

(٤) يعتبر : يتدبر ويتأمل .

(٥) عبر الضياع : عبر الشاطئ ، والمراد بعبر الضياع حدودها وكل ما يتعلق بها .

(٦) المعتصم هو ثامن الخلفاء العباسيين ، بويح بالخلافة سنة ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون وبعهد منه ، وهو باني مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بحجده ، وقد توفى بها سنة ٢٢٧ هـ . [الأعلام جزء ثالث] .

أخبار إبراهيم بن المهدي ، وصربه إلى حتى يقرأهما عليّ ، قال :
أفعل .

وكان إسحاق بن نصير يعرف موضعي . فقال له ^(١) : أحتاج إلى
أحمد بن يوسف . قال : تؤمنه وعلى إحضاره ! فكتب له أماناً
بخطه وحلف فيه ألا يسوءني ، ولا يطالبني . فخرجت إليه وأحضرتة
الكتابين ، وفرج الله عني بأضعف سبب .

*
* *

وحدثتني أم أسية قابلة أولاد نمارويه بن طولون (وكان
لها دين ، ومذهب جميل ، ومحل لطيف من نمارويه) وقد تذاكرنا
لطف الله (عز وجل) في أرزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم :
أنه تزوجها وأختها أخوان . فاقبلت حال زوجها أختها ، وأدبرت
حال زوجها . قالت : وتوفي زوجها بأسوأ حالة ، وخلف لها
بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله . وتوفي زوج أختها ، وقد
خلف ^(٢) من العين والمساكن والأواني لولد أختها .

(١) فقال له : أي قال أبو علي لإسحاق بن نصير .

(٢) خلف : المفعول به محذوف وتقديره " كثيرا " أو نحوها .

قالت: فكنتُ أجاهدُ في مؤونةِ ولدى ، وإذا وقفَ أمرى صرْتُ
إلى أُختى فقلتُ : أقرضينى كذا وكذا استحياءً من أن أقول لها :
هَبى لى . ودخلَ شهرُ رمضان ، فلما مضى نصفه اشتها^(١) على صبيانى
حلواءَ فى العيد ، فصرْتُ إلى أُختى فقلتُ لها : أقرضينى ديناراً
أعملُ به للصبيان حلواءَ فى العيد . فقالت : يا أُختى تَغِظِيتِنى
بقولك : ” أقرضينى “ وإذا أقرضتُك من أين تُعطينى ؟ أمِن غلَّةٍ
دورك أو بُستانك ؟ ! لو قلتُ هَبى لى كان أحسنَ . فقلتُ لها :
أقضيك من لطفِ الله تعالى الذى لا يُحْتَسَبُ^(٢) ، وجوده الذى
يأتى من حيث لا يُرْتَقَب . فتضاحت وقالت : يا أُختى ! هذا
والله من المُنَى ، والمُنَى بضائعُ النَوَكِ^(٣) ! فانصرفتُ عنها أجرةَ رجلى
إلى منزلى .

وكان فى جوارنا خادمٌ أسودُ لبنتِ اليتيم امرأةَ بحارويه . فلما
بلغتُ حارتنا قال لى : فى جوارنا امرأةٌ تُطَلِّقُ^(٤) قد أوجعتُ

(١) اشتها على صبيانى : لغة ضعيفة .

(٢) يحتسب : يظن ويقدر .

(٣) النوكى : الحقيقى .

(٤) تطلق : بالبناء للعلوم ، أصابها الخاض .

قلبي ! ادخلى إليها فليس لها قابلة . قالت أم آسية : ووالله ما عانيت
مَمْخُوضَةً^(١) قط ! فدخلت إليها فمسحت جوفها وأجلستها كما كان
القوابل يُجاسنني في طلقي ، فولدت من ساعتها . فلها أمسك^(٢)
صياحها ، جاء الخادم يسأل عنها . فقلت : قد ولدت . فعجب
من سرعة أمرها ، وظن أن هذا شيئاً قد اعتمدته^(٣) بحذق صناعة ،
ولطف في مهنة ، فمضى إلى سته^(٤) بنت اليتيم وكانت مقرباً^(٥) بأول
ولد حمل لأبي الجيش ، وقد عرض عليها قوابل استنقلتهن . فقال :
في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في حارتنا تطلق فوضعت يدها
على جوفها فسقط ولدها . ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد إلا
بالله^(٦) عرّ وجل . فقالت للخادم : إذا كان غد^(٧) بجثني بها . فأتى
الغلام ودعاني إلى مولاته فأجبت بانسراج صدر وثقة بالله تعالى .

(١) ممخوضة : تعانى الولادة .

(٢) أمسك : امتنع واحتبس .

(٣) اعتمدته : قصده .

(٤) سته : سيّده وهى مولدة ، وأول ما وجدت هذه الكلمة في هذا العصر .

(٥) مقرباً : قربت ولادتها .

(٦) بالله : بمعونة الله .

(٧) في الأصل : غدا .

فاستخفَّت رُوحى وقالت : إلى التَّمام ^(١) تقديرُ الله تبارك وتعالى .
ثم شكَّت مَغْساً ^(٢) تجده المُقَرَّبُ ، فأدخلتُ يدي في ثيابها ومسحتُ
جوفها وعججتُ ^(٣) إلى الله تعالى في سرِّي بتوفيق ^(٤) ، وكنتُ
أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم أنى أرقى ^(٥) ، فسكن ما وجدته
وتبركتُ بى ، ودخل إليها خمارويه ، وقال : ما وجدتِ ؟ فقالت مَغْساً
في جوفى فوضعتُ قابِلَةً أَرَدْتُهَا ^(٦) يدها عليه فزال ما أجده ،
وأخرجتنى إليه (وكان قريباً من حرِّه ^(٧)) . فقال لى : أرجو أن
يُخَلِّصَهَا اللهُ (عزَّ وجلَّ) ببركتك .

قالت أمُ آسِيَّةَ : ودخلنا في العَشرِ الأَوَّحِرِ من شهر رمضان .
وقد تمسَّكتُ من الإخلاص لله (عزَّ وجلَّ) بما لا يصلُّ إليه

(١) إلى التمام : الوصول إلى تمام الولادة .

(٢) مَغْساً : المغس ، ويمرّك : كالمنص بالصاد ، وجع في البطن .

(٣) عججت : الأصل في العج رفع الصوت وضمّه معنى الالتجاء .

(٤) بتوفيق : أى داعية بتوفيق .

(٥) أرقى : رقى المريض ونحوه يرقه رقياً : عوّذه بكلمات وأدعية لإزالة الضرعه

(٦) أَرَدْتُهَا : اخترتها .

(٧) الحرْم : ما يحويه الرجل ويقا تل دونه ، والمراد هنا مكان النساء من القصر .

مَنْ سَاحَ فِي الْجِبَالِ ^(١) ، خَوْفًا مِنْ شِمَاتَةِ أُخْتِي بِي . فَلَمْ تَمْضِ إِلَّا
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى مَخَضَتْ ^(٢) فَأَجْلَسْتُهَا عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلَادَةِ (وَكَانَ
مَقْدَارُ طَلْقِهَا سَاعَتَيْنِ) فَوَلَدَتْ ابْنًا أَسْهَلَ وَلَادَةٍ ، وَأَبُو الْجَيْشِ يَقُومُ
وَيَقْعُدُ وَيَذْهَبُ وَيَجِيءُ . فَلَمَّا وَلَدَتْ وَكَانَتْ تَتَوَقَّعُ مِنَ الْوِلَادَةِ أَمْرًا
عَظِيمًا ، فَلَمَّا ^(٣) أَلْقَتْهُ : قَالَتْ لِي : هَذَا ^(٤) الطَّلُقُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ .
فَقَبَّلَتْ — يَعْلَمُ اللَّهُ — عَيْنِي مِنَ الْفَرَحِ . وَصَاحَ نُحَارُوِيهِ : أَخْبِرْنِي
يَا مُبَارَكَةً بِخَبَرِهَا . فَقُلْتُ : وَحْيَاةُ الْأَمِيرِ إِنَّمَا فِي عَافِيَةٍ ، وَقَدْ وَلَدَتْ غُلَامًا
سَوَى الْخَلْقِ بِحَمْدِ اللَّهِ ، فَوَجَّهَ إِلَى بَالْفِ دِينَارٍ ، وَأَلَحَّ أَبُو الْجَيْشِ
فِي النَّظَرِ إِلَيْهَا لِقَرِطِ إِشْفَاقِهِ عَلَيْهَا . فَاسْتَوْقَفْتُهُ إِلَى أَنْ نَقَلْتُ حَوَائِجَ
الْوِلَادَةِ ، وَقُلْتُ لَهَا يَا سَيِّدَتِي ! اضْحَكِي فِي وَجْهِهِ كَمَا ^(٥) تَرَيْنَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ
إِلَيْهَا ضَحِكَتْ فِي وَجْهِهِ ، فَتَقَدَّمَ بِصَدَقَةٍ بِمَالٍ كَثِيرٍ عَنْهَا وَعَنْ وَلَدِهِ .

(١) وَقَدْ تَمَسَّكَتْ الْخ : تَمَسَّكَتْ اعْتَصَمَتْ بِمَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ سَاحِ فِي الْجِبَالِ
تَرِيدُ بِذَلِكَ الزَّهَادَ وَالْعِبَادَ الَّذِينَ هَجَرُوا الدُّنْيَا حُبًّا لِلَّهِ وَرَغْبَةً فِي رِضَاهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ .

(٢) مَخَضَتْ كَسَمِعَ وَمَنْعَ وَغْنَى مَخَاضًا (بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ) أَخَذَهَا الطَّلُقَ .

(٣) كَثُرَتْ ”لَمَّا“ عَلَى أَسْلُوبِ الْحَدِيثِ وَالْمُشَافَهَةِ .

(٤) هَذَا الطَّلُقُ : أَيْ الطَّلُقُ الْأَخِيرُ .

(٥) كَمَا تَرَيْنَهُ : أَيْ عِنْدَمَا تَرَيْنَهُ ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ اسْتَعْمَلَ الْمُؤَلِّفُ ”كَمَا“ بِهَذَا الْمَعْنَى
وَيُظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ تَعْبِيرَاتِ الْعَصْرِ .

وقالت لى أم آسية: لما كان يومُ الأُسْبُوعِ (ووقع قبلَ العيدِ بيومٍ واحدٍ) أُمِرْتُ لى بخمسمائةِ دينارٍ، وحصلَ من أتباعها ألفُ دينارٍ.

فحصلَ لى ألفان وخمسمائةُ دينارٍ . وخلعتُ علىَّ وسائرُ حشمِها أكثرَ من ثلاثينَ خِلعةً . وحُملَ إلىَّ مما أُعِدَّ لِلْعِيدِ ثلاثُ موائدَ خاصَّةٍ . وانصرفتُ إلى منزلى فأرسلتُ إلى أُختى مائدةً ، ووافتنى مُهَنَّةً ، وقد تقاصرَ طولُها^(١) ، فأريتها ما حصلَ لى من المالِ والخَلَعِ والطيبِ، وقلتُ لها: يا أُختى! أنكرتِ علىَّ قولى: ”أقرضينى!“ ومن هذا كنتُ أقضيك^(٢) . فلا تستصغرى من كان الله مادتهً ، وعليه مدارُ ثِقَتِهِ وتعويضه .

واكتسبت هذه المرأةُ بمحلَّها من أبى الجيشِ مالا كثيرا ، وقضتُ للجماعة من وجوه البلدِ حوائجَ خطيرةً .

*
* *

(١) طولُها : الطول (بفتح وسكون) الفضل والقدرة والغنى والسعة ، ويصح أن تقرأ بضم الطاء أى تواضعت .

(٢) ومن هذا كنتُ الخ : أى وكانت نيتى أن أقضى دينى من هذا الذى كنت أرجوه من فضل الله وكرمه .

وحدثني شجاع بن أسلم الحاسب . قال :

قلت لسند بن علي : من كان سبيك ^(١) إلى المأمون حتى اتصلت به
وكنت [من جلسائه] من العلماء ^(٢) . فقال : أحدثك به ، كان والدي
يتكسب بصناعة أحكام ^(٣) النجوم مع قوم من أسباب ^(٤) السلطان
يودونه ويحبونه ، وتعلق قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب أقليدس ^(٥)
بكتاب المجسطي ^(٦) . وكان في أيام المأمون بسوق الوراقين رجل
يعرف بمعروف ، يورق ^(٧) هذا الكتاب ويبيعه بعد تكامل خطه
وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً . فسألت والدي ابتياعه لي . فقال :

(١) سبيك : وسيلتك .

(٢) من العلماء : بيان لمن .

(٣) أحكام النجوم : علم الهيئة ، أو معرفة المستقبل من النجوم .

(٤) أسباب السلطان : أعماله .

(٥) كتاب أقليدس : كان أقليدس من حكماء اليونان ، وقد ألف كتابه في الهندسة ،
ويسمى علماء الإسلام هذا الكتاب بالأصول ، وأول من نقله إلى العربية المجاج
بين مطر الكوفي ، ثم نقله إسحاق بن حنين ثم ثابت بن قرة .

(٦) المجسطي : كتاب وضعه بطليموس في علم الهيئة وحركات النجوم وترجم
إلى العربية ليحيى بن خالد بن برمك .

(٧) يورق : يستعمل المؤلف التوريق بمعنى النسخ للبيع .

أَنْظِرْنِي^(١) يَا بَنِي إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ لِي شَيْءٌ أَخْذُهُ إِمَّا مِنْ رِزْقٍ ، وَإِمَّا مِنْ
 مِنْ فَضْلٍ^(٢) ، وَأَبْتَاعُهُ لَكَ (وكان لي أخٌ لَا يَسْتَهِي مِمَّا [تَقْدَمْتُ
 أَنَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَخْدُمُ أَبِي فِي حَوَائِجِهِ وَ [يُظْهِرُ]^(٣)
 الْإِشْفَاقَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا سَوَّفَنِي أَبِي بِالْكِتَابِ وَطَالَتِ الْمُدَّةُ فِيهِ . رَكِبْتُ مَعَهُ لِأُمْسِكَ دَابَّتَهُ
 فِي دُخُولِهِ إِلَى مَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ ، وَلِي إِذْ ذَاكَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً . فَخَرَجَ
 إِلَى غُلَامَانِ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ ، فَقَالُوا : أَنْصَرِفْ فَقَدْ أَقَامَ أَبُوكَ عِنْدَ مَوْلَانَا .
 فَضَيَّيْتُ بِالْذَّابَةِ فَبِعْتُهَا بِسَرَجِهَا وَلِحَامِهَا بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثِينَ دِينَارًا ،
 وَمَضَيْتُ إِلَى مَعْرُوفٍ فَاشْتَرَيْتُ الْكِتَابَ بَعِشْرِينَ دِينَارًا . وَكَانَ لِي بَيْتٌ
 أَخْلُو فِيهِ . وَجِئْتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ لَهَا : قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكُمْ جَنَايَةً ،
 وَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ ، وَحَلَفْتُ لَهَا أَنْ شَحَذْتُ^(٤) أَبِي عَلَى حَتَّى
 يَمْنَعَنِي مِنَ النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ لِأَنْخُرَجَنَّ عَنْهُمْ إِلَى أَعْدِ غَايَةٍ ، وَرَدَدْتُ
 عَلَيْهَا فَضْلَ ثَمَنِ الذَّابَةِ . وَقُلْتُ لَهَا : أَنَا أَغْلِقُ بَابَ هَذَا الْمَنْزِلِ الَّذِي

(١) أَنْظِرْنِي : تَهَيَّأْ عَلَيَّ وَأَخْرِمْطَالِبَتِي .

(٢) مِنْ فَضْلٍ : مِنْ مَطَاءٍ .

(٣) زَيْدٌ مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ .

(٤) شَحَذْتُ : شَحَذَ السَّكِينُ أَحَدَهَا ، وَيُرِيدُ مِنَ الشَّحْذِ هُنَا التَّحْرِيزُ .

لى ، وأرضى منكم برغيف يُلقَى إلى كما يُلقَى إلى المحبوس إلى أن أقرأه
جميعه . فتضمنت^(١) لى بتسكين فورته ، ودخلت البيت وأغلقتُه من
عندى^(٢) . فمضى أنحى إلى والدى فى الموضع الذى كان فيه فأسرَّ
إليه الخبر ، فتغيّر وجهه ، وتلجلج فى حديثه ، فقال له من كان
عنده : قد شغلت قلبى وقلب من حضر بما ظهر منك فبحقِّ
عليك إلا أخبرتنا بماذا ؟ قال : فحدثه . فقال : هذا والله يسرُّنا فى ولدك
فاتعد فيه بكلّ جميل . ثم استحضر من اضطبله بغلاً أفره من بغل
أبى ، وسرجاً خيراً من سرجه . وقال لأبى : اركب هذا البغل
ولا تكلم أبناك بحرف .

قال سند : وأقيمت ثلاث سنين كيوم واحد ، لا يرى لى أبى
صورة وجهه ، وأنا مُجدُّ حتى استكملت كتاب المجسطى ، ثم خرجتُ
وقد عملتُ أشكالا مستصعبات ، ووضعتها فى كُمى ، وسألت هل
للهندسين والحساب موضع يجتمعون فيه ؟ فقبل لى : لهم مجلس .

(١) فتضمنت : أصل تضمن : التعدى بنفسه : يقال ضمته الشئ فتضمنه
عنى ، ولكن المؤلف استعمله بمعنى ضمن يقال ضمن الشئ وبه كفله .

(٢) من عندى : من الداخل .

في دار العباس بن سعيد الجوهري^(١) ترب المأمون ، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة . فحضرتُه ، فرأيت جميع من حضر مشايخ ، ولم يكن فيهم حدثٌ غيري ، لأنني كنت في العشرين سنة .

فقال العباس : مَنْ تكونُ وفيمن نظرت ؟ فقلتُ : غلامٌ يحبُّ صناعة الهندسة والهيئة . قال : ما قرأت . قلتُ : أقليدس والمجسطي قال : قراءة إحاطة ؟ قلتُ : نعم ، فسألني عن شيءٍ مستصعب في كتاب المجسطي كان تفسيره في الأوراق التي كانت في كُمِّي ، فأجبتُه فعجب وقال : من أفادك هذا الجواب ؟ قلتُ : استخرجته قريحتي ، وما سمعته من غيري ، وهو وغيره فيما مرَّ بي في ورقٍ معي . قال : هاتِه فلما رآه اغتاظ واضطرب . ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانِه : السِّفَطُ^(٢) . فجاء به فنظر إلى خاتمه فوجده بحاله ، ثم فضَّه وأخرج منه كُرَّاسَةً فجعل يُقابل بها الورق الذي كان معي ، فكان الكلامُ فيما معه أحسنَ وصفاً من الكلام الذي معي ، والمعنى واحدٌ .

(١) خبير بحساب الفلك وعمل آلات الأرصاد ، صاحب المأمون وندبه إلى مباشرة الرصد في جملة المتولين لذلك بالشمسية ببغداد .

(٢) السِّفَط : وءاء كالجوالق أو القفة كانوا يضعون فيه الكتب .

فقال : هذا شيءٌ توليتُ تبيينه من كتاب المجسطى ، فلما أحضرته
توهمتُ أنه سُرق منى حتى تبينتُ اختلافَ اللفظين مع اتفاق
المعنى ، ثم أمر أن يُقَطَّع لى أَقْيَّةٌ ، ويرتاد لى^(١) منطقةٌ مذهبَةٌ ،
فَقَرَّغ من جميع ذلك فى تلك الليلة ، وأدخل بى إلى المأمون .
وأمرنى^(٢) بملازمته وأجرى لى أنزالاً^(٣) ورزقا .

*
* *

وحدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال :

حدثنى أبى أن جبريل بن بختيشوع^(٤) كان يخلف^(٥) الأطباء فى دار
الرشيد ، وكانت به نزاهةٌ وبه فاقةٌ شديدة ، وورقه يومئذ ثلثمائة درهم فى كل
شهر . فوقع الرشيد فى غشية لم يتقدمها علة . فأجمع الأطباء على أنه تالف ،

(١) يرتاد لى : يطلب لى .

(٢) أمرنى : أى المأمون .

(٣) أنزال : جمع نزل : (بضم فسكون) وهو الأجر الشهري أو السنوى .

(٤) هو جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وجليسه ، خدم الأمين بعد وفاة
الرشيد ، ولما ولى المأمون سجنه ثم أطلقه ورفعته إلى مثل مكانته فى عهد الرشيد ،
توفى سنة ٢١٣ هـ ودفن بالمدائن (الأعلام ج ١) .

(٥) يخلف الأطباء : يأتى بعدهم فى المنزلة ويقوم بعملهم إذا غابوا .

وأخبر ابنُ بختيشوعَ فقال : ما له إلا علاجٌ واحد، وهو أن يحجموه .
 فقال محمدُ الأمين : أخاف أن أخطرَ به . ثم قال : قد أئسنا منه ،
 والصوابُ أن نمتحنَ هذا^(١) فيه . فأحضروا الحجامَ فجمعَ الدمَ
 في أخذعيه^(٢) وهو مُستلقٍ . ثم أخرج من دمه محجمتين^(٣) ففتحَ
 الرشيدُ عينيه ؛ وأستدعى طعامه وأكلَ ونام . فلما أنتبه أقتصَّ عليه
 المأمونُ ما جرى عليه [أمره ، وأذن] للداخلين في تهنئته بالسلامة .
 فلما أكتملوا قال لهم : يا معاشرَ الأمراءِ والأطباءِ إنما أرتببطكم^(٤)
 لحراسةِ نفسي ، وقد حدثَ علىَّ حادثٌ لم يُغنِ عني فيه بعدَ اللهِ
 (عزَّ وجلَّ) إلا هذا الغلامُ ! ونصبيُّه مني تَزُرُّ ونصبيُّكم وافرٌ ،
 فاعِدِلوا مِيلَ المملَكةِ بأن يجعلَ له كُلُّ رجلٍ منكم نصيباً من إنعامي
 عليه ، وإحساني إليه ، حتَّى يكونَ له من جماعتكم ما يوازي ما تقدَّم
 عليه^(٥) به في حسنِ الدفاعِ عني .

(١) هذا : أى الحجم .

(٢) أخذعيه : الأخدع : شعبة من الوريد في جانب العنق .

(٣) محجمتين : المحجمة : وعاء يحجم به . والمراد ملء محجمتين .

(٤) ارتببطكم : عييتكم وخصصتكم بخدمتي .

(٥) عليه : أى على كل رجل منكم .

ففسّرع الناس إلى جبريل ، فأعطوه الضياع والدور والأموال ،
وما برج حتى كان أيسر من في المملكة ، وتربت النعمة لديه وولده
حتى وازت نعم الخلفاء .

*
* *

وحدثني عمرو بن محمد بن عمرو بن عثمان عن أبيه عن جده قال :
كان لي مجلس في ديوان الإنشاء قليل الحدوى على ، وحالي
حال لا تنهض بما يحتاج إليه المقتصد ، وقد لزممتي يمين لا كفارة
لها في ترك النبذ^(١) .

فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير ، وهو يومئذ الفضل
ابن الربيع ، فاذا أنصرف إلى منزله أنصرفوا إلى ما عقدوا عليه أمرهم
من الاجتماع ، وأقيم وحدي في الديوان إلى أن يغلق . فبكرت إليه
في يوم من الأيام ، وجاءت مطرة تطرب الوزير فيها إلى الشرب ،
لتشاغل الرشيد في دعوة لزيدة ، فلم يبق في ديوان الإنشاء غيري .
فإني لجالس حتى دخل إلى خادم من خاصة الرشيد فأخذ بيدي
وأدخلني إلى الرشيد . فلما مثلت بين يديه ، قال : اقرأ هذا الكتاب .

(١) في ترك النبذ : حلف على ترك النبذ .

فقرأته فبينته وأعربته^(١) . فقال : أجب عنه بين يدي . فأجبت
عنه بأحسن معانٍ ، وأجود لفظٍ ، فقال : إقرأه عليّ ، فقرأته .
فقال لمسرور الكبير : ألف دينار^(٢) ، بجاء بها . فقال : ادفعها إليه
وقل للفضل يصرف إليه ديوان الإنشاء^(٣) ، فهو أحق به ممن
غادره . ثم قال لي : خذ هذا المال وسأنظر لك في الوقت بعد
الوقت ما يزيد في اصطناعي لك . فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة
من حسن ملازمتك ، واستزديني . أزدك .

قال عمرو^(٤) فاجتهد الفضل بن^(٥) الربيع أن يشرك بيني وبين
من كان يتولى الإنشاء فلم يطلق له الرشيد ذلك . وأفردني به حتى
فرقت الأيام بيننا .

(١) أعربته : وضّحته وأفصحته عنه .

(٢) ألف دينار : أى أعطه ألف دينار .

(٣) يصرف إليه ديوان الإنشاء : يتولى رياسته .

(٤) قال عمرو : أى راوياً خبر جده .

(٥) الفضل بن الربيع : هو الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد بعد عهد
البرامكة ووزير الأمين بعد وفاة الرشيد ، وقد عاش في عهد المأمون مهملاً مجفواً
توفي بطوس سنة ٢٠٨ هـ (الأعلام جزء ثان) .

خاتمة

قال أبو جعفر . قال بزرجمهر : ” الشدائد قبل المواهب تُشبه الجوع قبل الطعام : يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله ” .

وقال أفلاطون : الشدائد تُصلح من النفس بمقدار ما تُفسد من العيش ، والتترف ^(١) يُفسد من النفس بمقدار ما يُصلح من العيش .
وقال : حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد ، وآله عن كل صديق أهدته إليك النعمة . وقال أيضا : الترف كالليل ، لا تتأمل فيه ما تُصدره وتتناوله ، والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك .

وقال أردشير ^(٢) : الشدّة تُحلّ ترى به مالا تراه بالنعمة . وملاك ^(٣) مصلحة الأمر في الشدّة شيئان ، أصغرهما قوّة قلب صاحبها على ما ينوبه ، وأعظمهما حسن تفويضه إلى مالكه ورأيه . وإذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنّه لم يمتحنه إلا بما يُوجب له مَثُوبَةً ،

(١) الترف : التمتع .

(٢) كان ملكا من ملوك الفرس حازما صائب التفكير كتب لابنه سابور عهدا ليكون له ولن بعده نبراسا وناموسا لضبط المملكة . ملك نحو أربع عشرة سنة .

(٣) ملك : ملاك الشيء قوامه الذي يمسك به .

أَوْ يَمَحِّصُ^(١) عَنْهُ كَبِيرَةً ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مَعَ اللَّهِ فِي أَرْبَاحٍ مُتَّصِلَةٍ ،
وَفَوَائِدَ مُتَّابِعَةٍ .

فَإِذَا أَشْتَدَّ فِكْرُهُ تَلَقَّاءَ الْخَلِيقَةِ كَثُرَتْ رِذَائِلُهُ ، وَزَادَ تَصْنَعُهُ
وَبَرِمَ بِمُقَامِهِ فِيمَا قَصَرَ عَنْ تَأْمِيلِهِ ، وَاسْتِطَالَ مِنَ الْمَحَنِ مَا عَسَى أَنْ
يَنْقُضِيَ فِي يَوْمِهِ ، وَخَافَ مِنَ الْمَكْرُوهِ مَا لَعَلَّهُ أَنْ يُخْطِئَهُ .

وَإِنَّمَا تَصَدَّقُ الْمُنَاجَاةُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ رَبِّهِ لَعَلَّهُ بِمَا فِي السَّرَائِرِ ،
وَتَأْيِيدُهُ الْبَصَائِرَ ، وَهِيَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَشْبَاهِهِ كَثِيرَةُ الْأَذْيَةِ ،
خَارِجَةٌ عَنِ الْمَصْلَحَةِ .

وَلِلَّهِ تَعَالَى رَوْحٌ^(٢) يَأْتِي عِنْدَ الْيَأْسِ مِنْهُ^(٣) ، يُصِيبُ بِهِ مِنْ
يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ . وَإِلَيْهِ الرِّغْبَةُ فِي تَقْرِيْبِ الْفَرَجِ ، . وَتَسْهِيلِ الْأَمْرِ
وَالرَّجُوعِ إِلَى أَفْضَلِ مَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ السُّؤْلُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

*
* *

(١) يَحْصِي عَنْهُ : يَخْلُصُهُ مِمَّا يَشُوْبُهُ .

(٢) رَوْحٌ : رَاحَةٌ وَرَحْمَةٌ .

(٣) مِنْهُ : أَيُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَفَرَجِهِ .

فهرس الكتاب

صفحة

ج	تقديم
١	خطبة المؤلف

المكافأة على الحسن

٥	قصة خالد القسرى والديوانبان
٨	» ما شاء الله بن مرزوق ومتضمن
١١	» أحمد بن دعم وأعرابيين
١٥	» موسى بن مصلح ومحبوس
٢٥	» اسماعيل بن اسباط والخناق
٢٥	» مسلمة بن عبد الملك ومجد بن على أبي الخلفاء
٢٩	» اسحاق بن نصير ووراق
٣٢	» ابن الزق والقاسم بن شعبة
٣٤	» هارون بن ملول واسحاق بن ابراهيم
٣٧	» المؤلف مع نفر من القيسية
٤١	» المؤلف مع عباسى من ولد المأمون
٤٣	» يحيى بن نجة وعمر بن فرج
٤٨	» يوسف بن ابراهيم ومن كان يحسن إليهم
٥٠	» المؤلف وبعض التجار
٥٣	» أحمد بن بسطام وصاعد
٥٦	» نجاح بن سلمة واسحاق بن تميم
٦٠	» مجد بن يزيد ومسافر
٦٤	» أبي حبيب المقرئ وعبد رعى الغنم
٦٦	» أحمد بن أبي عصمة وأحمد بن أبي طغان
٦٨	» النصرانى المصرى والهارب من المتوكل

صفحة	
١٣٩	قصة أحمد بن المدبر ومتقبل
١٤١	» نمارويه ومحمد بن أبي الساج
١٤٣	» أحد أقارب ابن يهفرو وعجوز يمانية
١٤٥	» امرأة هشام بن عبد الملك وزينب بنت سليمان
١٤٧	» اليون وميخائيل ملكي الروم
١٥٢	» سيف بن ذي يزن وترجمان كمرى
١٥٥	» كاتب أبي الوزير وبعض العمال
١٥٦	» ابن الأبرد وكاتبه
١٥٧	» عمرو بن العاص وبعض أشرار مصر
١٥٩	» الدفاني والحناني
١٦٠	تمهيد المؤلف للقسم الثالث من الكتاب

حسن العقبى

١٦٢	قصة ابني عمر الاخبارى وأحد الشطار
١٦٧	» القتي الملق والعباس بن خالد
١٧٣	» أبي يوسف وابن القاسم الغنوى
١٧٦	» علي بن سند وأبي الجيش ثابت
١٧٨	» محمد الغورى ولص
١٨٠	» مصقلة بن حبيب ومعن بن زائدة
١٨٢	» أبناء أحمد بن طولون وهارون بن نمارويه
١٨٤	» التاجر وأحد ملوك الهند
١٨٧	» الشامى والفضل بن يحيى
١٩٠	» يوسف بن ابراهيم ومزاحم بن خاقان
١٩٣	» ابراهيم بن الأعجمى والسندى بن شاهك
١٩٥	» ابني موسى بن شاكر وسند بن علي
١٩٩	» غزاة أقر بطش والشيخ الصالح
٢٠١	» سهل بن شنيف وأحمد بن بسطام

صفحة	
٢٠٣	قصة المؤلف وابن بسطام
٢٠٥	» أم آسيا القابلة واتصالها بقصر تمارويه
٢١١	» سند بن علي وابن سعيد الجوهري
٢١٥	» جبريل بن بختيشوع والرشيدي
٢١٧	» عمرو بن عثمان الكاتب والرشيدي
٢١٩	خاتمة الكتاب

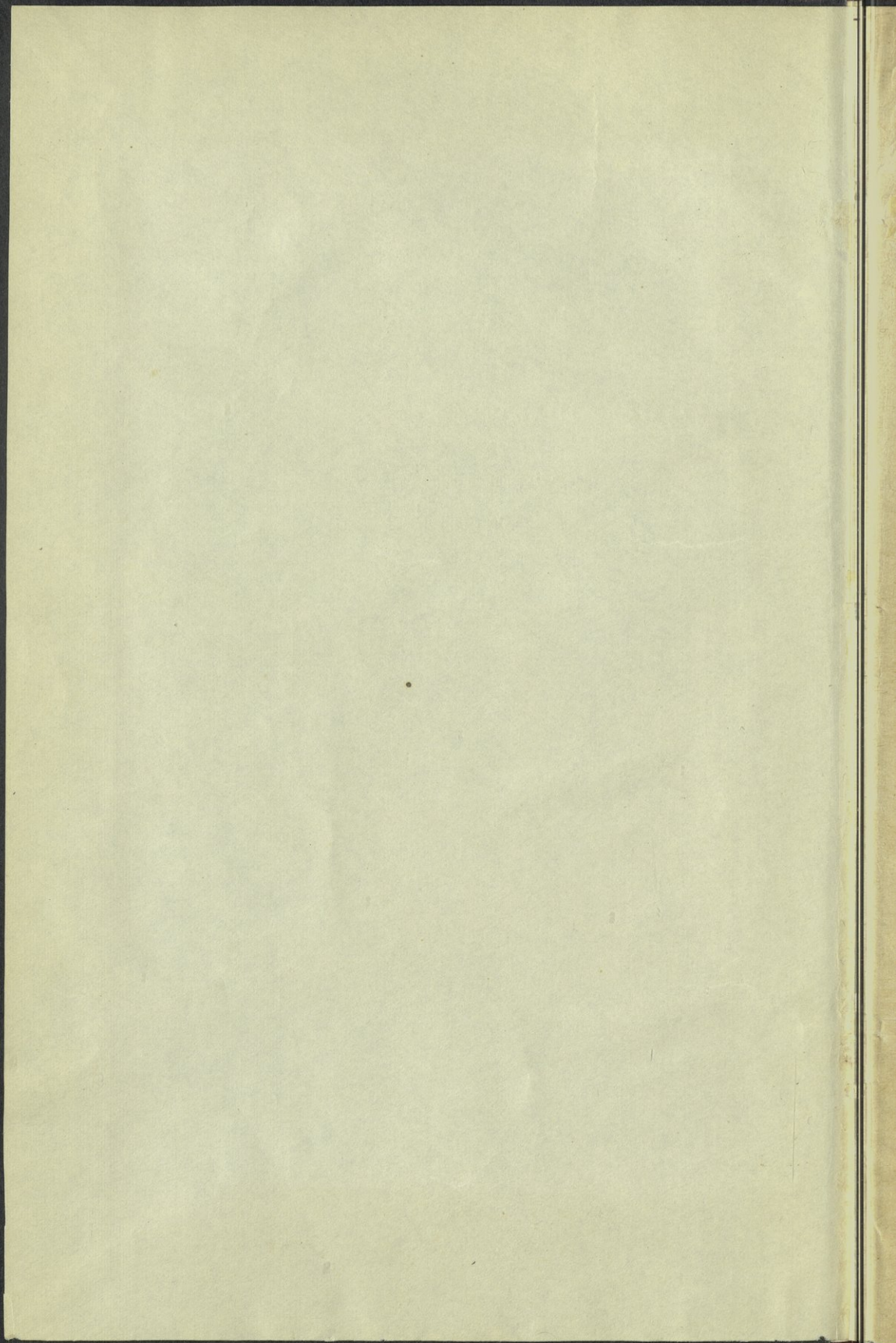
مكتبة العرب

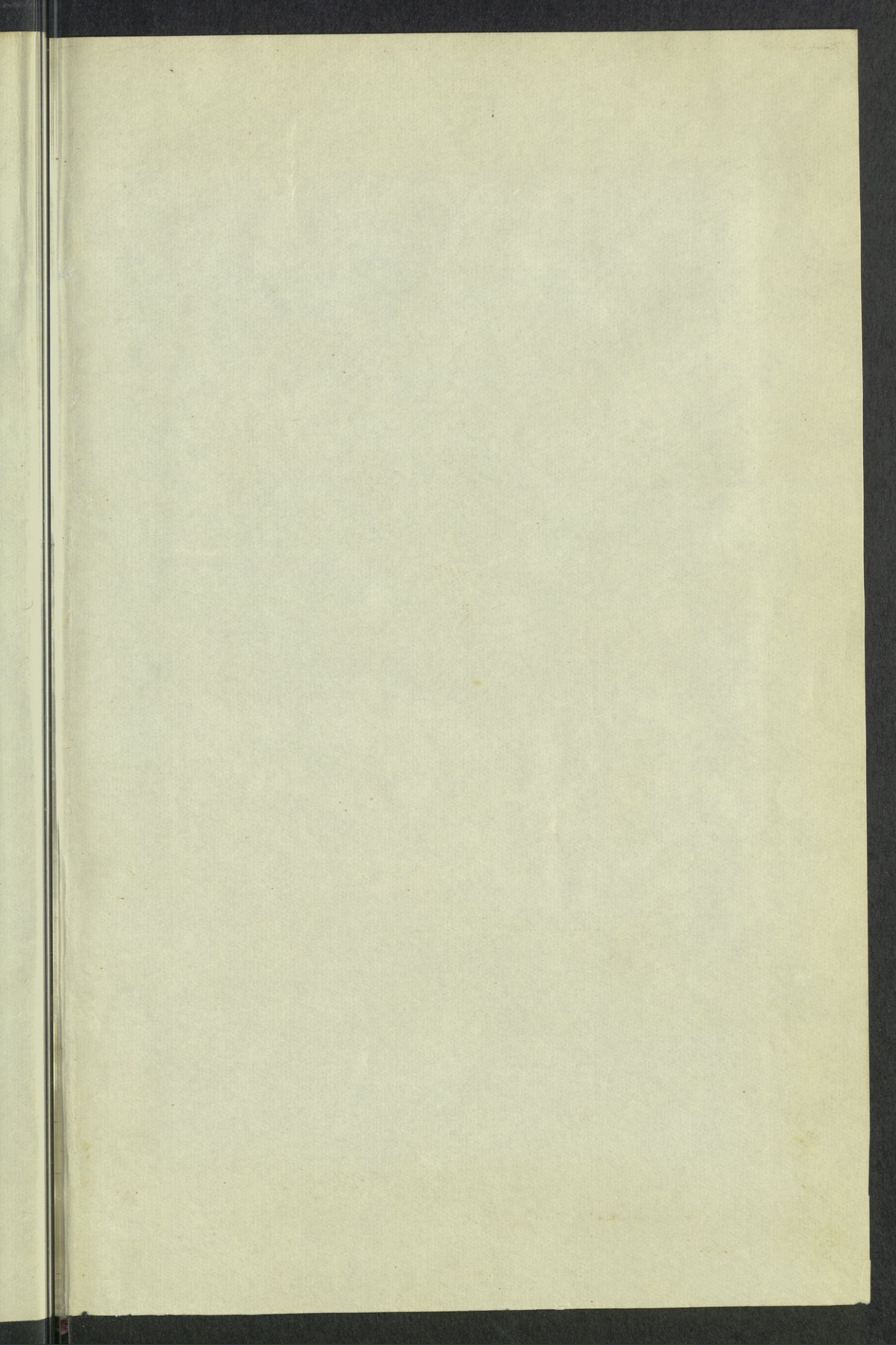
مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ ش كامل صدقي (المنجالة) القاهرة

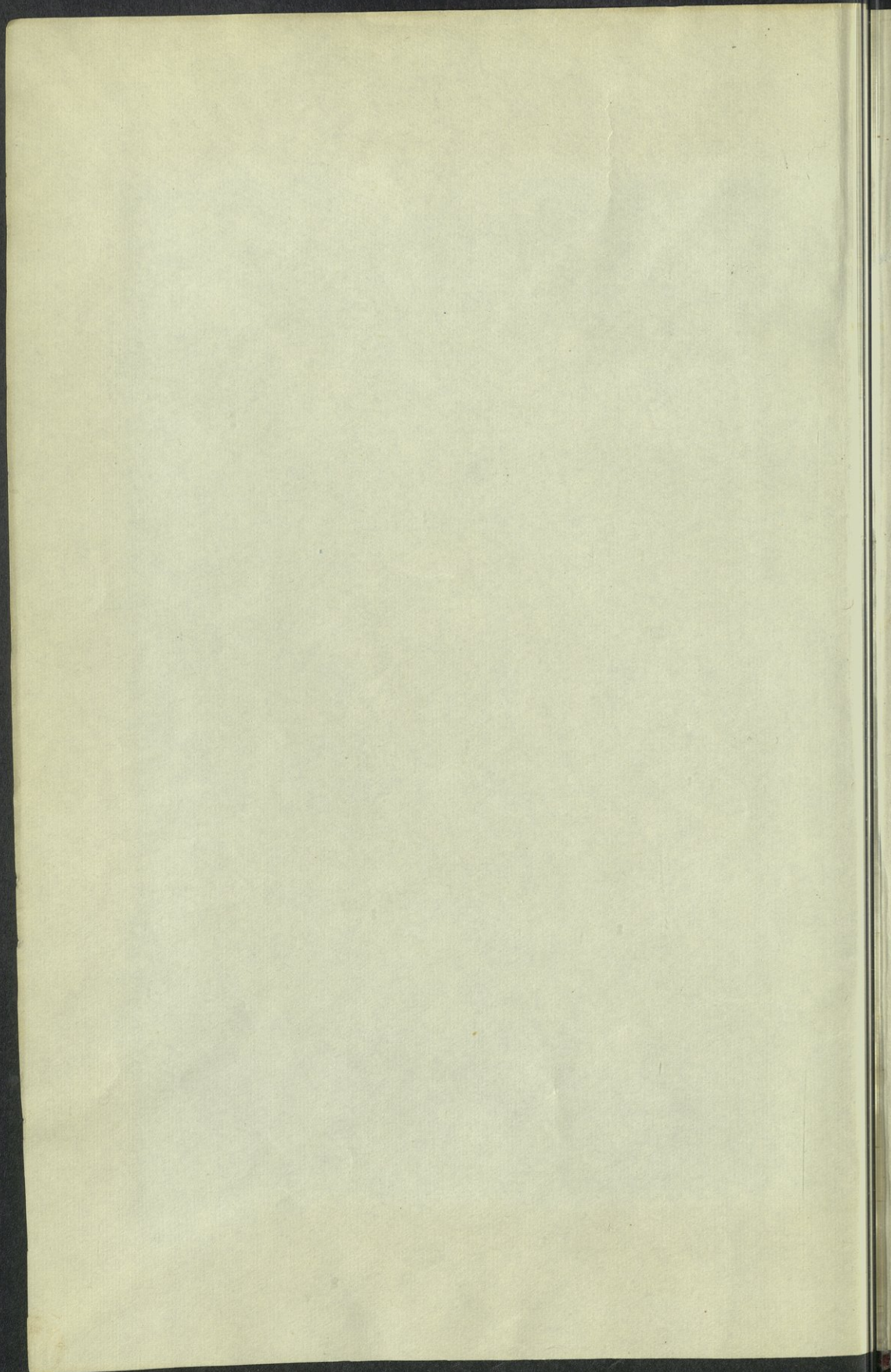
تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
في يوم ٢٤ ذي الحجة من سنة ١٣٥٩
(٢٢ من يناير سنة ١٩٤١) م

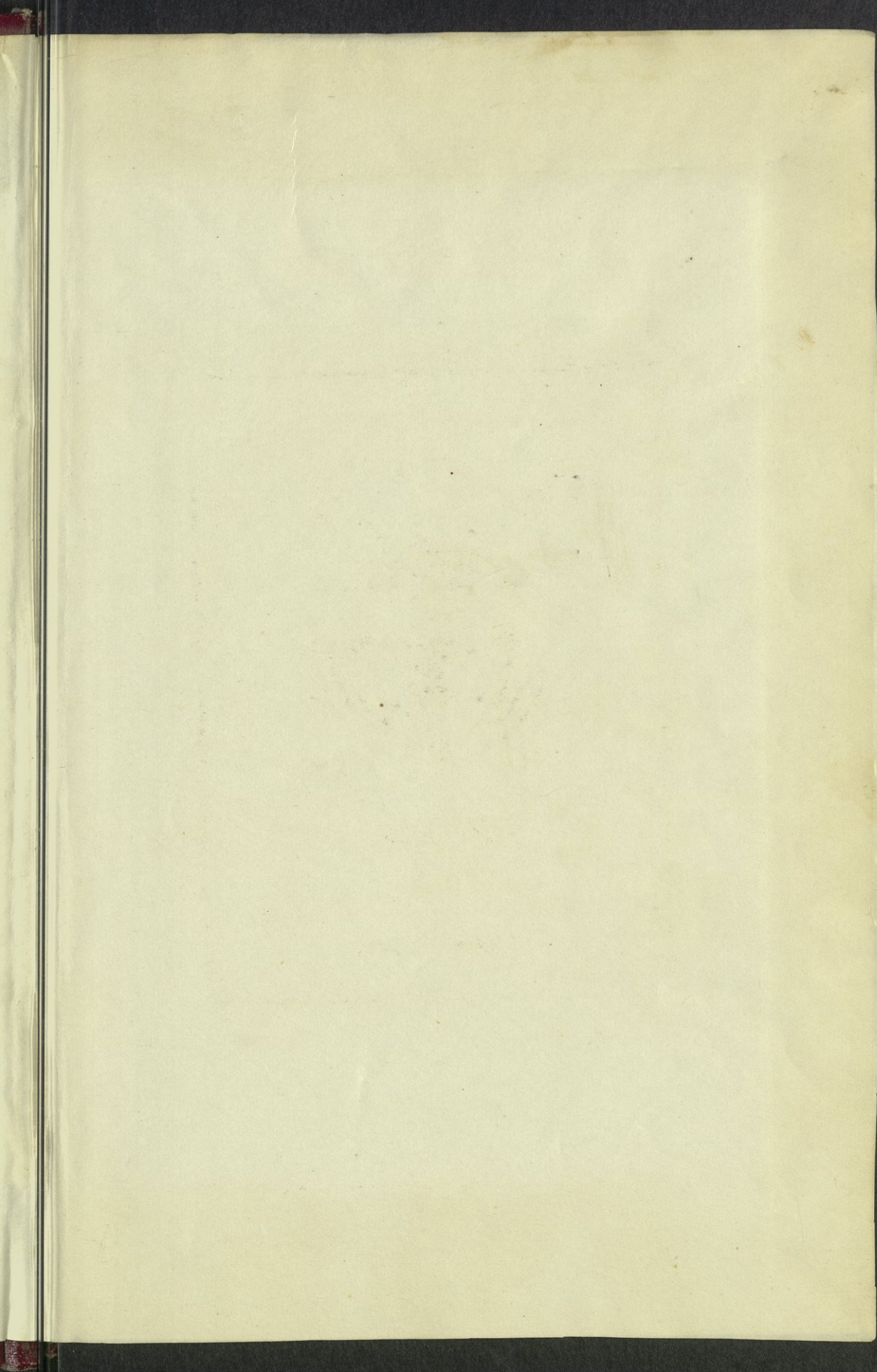
مدير المطبعة الأميرية

شجود فكي إبراهيم









892.78:11315mA:c.1

أمين، احمد

المكافأة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01042105

American University of Beirut



892.78
11315mA

General Library

